التصور السياسي للحركة الإسلامية

لفضيلة الشيخ رفاعي سرور رحمه الله

طبعة منقحة ومزيدة تنشر لأول مرة

* متى يكون طرح التصور السياسي؟
* الجواب عن دعوى أن الحركة الإسلامية لا تملك برنامجا سياسياً.
* المصطلحات الصحيحة ذات المدلول الجاهلي وطريقة التعامل معها.
* تقييم التجارب الإسلامية.
* صفات الزعامة السياسية.
* هل أمريكا هي من صنع أحداث الحادي عشر من سبتمبر؟



التصوُّر السياسي للحركة الإسلامية

لفضيلة الشيخ/ رفاعي سرور – رحمه الله

[الطبعة الثانية]

طبعة منقحة ومزيدة وهي آخر ما كتبه الشيخ رحمه الله

– تنشر لأول مرة –

رجب 1433 هـ - 05 / 2012 م

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

[من أهم ضرورات الموقف السياسي: أن يتعاون المسلمون في إدارة الحرب ليكون لهم منطلق واحد، تجتمع فيه كل الطاقات الفكرية، وكل الخبرات العملية، وكل إمكانات المتابعة الواقعية.

ويحقق وحدة الموقف الإسلامي عدة مبادئ، أهمها:

- لا صراع مع مسلم.
- اعتبار الدخول تحت الغاية النهائية.
- التفريق بين العلاقة السياسية والعلاقة الحركية.
- التوازن في تقييم صواب وخطأ الاتجاهات الإسلامية المختلفة.
- الارتكاز على الحسم الواقعي لقضايا الاختلاف الفكري.]

يقدِّم المفكِّر الإسلامي الكبير الشيخ رفاعي سرور –رحمه الله– في هذا الكتاب الخطوط العامة للتصوُّر السياسي الإسلامي، الذي يتضمن الوعي بالواقع وحقائق صراع الإسلام والجاهلية، ويرسم ملامح الحركة الإسلامية إلى تغيير هذا الواقع وإعادة الأمة الإسلامية حكم نفسها بشرع ربها، ونهوضها –أمةً لا نخبةً– إلى دورها الشرعي القدري في مدافعة الجاهلية في صراعها الباقي إلى قيام الساعة.

فالسياسة عند الكاتب –رحمه الله– ليست هي ذلك الهامش الذي تستدرج إليه الجاهلية الحركة الإسلامية؛ فتستنزف قوتها في صراعات محدودة تسيطر عليها القوى الجاهلية وتمنعها من الخروج إلى التأثير في مراكز القوى الدولية والاجتماعية.

ويحدِّد الشيخ رفاعي سرور -رحمه الله- في كتابه هذا أساليب الحراك الإسلامي إلى التأثير والتغيير، والعلاقة الشرعية والقدرية بين هذه الأساليب المختلفة، وتكاملها فيما بينها، وما يقابلها من الأساليب غير الشرعية التي تستنزف القوة الإسلامية، وتصرفها عن الاشتغال بالمواطن المؤثرة في الصراع الإسلامي مع القوة الجاهلية، كما يحدِّد فيه الأسس التي تقوم عليها العلاقة بين مختلف تيارات الحركة الإسلامية؛ حتى لا ينحرف مسيرها مع اتحاد هدفها.

وهو يبني تصوراته هذه على أساس عقدي راسخ، ونظرة حركية شاملة، وإدراك لأساليب الجاهلية في حربها على الإسلام، وخبرة بمواطن الخلل في صف الحركة الإسلامية؛ فجاء تصوره مرسوما بمعالم سياسية واضحة ومتينة.

فندعو القارئ الكريم إلى قراءة هذا الكتاب الذي كتبه مفكِّر إسلامي دقيق الفكر، وثاقب النظر، وكثير التأمُّل في آيات الوحي وأحداث القدر، فكانت كتاباته عميقة نافعة.

رحم الله عبده رفاعي سرور رحمة واسعة، ونفع الإسلام والمسلمين بما كتب وقال[1].

نخبة الإعلام الجهادي

(1) يوجد في الكتاب بعض الإطلاقات والمفاهيم التي تحتمل عدة احتمالات ويمكن أن تُفسَّر بتفسيرات مختلفة, والإنصاف يحتِّم على القارئ أن يحمل ما يشكل عليه على المحامل الحسنة, ليتوافق مع سلامة عقيدة ومنهج مؤلف الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وبعد؛

هذا الكتاب محاولة للوصول إلى تصور سياسي للحركة الإسلامية ينبني على نظرية سياسية إسلامية[1].. تقوم على التأصيل الشرعي، والتحديد الواقعي.

والحقيقة التي يجب أن نفهمها قبل طرح النظرية السياسية الإسلامية: أن الحركة الإسلامية هي وحدها القادرة على تكوين نظرية سياسية صحيحة!

---

(1) ليس المراد بالنظرية السياسية الإسلامية في كلام الشيخ رفاعي -رحمه الله- , الفكرة التي تحتمل الصواب والخطأ, فهو لا يجعل التصور الإسلامي محتمِلاً لذلك, ولكن يعبرون بالنظرية -وهو مصطلح قانوني- ويراد به دراسة مواضيع يجمعها أمر مشترك, أو مفهوم واسع تدخل تحته مسائل كثيرة مرتبطة ببعضها برابط معين ، وقد دخل هذا المصطلح بعض العلوم الشرعية منذ وقت قريب بسبب تأثر بعض الشرعيين بدراسة العلوم القانونية **[الناشر]**.

ذلك لأن للنظرية السياسية شروطًا علمية؛ وهي تكوين النظرية مع بداية مرحلة إنشاء الأمة[1] التي هي مرحلة «الدعوة»، ومن خلال المضمون الحضاري لهذه الأمة دون انقطاع للوجود التاريخي لها[2].

والأمة الإسلامية هي الأمة الوحيدة التي تكونت نظريتها السياسية من خلال منهجها مع بداية نشأتها حتى تمام تلك النشأة.

والأمة الإسلامية.. هي الأمة التي لم ينقطع وجودها التاريخي لحظة واحدة على هذه الأرض[3].

والأمة الإسلامية هي الأمة ذات المضمون الحضاري المطلق.. وهو الحق.

والآن –ورغم ذلك– فإن المستقر في الأذهان أن الدعوة الإسلامية لا تملك تصورًا سياسيًّا.. وقد جاء هذا الادعاء في الابتداء كأسلوب خطير من أساليب التنقص الجاهلي

---

(1) لأن لكل أمة مضمونًا حضاريًّا خاصًّا بها تنشأ عنه حركتها كرد فعل للحضارة المقابلة لها، وقيام الحضارات بمنطق الفعل ورد الفعل دليل على أنها حضارات مصنوعة بشريًّا..

فالحضارة اليونانية كان مضمونها الحضاري المثالية الخيالية.. والحضارة الرومانية كان مضمونها الحضاري القوة البشرية والمادية، كرد فعل للمثالية.. والحضارة الفارسية كان مضمونها الحضاري الإله الحاكم (الذي يحكمهم من البشر)، كرد فعل للقوة البشرية.. يسعى إلى نقل مفهوم القوة من البشر إلى الإله.. والحضارة الكاثوليكية كان مضمونها الحضاري التعصب، كرد فعل للحفاظ على الكاثوليكية أمام المذاهب المتعددة السابقة عليها والمواكبة لها.. والحضارة القومية كان مضمونها الفرد، كرد فعل للتعصب الاستفزازي للحضارة الكاثوليكية التي أهدرت العقل البشري واجتهاد الفرد وقيمته.

(2) لأن الانقطاع التاريخي للأمة يفقدها قدرتها على الاحتفاظ بنظريتها، والدليل التاريخي على ذلك هو الانقطاع الحضاري للأمة اليهودية الذي ترتب عليه أن تكونت النظرية السياسية اليهودية في أوروبا منقطعة الصلة عن المضمون الحضاري الحقيقي لليهودية وتبني اليهود المضمون القومي للحضارة الأوروبية، وعليه تكونت السياسة الحديثة لليهود.

(3) كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون**» (أخرجه البخاري 306/13/ح 7311، والترمذي في الفتن) واللفظ للبخاري.

للدعوة.. ولكن الادعاء استقر في الأذهان في النهاية؛ لأن الدعوة لم تعلن عن تصورها السياسي بعد.

ولم يستطع هؤلاء الذين استقر في أذهانهم هذا الادعاء التفريق بين عدم وجود نظرية سياسية، وبين وجود نظرية سياسية لم تطرح بعد.

ويبقى السؤال: لماذا لم تطرح الحركة الإسلامية -في الواقع القائم- تصورها السياسي حتى الآن؟

والإجابة: إن طرح التصور السياسي للحركة هو ذاته عمل سياسي يجب أن ينضبط بأحكام النظرية السياسية ذاتها، ومن أهم أحكام هذه النظرية.. العلاقة الصحيحة بين الفكر والحركة، وتصبح القاعدة في طرح التصور السياسي للحركة هي أن تبلغ الحركة مرحلة القوة السياسية.. فهل بلغت الحركة الإسلامية هذه المرحلة؟

نبدأ بمناقشة هذا التساؤل، وأول حقائق هذه المناقشة: أن القوة السياسية تعرف بشواهدها، ومواقع الدعوة المنتشرة في العالم المستضعفة أمام الحكومات الجاهلية.. تتراوح بين الوصول إلى مرحلة القوة السياسية التي تنطبق عليها هذه الشواهد، وبين مرحلة الاستضعاف الأولى، التي يعبر عنها بالمرحلة الفردية، مرورا ببعض المواقع التي ينطبق فيها بعض هذه الشواهد دون غيرها.

ووصول واقع الدعوة إلى مرحلة القوة السياسية -والتي تتوافر فيها جميع هذه الشواهد- يقتضي أن يطرح أصحاب هذا الواقع تصورهم السياسي.. ويصيروا ملزمين بالدخول في مرحلة الممارسة السياسية لدعوتهم..

أما الشواهد العامة للقوة السياسية فأهمها: أن أعداء الدعوة يفكرون بمنطق التعامل مع أصحابها لا منطق القضاء عليها، وهذا هو الشاهد الأول؛ لأن نشأة القوة السياسية تأتي من

خلال نظرة أعدائها لها وأسلوب التعامل معها.

وأن تكون قضية أصحاب القوة السياسية مؤيدة على مستوى الرأي العام اجتماعيًّا وفكريًّا، وأن يكون التعاطف مع أصحابها ثابتًا ومؤكدًا.

ويلاحظ في هذا الشاهد ألا يحسب فقط من خلال التأييد والتعاطف القائم، بل يشمل مدى قابلية غير المؤيدين لأن يكونوا مؤيدين.

وأن يمثل المعتنقون لقضية القوة السياسية كثرة عددية تبلغ مستوى القاعدة الجماهيرية، بحيث يصل مستوى تلك القاعدة إلى أنها تكاد تمثل موقف «الشعب» أو الأمة.

وأن تمثل هذه الكثرة نماذج متعددة من جميع المستويات الاجتماعية بحيث لا يمكن تقييدها بمستوى اجتماعي معين أو فئة اجتماعية، ويشمل هذا الشاهد وجود عناصر اجتماعية متميزة من كل طبقات المجتمع.

وأن تحقق الكثرة العددية بعناصرها المختلفة اختراقًا واضحًا لمجال ومستوى السلطة القائمة[1].

وأن تملك هذه القوة دائما رد الفعل المناسب إذا حاول أعداؤها التأثير في قوتها أو إضعافها؛ بحيث يتطلب رد الفعل المطلوب الإمكانيات المادية اللازمة والاستعداد للبذل والتضحية بصفة دائمة ويقظة[2].

وأن يؤكد حجم القوة السياسية في الواقع: المفاوضات والمعاهدات والاتفاقات السرية

---

(1) مثل مؤمن آل فرعون.

(2) ومن هنا كان الاستعداد للتضحية مساويًا في القرآن للتضحية ذاتها، وذلك كما في قوله تعالى: **{مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}**، فمن قضى نحبه هو الذي مارس التضحية، ومن ينتظر هم أصحاب الاستعداد لبذل هذه التضحية.

والعلنية بين القوة السياسية وأعدائها أصحاب السلطة.

فإذا بلغ موقع من مواقع الدعوة مرحلة القوة السياسية بشواهدها المذكورة.. فإن على أصحاب هذا الموقع بدء الممارسة السياسية؛ ابتداء من طرح التصور السياسي لهم، والمنطلق من واقعهم القائم ومرحلتهم العملية.

ومن هنا فإن الممارسة السياسية الجاهلية في مواجهتها للدعوة تقوم على منع الدعوة من تحقيق أيٍّ من هذه العناصر:

فترفض التعامل مع أصحاب الدعوة كطرف له وجوده وتأثيره..

وتسعى إلى منع الدعوة من الوصول بقضيتها إلى الرأي العام والتأثير فيه..

وفي هذا الصدد تحاول الجاهلية تشويه صورة أصحاب الدعوة إذا عجزت عن محاربة قضيتها..

وتسعى إلى منع وصول قضية الدعوة إلى المستويات الاجتماعية القريبة من أصحاب السلطة والقرار السياسي..

أو وصول أصحاب الدعوة أنفسهم إلى هذه المستويات بتضييق فرص هذا الوصول، سواء من الناحية المادية أو الأدبية..

كما تحيط الحكومات الجاهلية مواقع قوتها بسياج يحميها من أي اختراق، ابتداءً من دقة اختيار العناصر المرشحة للدخول في هذه المواقع، حتى لا يدخلها أي عنصر يُتوسم فيه الخير أو حتى مجرد الاستعداد أو القابلية.

كما تسعى إلى وصف أصحاب الدعوة بالقلة غير المؤثرة، والتأكيد دائما على سلامة «القاعدة» ورفض «الجماهير» ووقوف «الشعب» وراء «قياداته الحكيمة»..!!

وفي حال اضطرار الحكومات الجاهلية المعادية للدعوة إلى عقد أي اتفاق مع أصحابها فإن ذلك يكون في سرية تامة؛ حرصًا على «مهابة» الدولة.

وإذا كان طرح التصور السياسي للحركة الإسلامية عند وصولها إلى مرحلة القوة السياسية شرطًا أساسيًّا.. فإن هناك شروطًا أخرى تمثل في الحقيقة حماية لـ «مهمة الطرح» من عدة أخطاء أساسية:

الخطأ الأول: طرح التصور السياسي للحركة من خلال النظريات السياسية غير الإسلامية ادعاءً للصفة العلمية للنظرية المطروحة.

وهذا الخطأ ناشئ عن الهزيمة النفسية أمام المناهج الجاهلية التي يزعمون لها الصفة العلمية والأكاديمية.

وناشئ أيضًا عن نزع الصفة العلمية عن التصور الإسلامي وقضاياه، حتى إن الجاهلية ترفض وبصورة حاسمة إدخال هذه القضايا في مجال البحوث العلمية[1].

الخطأ الثاني: طرح التصور السياسي للحركة من خلال تجربة إسلامية تاريخية، مثل مرحلة الدولة الإسلامية التاريخية للأمة[2].

فيتكلم صاحب هذا الخطأ دائما في شكل الدولة الإسلامية في الماضي بكل مصطلحاتها ونمطها الشكلي، حتى أصبح التعامل مع هذه المصطلحات هو المعنى الأساسي للرجوع إلى الحكم الإسلامي دون المضمون الشرعي الصحيح للحكم.

وهذا الخطأ ناشئ عن الوقوف بالتصور الإسلامي عند مرحلة تاريخية دون الامتداد

---

(1) نقصد بذلك البحوث الرسمية مثل المناهج التعليمية ورسائل الدكتوراة.

(2) مثل الدولة الأموية–العباسية..

بهذا التصور إلى الواقع القائم.

الخطأ الثالث: طرح التصور السياسي للحركة من خلال البرنامج الإسلامي للإصلاح، والذي سيكون عندما تقوم الدولة الإسلامية.

إن تحديد التصور السياسي للحركة الإسلامية من خلال المنطلق السلفي.. وتحديد النظرية السياسية بالحق الشرعي والدين الخالص.. هو الرد المباشر على أصحاب الخطأ الأول.

وتحديد التصور السياسي العام للحركة الإسلامية -من خلال المرحلة التي تمر بها الدعوة فعلا في كل موقع من هذه المواقع- تحديدًا دقيقًا.. هو الرد على أصحاب الخطأ الثاني.

أما الخطأ الثالث.. فهو الذي يتطلب مناقشة مباشرة..

فالبرنامج خطة تفصيلية موقوتة، منبثقة عن تصور، ومحقَّقة في واقع، فكيف يتحدد برنامج بغير واقع؟

إن الجاهلية تريد أن تُحَمِّل التصور الإسلامي كل مشاكلها؛ لذا كان لابد من تعريف للمشكلة التي يجب أن نواجهها بالتصور السياسي الإسلامي.

فالمشكلة الإسلامية هي المشكلة التي تقابل الفكر الإسلامي في طريقه إلى الواقع الإسلامي.

وأي مشكلة خارج هذا الإطار وهذا المسار هي مشكلة جاهلية، لا يعالجها إلا التفجير الإسلامي للواقع وترتيبه من جديد حسب التصور الصحيح.

والاستفزاز الجاهلي للحركة الإسلامية بأنها لا تملك برنامجا سياسيًّا أمرٌ لا يجب

الاستجابة له.

نحن نملك التصور السياسي..

نحن نملك النظرية السياسية..

أما البرنامج السياسي.. فلابد أن نملك الواقع لكي نتمكن من طرحه، وكل من يريد برنامجنا السياسي عليه أولا أن يعطينا الواقع ويسلم قيادته، وليكن شعارنا في الرد على أصحاب هذا الاستفزاز: «أعطني واقعك.. أعطك برنامجي».

قيمة الممارسة السياسية «تمهيد»:

ولأجل أن نبدأ تقييم الممارسة السياسية يجب أن نقارن بين طبيعة هذه الممارسة مع أساليب الحركة الإسلامية.

وقد اتفقنا أن الأساليب الأساسية للحركة الإسلامية هي: التبليغ بالكلمة، واستخدام القوة، وإقامة السلطة.. أما الهجرة والعزلة فهي تصرف اضطراري يتحتم عند اليأس من الاستجابة، والفرق بينهما: أن الهجرة تصرف اضطراري جماعي، والعزلة تصرف اضطراري فردي... ولا تخرج أساليب العمل عن هذا الإطار العام.

أما العلاقة بين هذه الأساليب.. فيثبت فيها أن استفاضة البلاغ، وإقامة الحجة، والدعوة بالكلمة، هي الخط الأصلي للحركة، وأن خط القوة هو في الابتداء لإنشاء فرصة الدعوة بالكلمة.. عندما تمنع الجاهلية هذه الفرصة، وفي الانتهاء.. لإقامة السلطة وإنشاء الدولة.

أما موقع الممارسة السياسية من هذا الإطار فهو:

أن الممارسة السياسية تحقق ضبط العلاقة بين أساليب الحركة ذاتها من ناحية، وأساليب الحركة بالنسبة للواقع من ناحية أخرى.

فهي التي تفرض أسلوب التبليغ بالكلمة بعد تحليل الواقع وموضع الدعوة..

وهي التي تفرض أسلوب القوة عندما تُمنع الدعوة من فرصة الاتصال بالناس..

وهي التي تحلل آثار القوة في الواقع وتؤكد تلك الآثار لتحقيق غاية الحركة الأصلية، وهي إقامة دولة الدعوة والهداية.

إذًا فالممارسة السياسية ليست أسلوبًا قائمًا بذاته.. ولكنها الضابط لكل أساليب

الحركة.. بحيث يتحقق الهدف الأساسي للدعوة من خلال أي أسلوب.

فهناك مثلًا أسلوب الدعوة وأسلوب القوة..

وهناك السياسة الضابطة للعلاقة بين هذين الأسلوبين التي تضمن بها الدعوة الاتجاه بالأسلوب المناسب نحو تحقيق الهدف النهائي..

فقد تفرض الممارسة السياسية إيقاف أسلوب استخدام القوة وقد تحتمه، وفي كلا الافتراضين يكون تحقيق الهدف هو الأمر القائم المطلوب.

هذه هي قيمة الممارسة السياسية على مستوى أساليب الحركة.

أما قيمة الممارسة السياسية على مستوى الكيانات المتعددة في الواقع الواحد.. فإنها قيمة ضخمة، وهي إدخال الكيانات المتعددة للدعوة ضمن إطار الحركة الواحدة.. دون علاقة حركية مباشرة بين هذه الكيانات، باعتبار صعوبة تلك العلاقة منهجيًّا وحركيًّا، بل إن فرض التصور السياسي الصحيح للحركة هو الذي سيعطي لكل كيان بمنهجه الذي يتبناه مساحته الصحيحة في الواقع الحركي، ويصبح ضبط هذه المساحة وتلك العلاقة بالزيادة أو التحجيم مرتبطًا بهذا التصور وتلك الممارسة.

فقد ينشأ في «موقع» واحد للدعوة «دولة أو إقليم أو منطقة» كيانات متعددة ومختلفة، وعندئذ يجب منع الصراع بتحديد العلاقة السياسية بين هذه الكيانات، أو بمعنى آخر: طرح التصور السياسي للحركة الإسلامية الذي يرى فيه كل كيان منهجيته التي يتصورها وحركته التي يمارسها، بحيث ينشأ الموقف الواحد لجميع كيانات الحركة بصورة سياسية صحيحة.

وكذلك، فإن تحديد التصور السياسي للحركة الإسلامية سيسد ثغرات خطيرة في منهج الدعوة..

وأخطرها: ثغرة الخروج عن الأحكام الشرعية في ممارسة الدعوة بادِّعاء «مصلحة الدعوة»، حيث يسد التصور السياسي للدعوة بصبغته السلفية هذه الثغرة على أصحاب هذا الادعاء.

وأخطرها أيضًا: الارتداد عن خط المواجهة بالقوة بادعاء العمل السياسي وتحديد التصور السياسي بأبعاده المتعددة -بما فيه بُعد الممارسة بالقوة- يسد أيضًا هذه الثغرة على أصحاب هذا الادعاء.

وبذلك لا تصبح السياسة لافتة فوق أي موقف باطل أو مرحلة ضعف.. بل يصبح التصور السياسي للحركة الإسلامية ضابطًا لكل العبارات والمصطلحات التي تشكل خطرًا كبيرا على الدعوة إذا أصبحت عنوانًا للأهواء والتراجع والخلل.

فلا تصبح عبارات عائمة.. بل تتحدد وتستقر وتنضبط.



البـاب الأول

النـظريـة السياسيـة الإسلاميـة



البناء الفكري للنظرية السياسية:

إن الأسلوب الأفضل في طرح النظرية هو البدء بتعريف «السياسة الإسلامية»، وبتحليل عناصر التعريف يتم طرح النظرية..

والسياسة الإسلامية: هي حكمة «الجماعة» المنشئة «لدولة» الدعوة العالمية «الخلافة» المقيمة «لحضارة» الحق.

حكمة الجماعة «بناء النظرية السياسية»:

اتفقنا على أن الحكمة: هي حاسة الصواب الكامنة في كيان الداعية، محددة له في واقع الدعوة.. سبيل الوصول إلى الغاية.

وهذا هو المفهوم الفردي للحكمة.

فإذا تحدد المفهوم الجماعي للحكمة.. كان هذا المفهوم هو السياسة.. فإذا قلنا: إن الحكمة هي **سياسة الفرد** كانت السياسة هي **حكمة الجماعة**، وعلى هذا.. فإن النظرية السياسية الإسلامية تتحدد أساسًا بعناصر الحكمة الأربعة: «الحق، والإنسان، والواقع، والغاية».

وارتباط هذه العناصر بالمستوى الجماعي للدعوة هو الذي يحدد إطار النظرية السياسية؛ بحيث يكون غياب أي عنصر من عناصر الحكمة الأربعة أو الخلل في العلاقة الصحيحة بين هذه الجوانب سببًا في عدم تحديد هذا الإطار.



الفصل الأول

الجانب الأول من جوانب النظرية

«الحق»

(1) شواهد الحق في الممارسة السياسية:

ومن بناء النظرية السياسية تحققت شواهد الحق في الممارسة السياسية..

وما نعنيه بشواهد الحق: هي تلك الحقائق المسَلَّمَة التي ندخل بها واقع الممارسة، وهي غير مستنبطة من الخبرة السياسية، كما لا تتجاوزها الممارسة في كل أحوالها، وهذه الشواهد هي:

(أ) المضمون:

سبق القول بأن السياسة هي المفهوم الجماعي للحكمة.. وعلى أساس هذه الحقيقة يكون بناء النظرية السياسية هو الارتفاع بجوانب الحكمة إلى المستوى الجماعي، وذلك بمقتضى الحق.

ويصور الإمام ابن القيم جانب الحق في بناء النظرية، فيقول: «**السياسة ما كان فعلًا معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يصنعه الرسول** صلى الله عليه وسلم، **ولا نزل به وحي**، ومن قال: لا سياسية إلا بما نطق به الشرع فقد غلَّط الصحابة؛ فقد جرى من الخلفاء الراشدين ما لا يجحده عا لم بالسنن»...

ويقول ابن القيم: «وهذا موضع مزلة أقدام ومضلة أفهام، وهو مقام ضنك، ومعترك صعب، فرَّط فيه طائفة فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق، وجرَّءوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد، محتاجة إلى غيرها، وسدُّوا على

أنفسهم طرقًا صحيحة من طرق معرفة الحق والتنفيذ له، وعطلوها مع علمهم وعلم غيرهم قطعًا أنها حق مطابق للواقع ظنًّا منهم منافاتها لقواعد الشرع.

ولعمر الله، إنها لم تنافِ ما جاء به الرسول، وإن نافت ما فهموه من شريعته باجتهادهم، والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة الشريعة وتقصير في معرفة الواقع وتنزيل أحدهما على الآخر، فلما رأى أولياء الأمور ذلك، وأن الناس لا يستقيم لهم أمرهم إلا بأمر وراء ما فهمه هؤلاء من الشريعة.. أحدثوا من أوضاع سياستهم شرًّا طويلًا وفسادًا عريضًا، فتفاقم الأمر وتعذر استدراكه، وعز على العالِمين بحقائق الشرع تخليص النفوس من ذلك واستنقاذها من تلك المهالك...

وأفرطت طائفة أخرى قابلت هذه الطائفة فسوغت من ذلك ما ينافي حكم الله ورسوله..

وكلا الطائفتين أُتيَت من قِبَل تقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه؛ فإن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط.. وهو العدل الذي قامت به الأرض والسموات، فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان.. فَثَمَّ شرع الله ودينه.

والله سبحانه أعلم وأحكم وأعدل من أن يخص طرق العدل وأماراته وأعلامه بشيء.. ثم ينفي ما هو أظهرَ منها وأقوى دلالةً وأَبْيَنَ أمارة، فلا يجعله منها ولا يحكم عند وجودها وقيامها بموجبها، بل قد بين **سبحانه وتعالى** بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل بين عباده وقيام الناس بالقسط، فأي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين ليست مخالفة له..

فلا يقال: إن السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع، بل موافقة لما جاء به، بل وجزء من أجزائه، ونحن نسميها «سياسة» تبعًا لمصطلحاتكم وإنما هي عدل الله ورسوله

ظهر بهذه الأمارات والعلامات»[1].

(ب) العقيدة:

وهي التوحيد بمرتكزاته الثلاث: «**الحكم والنسك والولاء**» وهي المرجعية العليا للممارسة السياسية والحركية ونظام الدولة.

لقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم موقف يُعَلِّمُ فيه الأمة قيمة العقيدة والتوحيد في واقع الصراع والمواجهة، وهو ما كان بعد غزوة أحد.

فبعد الغزوة أراد أبو سفيان أن يحقق نتيجة سياسية للحرب، فوقف خطيبًا بين الجموع فسأل: أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟

وكان موقف الرسول صلى الله عليه وسلم ألاَّ يَرُدَّ عليه أحد، حتى لا يكون في الرد عليه استفزاز يجعله يعاود الهجوم على المسلمين وهم غير مستعدين بعد، حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدرك أن أبا سفيان كان لا يريد إلا هؤلاء الثلاثة، وأن عدم الرد سيجعله يشعر أنه قد حقق غايته.. ولكن أبا سفيان قال بعد ذلك: اعلُ هبل!

فتغيرت حسابات الموقف.. أصبحت العقيدة هي الأساس، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**» قَالَ: إِنَّ لَنَا العُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «**أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ؟**» قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «**قُولُوا اللهُ مَوْلاَنَا وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ**»[2].

لقد كان حسابات الموقف ألا يرد أحد من المسلمين، ولكن عندما يكون الأمر

---

(1) السياسة الشرعية لابن القيم، بتصرف (14 – 16).

(2) أخرجه البخاري (79/4، 100/5، 126، 48/6).

متعلقا بالعقيدة لا يكون الصمت.

ففي الوقت الذي كان المسلمون فيه في أشد الحاجة إلى من يشاركهم قتال المشركين يرفض رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلًا مشركًا يريد القتال معه ويقول له: «**ارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**»[1]..

وبالتفكير المادي في الموقف كان يمكن قبول مشاركة هذا الرجل.

ويأتي رجل آخر إلى الرسول ويقول: أقاتل أو أسلم؟ فيمنعه الرسول من القتال معه ويقول له: «**بل أسلم، ثم قاتل**» فبايع وقاتل فقُتل، فقال عليه الصلاة والسلام: «**عمل قليلًا وأجر كثيرًا**»[2]..

وبالتفكير المادي في الموقف كان يمكن تأجيل البيعة؛ لأن القتال دائر.

وفي وقت القتال تقام صلاة الحرب لتصلي جماعة من المسلمين وتحميها الأخرى.. وبالتفكير المادي كان يمكن تأجيل الصلاة حتى لا يضيع الوقت وتتأثر إمكانات القتال.

وفي القتال يرفع السيف عن كل من قال: لا إله إلا الله، وهذا سؤال يسأله صحابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، عن المقداد بن الأسود أنه أخبر أنه قال: «يا رسول الله، أرأيت إن لقيت رجلًا من الكفار فقاتلني فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها ثم لاذَ مِنِّي بشجرة فقال: أسلمت لله، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟»

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تقتله!**» قال: فقلت: يا رسول الله..! إنه قد قطع يدي، ثم قال ذلك بعد أن قطعها، أفأقتله؟ قال رسول الله: «**لا تقتله، فإن**

(1) أخرجه مسلم (1449/3، 1817)، والترمذي (127/4، 1558).

(2) البخاري في الجهاد (6/24) من حديث البراء بن عازب.

قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال»[1].

وفي إطار العقيدة تكون العلاقة بين الحركة الإسلامية وعقيدة القدر والأسباب، فيدخل الدعاءُ كأقوى أسلحة القتال، ففي غزوة الأحزاب ينظِّم الرسولُ صلى الله عليه وسلم كلَّ أمورِه ويَعُدُّ كلَّ عدته ثم يقول:

«**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره، ادعُ الله يا براء أن يهزمهم وينصرنا عليهم**»[2].

ثم يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم أنه إذا كان البشر يحققون أهدافهم بقوتهم وإمكانياتهم المادية فلسنا مثلهم، فيقول: «**إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم**»[3].

لأنها دعوة ربانية.. تقوم بالقدر ولها أسباب وسنن[4].

ومن هنا فإن شيطنة الطرف الجاهلي تعتبر القضاء على عقيدة أهل السنة والجماعة أوَّلَ أهدافها.. لأن عقيدة التوحيد هي القادرة على تربية المسلم وإعداده للمواجهة الصحيحة، وهي القادرة على مواجهة الجاهلية بكل اتجاهاتها، وهي التي يكتب لأهلها الشهادة بإذن الله إذا كان القتل في سبيل الله..

(ج) القوة:

وهي التي تفرض الحق كمضمون للنظرية والممارسة السياسية، وهي مقتضى الاعتقاد

---

(1) أخرجه مسلم في الإيمان رقم (95) عن المقداد بن الأسود.

(2) أخرجه البخاري، كتاب الصلح، باب الصلح في الدية (2703).

(3) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد، باب مَنِ اسْتَعَانَ بِالضُّعَفَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي الحَرْبِ، ح2896.

(4) يراجع كتاب «قدر الدعوة» للكاتب.

بالمواجهة الحتمية مع الجاهلية، فليست المواجهة فكرة مستنبطة من ممارسة الواقع.. ولكنها حقيقة ثابتة قبل الممارسة، عَلِمَهَا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يبدأ دعوته.

وهذا ما أخبره به ورقةُ بن نوفل النبيَّ صلى الله عليه وسلم بعد نزول الوحي عليه وقبل أن يعلن دعوته: «يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟**» قَالَ: «نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ **إِلاَّ عُودِيَ**، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا»[1].

(د) الثبات:

وأهم شواهد انطلاق الممارسة السياسية من الحق هو ثبات الخط السياسي لهذه الممارسة؛ لأن الحق يرفع الممارسة السياسية فوق ظروف الواقع وزعاماته، حتى يبلغ الأمر أن يصبح الخط السياسي هو الذي ينخرط به الواقع وتنتظم به الزعامات.

إن أكبر دلائل البعد عن الحق هو التفاف الخط السياسي حول منحنيات الواقع والالتواء فوق عقباته، وكذلك التلون بلون كل زعامة جديدة والاصطباغ بصبغتها.

وقد قدمت الفترة الإسلامية الأولى نموذجًا لهذا الثبات:

ابتداءً من أخطر مستويات المواقف السياسية، مثل إصرار أبي بكر الصديق على جعل أسامة بن زيد على رأس الجيش الذي جهزه الرسول صلى الله عليه وسلم واختار أسامة لقيادته.. وانتهاءً بأبسط مستوياتها، مثل المرأة التي جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1) أخرجه البخاري في بدء الوحي (3212، وغيره)، ومسلم في الإيمان (160).

وقالت: أعطني[1].

(2) المفاصلة الفكرية بين السياسة الإسلامية والجاهلية:

وكنتيجة للتقابل بين النظرية الإسلامية والجاهلية أصبح لكل نظرية مصطلحاتها، وأصبح التقابل بين مصطلحات كل نظرية يمثل أخطر معالم الصراع بين الإسلام والجاهلية، كما أصبح لهذا الصراع عناصره الثابتة:

- تقييم كل طرف بمصطلحات الطرف الآخر.

- فرض كل طرف لمصطلحاته كدلالة على قوته وغلبته في الصراع.

- محاولة الخلط بين المصطلحات الإسلامية والجاهلية لتغييب التصور الإسلامي السياسي الصحيح.

(أ) معركة المصطلحات السياسية:

وأساس المعركة هو تحديد النظرية السياسية بمناهج ومصطلحات غربية. والمثال التاريخي على ذلك تحليل كل ظواهر الدعوة الإسلامية بالمناهج الغربية، وهذا التحليل ليس مجرد محاولة للمعرفة ولكنه التفاف حول الدعوة ووضعها في ميزانهم الفكري والمنهجي، وإعطاء الانطباع بأنها ظاهرة خاضعة للدراسة ومحكومة الاحتمالات، وهي

---

(1) «.. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لئن جاءني مال لأعطينك هكذا (بيديه) وهكذا وهكذا**، فقالت: يا رسول الله.. وإذا لم أجدك؟ وكأنها تعني: إذا مت. قال: **ستجدين أبا بكر**. قالت: وإذا لم أجد أبا بكر؟ قال: **ستجدين عمر**. فلما كانت خلافة أبي بكر جاءت المرأة وقالت لأبي بكر ما دار بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأمرها أن تأخذ بيدها مرة واحدة كما وصف لها رسول الله، ثم ضاعف لها العدد ثلاثًا». أخرجه البخاري في المناقب، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (**لو كنت متخذًا خليلًا**) (3659/21/7 – فتح).

فكرة شيطانية قديمة حاولتها أقوام جاهلية سابقة منذ هود صلى الله عليه وسلم؛ حيث حاولوا تفسير الرسالة والدعوة بأنها مجرد إصابة من الآلهة ولا تخرج عن حدود ذلك وليس هناك تفسير غيره: **{إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آَلِهَتِنَا بِسُوءٍ..}**.

ولكن الموقف الصحيح هو فرض واقع الرسالة عليهم بأن يدخلهم معه في شهادته عليهم بالبراءة من الشرك.

فبدلا من أن تدخل الرسالة في ميزانهم.. أدخلهم هم في ميزانه: **{قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}** [هود: 54].

إن تفسير الوحي والرسالة هو أن بعض آلهة الجاهلية أصابت النبي بسوء!!

وهذه المعركة موضوعها الرئيسي محاولة الجاهلية وضع الطرف الإسلامي في ميزانها التصوري، مثلما كانت الشيوعية تفسر الحركة الإسلامية تفسيرا ماديًّا، وأن الصراع بين الإسلام والجاهلية صراع طبقي.

ومتابعة بداية ظهور المصطلحات المعادية يحتم الحساسية الشديدة في قبول أي مصطلح لم يرِد فيه نص شرعي.

مثل قبول تسمية الشورى ديمقراطية؛ هو الذي انتقل إلى مصطلح الإسلام الديمقراطي، والذي يعني: أن هذا الدين بكليته ديمقراطي، مما أنشأ بدوره مصطلح الاعتدال الذي تحول إلى «الإسلام المعتدل»، والذي أظهر بدوره مصطلح التطرف والإرهاب والإسلام السياسي.

والخط الأساسي لمعركة المصطلحات هو تفريغ التصور الإسلامي من مضمونه العقدي الصحيح.

فالمصطلح الشرعي الصحيح «الحاكمية» يتحول إلى مصطلح «تقنين الشريعة»، الذي تحول بدوره إلى: «تنقية القوانين»..!

والمقصود من «الإنسانية» القضاء على حقيقة الولاء للدين.

والمقصود من «الثقافة» تحول الدين إلى ظاهرة فكرية.

والمقصود من «الآخر» القضاء على المفاصلة.

إن محاولة إبعاد التصور «الإسلامي» عن واقع الناس هي مهمة جاهلية أساسية تظهر في كل المواقف والأفكار السياسية الجاهلية..

حتى عندما تضطر الجاهلية إلى التسليم بأي مرحلة قد تصل إليها الحركة الإسلامية فإن هذه المحاولة لا تختفي.

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندما هاجر إلى يثرب سماها المدينة؛ لكن المنافقين في إطار مواجهة النتائج التي وصلت إليها الدعوة يحاولون الرجوع بها إلى مرحلة ما قبل الهجرة؛ من خلال التسمية القديمة، قال تعالى: **{وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا}** [الأحزاب: 13].

وهناك مصطلحات مشتركة، قد تُقرر من جانب النظرية الإسلامية من حيث اللفظ؛ فيصير الأمر الخطير أن تفهم بمدلولها في السياسة الجاهلية، مما يصير به الأمر أشد خطرًا؛ أن تفرض هذه المصطلحات بمدلولها الجاهلي فتنتفي دلالتها الصحيحة في النظرية الإسلامية، ولهذه المصطلحات أمثلة مشهورة أهمها مصطلح **الثورة** و**الحرية**.

فالثورة في النظرية الجاهلية.. تعني بصورة مطلقة «رفض الواقع.. الغضب.. العنف».

وهي أبرز عناصر أي ثورة جاهلية، ولعل أوضح أمثلتها الثورة الفرنسية التي حدثت

خلالها أهوال تاريخية تفوق مآسيها مأساوية الأوضاع التي جاءت الثورة للقضاء عليها.

فإذا انتقلنا بمصطلح «الثورة» إلى النظرية السياسية الإسلامية فإننا نرى وجودًا لعناصر مصطلح الثورة ولكنه وجود صحيح.

حيث نرى الرفض موضوعيًّا.. والغضب واعيًا.. والعنف منضبطًا..

فإذا ما أصبح مصطلح «الثورة» بهذه العناصر الصحيحة كان من الجائز اعتباره مصطلحًا من مصطلحات النظرية السياسية الإسلامية.

حيث سيكون الرفض الموضوعي للواقع في التغيير، والغضب الواعي في التعامل، والعنف المنضبط في المواجهة.

فالثورة الإسلامية ليست مجرد رفض للواقع، ولكن للباطل في هذا الواقع، بحيث إذا كان في هذا الواقع حق.. أخذت به الثورة الإسلامية، وأقره الإسلام، وأصبح جزءًا من نظامه..

وأما الغضب فهو قمة الوعي؛ لأنه غضب لله.. وليس غضبًا شخصيًّا يفقد فيه الغاضب وعيه ويصبح إغلاقًا..

وأما العنف فهو الأمر المنضبط بسياسة القوة وأحكامها الشرعية..

وبذلك يتحقق مصطلح الثورة الإسلامية بمنطلق خاص للتغيير، يتميز بالحسم الواعي المتأني.

والتقابل المطلق بين النظرية السياسية الإسلامية والجاهلية يقتضي الحذر الشديد من المحاولة الخاطئة للخلط بين مصطلحات النظرية السياسية الإسلامية وغيرها..

ابتداءً بالمصطلحات الضخمة كالثورة.. وانتهاءً بأدق التعبيرات البسيطة مثل رفض تعبير «الإمبراطورية الإسلامية» بدلًا من «الخلافة»..

مرورًا بأمثلة الخلط بين المفاهيم الإسلامية وغيرها، مثل الخلط بين الشورى والديمقراطية.. بما بينهما من فوارق جوهرية محددة، حتى في العناصر المشتركة بينهما؛ فالشورى قائمة على إجماع الرأي، وكذلك الديمقراطية، ولكن لصاحب الرأي في الشورى اعتبار كبير في هذا الإجماع.. وليس إجماع الهمج الرعاع أتباع كل ناعق؛ كما في الديمقراطية[1].

وانطلاق الممارسة السياسية من التصور السياسي بنظريته وأبعاده ومصطلحاته لا يعني الاتفاق المطلق بين مفكري السياسة الإسلامية ومحلليها؛ لأن عنصر التفكير العقلي ومهمة إدراك الواقع والتصور المرحلي للهدف داخلة ضمن هذه الممارسة، وهي الأمور التي يكون فيها الاختلاف شيئًا طبيعيًّا؛ مما يجعل الممارسة السياسية سببًا في حدوث أكبر اتساع لنطاق الاختلاف بين مفكري الحركة الإسلامية.

ومواجهة هذا الخطر تتمثل بصورة أساسية في تحديد:

(ب) ثوابت الفكر السياسي:

التأصيل الشرعي للفكر السياسي:

وأول ثوابت هذا التأصيل هو إدراكنا للعلاقة بين الفقه والسياسة الذي تتحدد به طبيعة الممارسة.. وهي الحكمة ذاتها.

ذلك لأن الحكمة كما اتفقنا هي أساس البناء الفكري للنظرية السياسية، والحكمة

(1) ستعقد مقارنة بين الشورى والديمقراطية من خلال الكتاب إن شاء الله.

هي الفقه.. وبذلك تصبح كل أصول الفقه أساسًا في الممارسة السياسية.

والحقيقة.. أن الفقه الإسلامي هو العلم الشرعي المثبت لمفهوم السياسة الإسلامية؛ ذلك أن الفقه قائم على مراعاة الواقع في إجراء الأحكام، وقائم على اعتبار المآل، وقائم على دفع الضرر الأكبر بالضرر الأصغر، وقائم على الترجيح بين درء المفسدة وجلب المصلحة.

ومن هنا كانت الملاحظة التراثية المهمة، وهي أن كل من كتب في السياسة الإسلامية كانوا من الفقهاء.

الإطار السياسي للفكر الحركي:

والذي يُحدَّد بالإجابة على هذا السؤال: ما هي الكتابات التي تكوِّن في مجموعها إطارًا فكريًّا للحركة الإسلامية؟

إن هذا التحديد شرط جوهري في تنظيم العلاقة الصحيحة بين الفكر والحركة.. وفقد هذا التحديد يجعل الدعوة معرضة لخطر التحول إلى مجرد ظاهرة فكرية ضخمة تتضاءل بجانبها واقعية الحركة حتى تضيع.

وتحديد هذه الكتابات بأصحابها قد يحقق فائدة السهولة في الرجوع إليها، ولكن الأفضل هو إثبات القاعدة التي يتحدد بها هذه الكتابات ليصبح هذا التحديد أساسًا للفكر بصورة مطلقة.

والقاعدة الأساسية:

- أن يكون صاحب الكتاب سلفي الفهم.

- أن يكون صاحب الكتاب هو نفسه من أصحاب التجارب الواقعية والعملية في

مواجهة الجاهلية..

- وأن تكون كتاباته مرتبطة بواقعه وتجاربه ومواجهته بصورة مباشرة.

مع مراعاة أن ينطبق على جميع هذه الكتابات وأصحابها.. قاعدة: أن كل إنسان يخطئ ويصيب ويؤخذ من كلامه ويرد عليه. وأن تتجرد في نفس الوقت عملية الأخذ والرد من عوامل الغيرة والحسد، والأحاسيس الحقيرة التي قد تسعى بصاحبها إلى التفكير في هدم شوامخ الفكر ورؤوس الهدى والرشاد[1].

(ج) التنظيم السياسي للرأي في الجماعة:

وبعد تحديد ثوابت الفكر السياسية المحققة للاتفاق على الحق ننتقل إلى مقتضيات الاتفاق على الحق في تلك الممارسة.

وأهم مقتضيات انطلاق الممارسة السياسية من الحق تحديد قواعد نظام الرأي، وأول تلك القواعد تحديد مصطلح الجماعة الذي يتحدد به الحكم على أي موقف أو رأي يتعلق بحركة الجماعة.

فهناك مصطلحات أساسية متعلقة بمفهوم الجماعة:

(1) الجماعة بمعنى الحق. (2) الجماعة بمعنى الأمير.

(3) الجماعة بمعنى العامة. (4) الجماعة بمعنى العلماء.

---

(1) مثل كتابات: ابن تيمية وابن القيم وأبي الأعلى المودودي وسيد قطب؛ حيث كتبت من خلال الخبرة العملية المستفادة من مواجهة أصحابها مع الجاهلية بقضية التوحيد.. وبذلك ثبت تحديد إطار الفكر الحركي من خلال أصحاب الفكر، وسيثبت تحديد الإطار من خلال القضايا الفكرية ذاتها.

ونضيف إلى هذه المصطلحات بخصوص المعارضة السياسية مصطلحين أولين:

مصطلح الفِرقة: وهو الخروج عن الجماعة من خلال قضايا اعتقادية «خروج عقدي..».

ومصطلح الطائفة: وهو الخروج عن الجماعة من خلال قضايا عملية «خروج عملي..».

ولكل منهما أسلوب في التعامل:

فأسلوب التعامل مع الفِرقة:

بحسب قضية خروجهم عن الجماعة سواء كانت كفرًا أو بدعة.

وأسلوب التعامل مع الطائفة:

بحسب قضية خروجهم عن الإمام أو الأمير.

وتعدد معاني الجماعة قائم على أساس الحفاظ عليها في كل الظروف..

أما المعنى الأساسي للجماعة فهو الجماعة بمعنى الحق، والوارد فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث: «**التارك لدينه المفارق للجماعة**»[1].

ولكن عند تعدد الحق في الأفهام في إطار قضايا التوحيد تكون المفاصلة وتكون الفرقة، وإذا تعدد الحق في غير هذا الإطار كان رأي الأمير هو المعيار الذي تتبناه الجماعة في تلك القضية؛ وتتحقق بذلك الجماعة: بمعنى الأمير.. والوارد فيه حديثه صلى الله عليه

(1) أخرجه البخاري في كتاب الديات (209/12/ح 6878 – فتح)، ومسلم في القسامة باب ما يباح به دم المسلم (164/11/6، 165 – نووي)، وأبو داود في الحدود باب الحكم فيمن ارتد (124/4/ح 4352)، انظر تخريج الحديث في كتاب فتح ذي الجلال لتخريج أحاديث الظلال (ح 632).

وسلم: «**من أطاع الأمير فقد أطاعني**»[1].

وعند غيبة الإمارة يكون إجماع العامة المسلمة هو معيار الحق وهو الوارد فيه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**عليكم بالسواد الأعظم**...»[2].

وعند عجز السواد الأعظم عن الإجماع يكون للعلماء حق الطاعة، ويتحقق فيهم معنى الجماعة.

ولكن السواد الأعظم الذي يعتبر معيارًا للحق له صفات محددة وأهمها: توطين النفس على هذا الحق.

ولذلك لا يكون هناك تقليد في التعامل مع العامة المسلمة كما قال صلى الله عليه وسلم: «**لا تكن إِمَّعَة.. إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم: إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تسيئوا**»[3].

ومن هنا أيضًا فإن لرأي العامة في منهج الدعوة مسئولية خطيرة، بعيدا عن نمط الهياج والصور المزيفة..

وعندما يكون المطلوب معرفة إجماع العامة أو الرأي العام لهم فإن المهمة تبدأ بإثبات رأي الفرد.

---

(1) أخرجه البخاري في الأحكام باب قوله تعالى: **{أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ..}** الآية (119/13/ح 7137 فتح)، ومسلم في الإمارة باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية.

(2) رواه ابن ماجه (3950)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (153)، وابن أبي عاصم في السنة (ح 80، 84). عن أنس مرفوعًا بلفظ: «فعليكم بالسواد الأعظم».

(3) أخرجه الترمذي في البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو (364/4/ح 2005) من حديث حذيفة به. وقال الترمذي: حسن غريب. وذكره البغوي تعليقًا في شرح السنة (32/13)، والحديث في المشكاة (ح 5129)، والترغيب للمنذري (341/3).

يقول ابن إسحاق: إن وفد هوازن بالجعرانة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله، إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنُن علينا، منَّ الله عليك.

قال: وقام رجل من هوازن –أحد بني سعد بن بكر يقال له زهير يكنى أبا صرد– فقال: يا رسول الله! إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أنا ملحنا للحارث بن أبي شمر، أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟**» فقالوا: يا رسول الله، خيَّرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل تُردُّ إلينا نساؤنا فهو أحب إلينا، فقال لهم: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا وقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم**».

فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم**» فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

وفي رواية: «فقال الناس: قد طبنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**إنا لنعرف من رضي منكم ممن لم يرضَ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم**»[2].

---

(1) رواه أحمد في مسنده، ورواه البيهقي في الدلائل (197/5)، وذكره ابن هشام في السيرة (135/4).

(2) لاحظ اهتمام رسول الله صلى الله عليه وسلم بوصول رأي الناس بطريقة صحيحة.

فَرَدُّوا عليهم نساءهم وأبناءهم، لم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن. فإنه أبى أن يرد عجوزًا صارت في يديه منهم، ثم ردَّها بعد ذلك، وكسا رسول الله صلى الله عليه وسلم السبي نبطية قبطية».

ولعلنا نلاحظ خطة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التعامل مع الموقف، وأنه قائم علي اعتبار كبير لرأي عامة المسلمين بدليل طلبه لهوازن: «**أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا وقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم**..».. علمًا بأنه كان يستطيع اتخاذ القرار بإعادة السبي دون الرجوع إلى المسلمين.

ولعلنا نلاحظ ضرورة الاطمئنان إلى صحة إعلان المسلمين لرأيهم وصحة وصول هذا الرأي إليه صلى الله عليه وسلم، فتقول الرواية: فقال الناس: قد طبنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**إنا لنعرف من رضي منكم ممن لم يرضَ، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم**» فَرَدُّوا عليهم نساءهم وأبناءهم.

وعندما يكون الحديث في أمر العامة فلا بد أن يكون للمتحدث صفات ضرورية ولازمة، أهمها نفي السفه الذي يثبت الحكمة، كما في الحديث: «**سيأتي على الناس سنوات خدّاعات يُصدّقُ فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة**» قيل: وما الرويبضة؟ قال: «**الرجل التافه يتكلم في أمر العامة**»[1].

وكما تحددت صفة المتحدث في أمر العامة يتحدد مصطلح العامة نفسه.

(1) صحيح: أخرجه أحمد وابن ماجه ومالك عن أبي هريرة.

ومصطلح العامة المسلمة يتحدد بانتفاء صفة الهمج الرعاع، وحديث علي بن أبي طالب يبين الصفة الأساسية للهمج الرعاع: «**الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، والباقي رعاع أتباع كل ناعق**»[1].

وبذلك يتبين منهج الارتفاع فوق مستوى هؤلاء الهمج الرعاع.

إن الهمج الرعاع قوم لا يفقهون ولا يعلمون.. لا يدركون أصول التفكير فهم لا يفقهون.. ولا يعلمون صواب الواقع، وليسوا على سبيل النجاة.

وصواب التفكير وإدراك الواقع هو النجاة من صفة الهمج الرعاع.

وفي النهاية يجب أن يفهم أن حرية الرأي في إطار الجماعة مكفولة في حدود الكتاب والسنة وأنه لا حرية خارج هذه الحدود.

وأن نظام الرأي في الإسلام يقبل المعارضة من أي فرد فيها.. ولكنه لا يقبل أن تكون المعارضة موقفًا ثابتًا لأطراف ثابتة، وهو ما يطلق عليه الآن «**المعارضة السياسية**»؛ لأن لهذا النظام خطورة؛ أن تكون المعارضة وظيفة سياسية مرتبطة بموقف المعارضة قبل موضوع المعارضة.

كما أن ثبات طرف المعارضة يجعل هذا الطرف يتجه دائما نحو المعارضة التي أصبحت مرتبطة به كطرف ثابت لها، فتصبح المعارضة قضية شخصية لا قضية عامة، فالمعارضة في التصور السياسي الإسلامي ليست موقفًا ثابتًا من طرف ثابت؛ بل تعبر عن رؤية مغايرة لرؤية الحاكم، سواءً كانت لفرد أو جماعة.. أو حتى للأمة كلها.

بعد تحديد النظرية السياسية في إطارها الواقعي، وتحديد بناء النظرية السياسية بمقتضى

---

(1) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ص 29– طبعة دار الفتح.

الحق، نأتي إلى المحصلة بين الواقع والحق..

(د) العلاقة الجدلية بين الفكر والحركة:

نريد أن نوضح معنى «العلاقة الجدلية[1] بين الفكر والحركة».

ففي البدء تكون القضية في إطار فكري محدود ثم تكون الحركة في هذا الإطار المحدود، فتضيف الحركة خبرة جديدة تضاف إلى هذا الإطار، فيتسع نطاقه فنتحرك به حركة أوسع، فتضيف إلينا الحركة الأوسع خبرة أكبر تضاف إلى إطار الفكر ليتسع، فنمارس به حركة أوسع، وهكذا.. هذا هو تفسير جدلية العلاقة بين الفكر والحركة.

وعندما يزداد حجم الفكر دون أن نمارس به حركة مناسبة فإن هذا يمثل خللًا سياسيًّا، إذ قد تتحول الدعوة بسبب هذا الخلل إذا تضخم إلى ظاهرة فكرية بحتة.

ومن هنا يلزم كضرورة سياسية تحديد إطار الفكر الذي ينشأ من خلال العلاقة الجدلية الصحيحة مع الحركة وهو ما يسمى فكر الحركة.

والإطار الأساسي لهذا الفكر هو قضايا حد الإسلام «قضايا الحكم والنسك والولاء».

ويضاف إليها كل قضايا الفكر المستفادة من خبرة التحرك بقضايا حد الإسلام في الواقع.

وقد سبق تقرير أن الفكر في تطوره مع الحركة مستفاد من خبرة الحركة وأن تحديده يكون باعتبار أصحابه؛ فيصبح أي فكر ناشئ عن خبرة عملية مستفادة من مواجهة

---

(1) الجدلية هي المقابل العربي لكلمة الديالكتيكية الإنجليزية.

صاحبه مع الجاهلية.. داخلًا في إطار الفكر الحركي.

وكما تحدد الفكر تتحدد الحركة..

والإطار الأساسي لهذه الحركة هو: التبليغ بالكلمة، واستخدام القوة، وقيام السلطة؛ وبذلك يتحدد إطار الحركة الصحيحة التي تنشأ من خلالها العلاقة الجدلية الصحيحة مع الفكر.

ومعنى هذا التحديد: أن أي كيان لا يتبنى أسلوب التبليغ وإقامة الحجة ورفع الالتباس وتصحيح المفاهيم وأسلوب المواجهة القوية الهادفة إلى إقامة السلطة الإسلامية.. أي كيان لا يتبنى هذه الأساليب يكون خارجًا عن إطار التحديد السياسي للحركة..

وليكن معلومًا أن الخلل في العلاقة بين الفكر والحركة خطر عظيم يسبب الفتنة في مرحلة الحركة والجماعة، ويسبب الانهيار[1] في مرحلة الدولة.

وفي هذا الصدد يجب التنبيه على خطر الاستغراق في التقارير والدراسات والبحوث والندوات والحوارات التي يناقش فيها الغرب موضوع الحركة الإسلامية حتى لا يكون ذلك على حساب المواجهة العملية.

كما يجب التنبيه على خطر الانفصال عن الواقع بزعم ضرورة العلم قبل العمل، وليس هذا معناه التقليل من قيمة العلم؛ بل معناه إدراك حقيقة العلم في واقع الدعوة الذي يكون بالعمل والمواجهة «**من عمل بما علم.. رزقه الله علم ما لم يعلم**»[2].

وأبرز قضايا العلاقة الجدلية بين الفكر والحركة هي: **قضية المرحلة المكية والمدنية،**

---

(1) والمثال التاريخي على ذلك: انهيار الدولة العباسية، حيث كان النضوج الفكري والانهيار السياسي في نفس الوقت.

(2) سنن الدارمي، المقدمة، باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله، ح382.

وتفسير تلك العلاقة من أساسها.

وهذه القضية لها عناصر يجب إدراكها ابتدًاء:

– أن مرحلة الدعوة بعد تمام نزول القرآن تجاوزت المرحلة المكية والمدنية شرعًا.

– أن اعتبار الدعوة في مرحلة مكية أو مدنية بعد ذلك يكون باعتبار الحركة وظروفها.

فإذا كانت ظروف الدعوة تماثل المرحلة المكية اعتبرناها مرحلة مكية، وإذا كانت ظروف الدعوة تماثل المرحلة المدنية اعتبرناها مرحلة مدنية، ومارسنا تطبيق الأحكام المنهجية لكل مرحلة.

وعندئذ نكون ملزمين بدراسة علة الاختلاف المنهجي بين المرحلتين من حيث الواقع.

وبمجرد البدء في الدراسة نجد أن الحد الفاصل البين في هذا الاختلاف هو حد القدرة والاستطاعة.

فإذا كان الأصل في الدعوة هو الإعلان فإن عدم القدرة عليه يجعلنا نمارس حكما منهجيًّا مكيًّا وهو السرية.

وأهم مثال عن الإعلان وإظهار الدين باعتبار القدرة: هو جواز إقامة الجمعة والجماعات في غير ديار الإسلام.

فبالرغم من أن إقامة الجمعة التي تحدد لإقامتها شروط فقهية مباشرة: أن تكون الدار التي تقام فيها الجمع هي دار الإسلام؛ فإنها تقام في غيرها من باب الجواز إذا كان هناك قدرة على إقامتها.

ولا يحتج لعدم إقامتها بانتفاء الوجوب لانتفاء الشرط الفقهي؛ لأن إقامتها باعتبار القدرة يكون من باب الجواز.. مثل إقامة الجمعة للمرأة والغلام والعبد من باب الجواز عند القدرة، رغم عدم الوجوب بالنسبة لهم؛ لانتفاء شروط وجوبها عليهم.

غير أن السيرة تحفظ لنا حدثًا ثابتًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم به الدليل على اعتبار القدرة في التفريق بين المرحلة المكية والمدنية وهو محاولة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه علي بن أبي طالب كسر الأصنام ليلًا دون أن يراهم أحد[1].

(1) أخرج القصة أحمد في المسند (84/1، 159) وذكرها الهيثمي في المجمع (23/6) وتمامها: عن علي بن أبي طالب قال: «انطلقت أنا والنبي صلى الله عليه وسلم حتى أتينا الكعبة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجلِس، وصعد على منكبي» فذهبت لأنهض به فرأى مني ضعفًا فنزل وجلس لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «اصعد على منكبي»، قال: فنهض بي، قال: فإنه يخيل إلي إني لو شئت لنلت أفق السماء، حتى صعدت على البيت وعليه تمثال صفر أو نحاس، فجعلت أزاوله عن يمينه وعن شماله وبين يديه ومن خلفه حتى استمكنت منه، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اقذف به» فقذفت به فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت فانطلقت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم نستبق، حتى توارينا بالبيوت؛ خشية أن يلقانا أحد من الناس».



الفصل الثاني

الجانب الثاني من جوانب النظرية

«الواقع»

تحليل الحركة السياسية:

السياسة هي: مراعاة الواقع في إحقاق الحق، واعتبار الواقع في سبيل الوصول إلى الغاية.

ولذلك لا تتم أي ممارسة سياسية صحيحة إلا من خلال الواقع، حتى أصبح هذا الارتباط شرطا في صحتها.

ومن هنا كان ابتعاد العلماء عن الحياة العامة سببًا في جعلهم بعيدين عن السياسة نظريًّا وعمليًّا، وقد سجل هذه الظاهرة المؤرخ ابن خلدون.. فذكر أن العلماء أبعد عن السياسة ومذاهبها؛ والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكري والخوض في المعاني وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن؛ أمورا كلية، ويطبقون من بعد ذلك الكلي على الخارجيات.

ويقصد ابن خلدون أن كثيرا من العلماء –لعيشهم مع الكتب– ينظرون إلى الأمور من خلال الكتب، مع أن الواقع الخارجي «الدول وأحوال الناس الاجتماعية والاقتصادية» يكون مغايرا أو محتاجا إلى تدقيق في التفاصيل.

وقد بلغ هذا الخطأ حد اعتبار الغياب عن الواقع شاهدا من شواهد التعمق في العلم..

وقد ترتب على غياب العلماء عن الواقع أخطاء فادحة في تنزل الأحكام الشرعية على الواقع، حتى بلغ الغياب عن الواقع ببعضهم أن اعتبر الحكام المعاصرين «المبدلين

للشريعة».. مثل بعض الحكام الظالمين من الدولة الأموية أو العباسية.

فالسياسة –كما يقول ابن خلدون– تحتاج إلى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها من الأحوال فإنها خفية..

هذا إذا كانت السياسة بمعنى معرفة الواقع تماما ومحاولة للنهوض بالمسلمين من خلال هذه المعرفة إلى الدرجة التي يريدها الإسلام، أما إذا كان المقصود بالسياسة المراوغة والاحتيال وإتقان فن المداهنة والنفاق فلا[1].

والإطار الواقعي للنظرية السياسية يتحقق مقتضاه في الممارسة من جانبين: الواقع الذي تُمارس فيه الدعوة، والبعد التاريخي لهذا الواقع.

الواقع الذي تمارس فيه الدعوة:

حيث تتم الممارسة من خلال التقييم السياسي للواقع، وهو التصور الذي يختلف عن التحديد الفقهي المباشر في الحكم على هذا الواقع..

مثال ذلك: التفريق بين الروم والفرس باعتبار أن الروم ينتسبون إلى دين سماوي والفرس مجوس؛ مما جعل المسلمين يفرحون لنصر الروم رغم أن الحكم الشرعي في الدولتين هو الكفر.

ومثال ذلك أيضا:

اختيار الرسول صلى الله عليه وسلم الحبشة لتكون مكانًا للهجرة الأولى قائلًا: «**اذهبوا إلى الحبشة فإن فيها ملكًا لا يُظلم عنده أحد**»[2]. رغم مساواته في الكفر

---

(1) أي فليست هذه الأمور هي المقصودة بالسياسة.

(2) أخرجه ابن إسحاق (343/1/ابن هشام) (فتح 227/7).

مع غيره؛ لأن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فيه كان قبل إسلامه.

ومن هذين المثالين يتضح الفرق بين التصور الفقهي المجرد والتصور السياسي؛ فالتصور السياسي يفرق في التعامل بين دولة كافرة ودولة كافرة أخرى، وبين حاكم كافر وحاكم كافر آخر.

ومن التقييم السياسي للواقع يتم التعامل الصحيح معه والاستفادة بطبيعته وخصائصه.

مثل الاستفادة **بالطبيعة الاجتماعية** وتقاليدها كتقاليد الجوار.. كما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة في جوار أحد المشركين[1]، وتقاليد نصرة المظلوم، كما أقر رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتماع العرب قبل الإسلام على أن لا يُظلم بينهم أحد، وهو المعروف بحلف الفضول الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لو دعيت إليه لأجبت**»[2].

وبذلك تكون الاستفادة بالواقع بكل عناصره **حتى جغرافية المكان**.. ولقد كان موقع غفار في طريق تجارة قريش مانعا لقريش من قتل أبي ذر.. وهذا نص الحديث كما رواه أبو ذر الغفاري:

يقول أبو ذر لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه:

والذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم. فجاء إلى المسجد وقريش فيه فقال: يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. فقالوا: قوموا

---

(1) هذا المشرك هو مطعم بن عدي، وذكر القصة محمد بن عبد الوهاب في السيرة النبوية (ص: 83، 84).

(2) أخرج أحمد وأبو يعلى وصححه ابن حبان والحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف مرفوعا: «شهدت مع عمومتي حلف المطيبين، فما أحب أن أنكثه» [518/10 - فتح].

لهذا الصبي. فقاموا، فضُربتُ لأموت، فأدركني العباس فأكب عليَّ، ثم أقبل عليهم فقال: ويلكم... تقتلون رجلا من غفار ومتجركم وممركم على غفار؟! فأقلعوا عني، فلما أصبحت الغد رجعت فقلت ما قلت بالأمس، فقالوا: قوموا لهذا الصبي. فصُنع بي مثل ما صُنع بالأمس، وأدركني العباس فأكب علي وقال مثل مقاله بالأمس[1].

وكذلك الاستفادة من **العلاقات التجارية والموارد الطبيعية** وكان موقع أبي ثمامة من أهل اليمامة وموقع اليمامة من أهل مكة مانعا لقريش من قتله، وتقول السيرة: فلما أسلم أبو ثمامة خرج إلى مكة معتمرا، حتى إذا كان ببطن مكة قال: فكأني أول من دخل مكة. أخذته قريش وقالوا: لقد اختبأت علينا. وأرادوا قتله، فقال قائل منهم: دعوه؛ فإنكم محتاجون إلى الطعام من اليمامة. فتركوه، فقال لهم: والله لا أرجع إلى دينكم ولا أرفق بكم فأترك الميرة تأتيكم من اليمامة ولن تأخذوا حبة قمح حتى يأذن لكم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

والاستفادة من الواقع لا تقف عند حد الحاضر؛ بل تبلغ البعد التاريخي له والارتكاز على تجاربه التاريخية في التعامل مع أهله.

ولقد احتج مؤمن آل فرعون على فرعون احتجاجًا تاريخيًّا صحيحًا عندما قال له: **{وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ}** [غافر: 34].

ومن هنا يجب التعامل مع الواقع الذي تمارس فيه الدعوة بكل هذه الاعتبارات: معرفة طبيعة الناس وتقاليدهم وخصائص موقعهم وتاريخهم.

---

(1) أخرجه البخاري: باب إسلام أبي ذر (3861/210/7 - فتح).

(2) والقصة ذكرها ابن عبد البر في ترجمة ثمامة بن أثال الحنفي (250/1)، والحافظ في ترجمته.

فعندما تكون الدعوة في مصر –مثلا– يجب الانتباه إلى كل أبعاد هذا الواقع من حيث الطبيعة الإنسانية[1].

ولكن الجاهلية تحاول منع العقل المسلم من القدرة على متابعة الواقع حتى أصبح هذا المنع أخطر أساليب المواجهة الجاهلية للحركة الإسلامية.

لقد بلغ أمر التعمية السياسية التي يتعرض لها العقل المسلم إلى حد اعتبار أن مجرد متابعة الموقف السياسي هو الحد النهائي الذي يمكن الوصول إليه وأن تجاوز هذا الحد يكون أمرًا مستحيلًا.

وبذلك يصير أهم واجبات الدعوة هو اجتماع كل إمكانيات الحركة الإسلامية بكل اتجاهاتها في مهمة إدراك الواقع ومتابعته، باعتبار أن السياسة وظيفة جماعية.. وأن إدراك الواقع يجب أن يكون هو الآخر وظيفة جماعية؛ ليصبح نظام جمع المعلومات ومتابعة الواقع الجاهلي بكل الوسائل والأساليب لصالح الحركة الإسلامية أهم واجبات الممارسة السياسية للحركة بكل كياناتها. كضرورة أساسية لتحقيق المواجهة اللازمة لكل المخططات الجاهلية ضد الدعوة.

تقييم الواقع الجاهلي:

وقيام الجماعة المسلمة يفرض على المسلم تقييم الواقع الذي قامت فيه؛ لأن التصور الذي لا يصل بصاحبه إلى حد تقييم الواقع لا يصل إلى حد الكمال والصواب.

وتقييم الجماعة المسلمة للواقع الجاهلي له أساسان:

– أساس عقدي يقوم به وجود الجماعة في هذا الواقع.

---

(1) انظر: شخصية مصر لجمال حمدان.

– أساس حركي تتم به مواجهة الجماعة لهذا الواقع.

أما عن التقييم العقدي فإنه يعد من أبعاد التصور الاعتقادي الذي قامت به الجماعة، وهؤلاء هم فتية الكهف يقول الله فيهم: **{نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى * وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا}** [الكهف: 13-15]

وواضح من النص أن إعلان عقيدتهم بقولهم: **{رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** تبعه تلقائيًّا: **{هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً}** وهو تقييم لواقع قومهم بمقتضى تصورهم.

وقيمة تقييم الواقع الجاهلي لا تنتهي عند اعتبارها شرطًا لصحة الاعتقاد الإسلامي، ولكنها كذلك تكليف شرعي كلفنا الله به باعتبارنا شهداءه سبحانه في الأرض بدليل قوله عز وجل:

{وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أنتم شهداء الله في الأرض**»[1].

وإذا كان الإحكام أساس لمعنى الحكمة فإن ذلك يقتضي ألا تطغى مهمة الشهادة أو الحكم على الناس على مهمة دعوتهم وغاية هدايتهم.

كما تقتضي عدم تجاهل مهمة التقييم والحكم والشهادة في واقع دعوتنا لهؤلاء الناس.. وبذلك يتقرر بمقتضى الحكمة أن نكون «دعاة وشهداء» في إحكام بين المهِمَّتين.

(1) البخاري (3/288) ومسلم (9499) من حديث أنس.

البعد التاريخي لواقع الدعوة:

يبدأ الكلام على الواقع التاريخي للدعوة بمناقشة تحقق الامتداد التاريخي الصحيح للدعوة ابتداءً من عهد النبي صلى الله عليه وسلم حتى واقعنا القائم.

وهنا نجد أنفسنا أمام أخطر قضايا التصور السياسي وهي قضية التراث كأساس لتحديد النظرية السياسية الإسلامية بالتعامل الصحيح مع التراث، ابتداءً من مهمة التحليل السياسي للتراث.

التحليل السياسي للتراث:

ومناقشة قضية التراث تكون بالمنطق السياسي ذاته، بمعنى أن التعامل مع كتب التراث لا يكون تعاملًا مع نصوص مجردة، بل يجب ربط النص التراثي بصاحبه وواقعه وهدفه، وبذلك يؤخذ التراث بمنطق الحكمة، حيث يتوفر في التعامل عناصر التعريف الأساسية لمعنى الحكمة: «النص، وصاحب النص، وظروف النص، والغرض منه».

وبذلك تتحقق مهمة إحياء التراث، وتنبع من طبيعة وحقيقة التصور الصحيح لوظيفة ذلك الإحياء.. أما الاقتصار على الوظيفة اللغوية أو حتى التاريخية فإنه يجعل الإحياء قاصرًا..!

لكن الإحياء الكامل هو الإحياء بالحكمة، أو الارتفاع بالإحياء إلى مستوى الوظيفة السياسية.

والتحليل اللفظي لنصوص التراث يسمح باكتشاف حقيقة المدركات الكامنة في الألفاظ.. والتحليل التاريخي يحدد الواقع من حيث الزمان والمكان.

أما التحليل السياسي فهو ربط المدرك بالواقع.. والإنسان هو الذي يقوم بذلك الربط

فينطبق مفهوم الحكمة على مهمة التحليل.

ولذلك يقول حامد ربيع: «التحليل السياسي للتراث يلغي عنصر الزمان؛ إذ يفرض على المحلل أن يسعى لإدراج التراث في إطار أكثر اتساعًا؛ حيث يصير النص التقاءً بين ماضٍ وحاضر ومستقبل بحيث يكشف الحقائق الثابتة الدائمة وتمييزها عن الأخرى المؤقتة...»[1].

ونحن إذ نركز على الإنسان المحلل فإنما يكون ذلك بسبب أن الإنسان نفسه هو الذي يربط بين النص وواقع صاحبه.. وهو الذي قد يضطر إلى تجريد النص التراثي من تلك العوامل إذا كانت نتيجة التحليل هي الوصول إلى حقيقة مطلقة يجب الاستفادة بها مجردة من ظروفها التاريخية.

ومهمة ربط النص بظروفه.. لإدراكه بصورة صحيحة.

وتجريد النص من ظروفه.. لاستخلاص حقيقته المطلقة والثابتة[2] هو ما يسمى بـ «الوعي السياسي».

إذن: الوعي السياسي هو مجموعة الحقائق المطلقة المأخوذة من التحليل السياسي للتراث التاريخي للأمة.

ومن هنا يجب ألا نتعامل مع النص التراثي كمجرد استجابة إلى نوع من أنواع الفضول، إنما من منطلق الحركية العلمية وهي أهم خصائص التنظيم السياسي. والحركة العلمية كخصيصة من خصائص التنظيم السياسي هي التعامل مع النص التراثي بمقتضى

---

(1) سلوك المالك في تدبير الممالك.

(2) مثل قصة أصحاب الأخدود التي جردها القرآن وظروفها الشخصية والزمانية والمكانية، وذكرها كحقائق مطلقة ومحققة للوعي السياسي في واقع الدعوة حتى قيام الساعة.

مفهوم الحكمة أو التصور السياسي.

نقل الخبرة:

وفي إطار تحليل الواقع التاريخي للدعوة تتحدد أخطر قضاياها تحديدًا سياسيًّا: وهي نقل الخبرة، التي تمتد من التاريخ حتى الواقع القائم للدعوة بكل تجاربها.

وفي نقل الخبرة السياسية من التراث يقول شهاب الدين بن أبي الربيع صاحب كتاب «سلوك المالك في تدبير الممالك» في أول صفات الزعيم السياسي: «**الرأي المتين بالبحث والنظر في تدابير السلف وتجاربهم**».

وقضية نقل الخبرة السياسية تمتد من التاريخ القديم وهو التراث حتى التاريخ الحديث والواقع القائم.

والخبرة ترجع في مضمونها إلى التجربة سواء كانت تاريخية أو حديثة.

ولكن التجربة كمصدر للخبرة ليست مجرد إضافة عقلية أو سلوكية ولكنها قبل ذلك مصدر يقين قلبي يجعل من الإضافة العقلية والسلوكية دافعا لمواجهة المواقف واطمئنانا في ممارسة تلك المواجهة.

والأخذ بالتجربة من أهم ضرورات المواجهة مع الجاهلية لسبب عملي واضح وهو أن الجاهلية تجربة واحدة بدأها إبليس بمعصيته واستكباره وسيظل قائمًا عليها إلى يوم البعث.

وهذا معناه أن الجاهلية تاريخ واحد وأن المواجهة من جانبها للإسلام قائمة بخبرة تاريخية كاملة، ولنا أن نتصور بتلك القاعدة مدى التطور الجاهلي في المواجهة عندما يكون العامل الزمني الذي تتطور به هو هذا التاريخ القديم المستمر.

والمواجهة الإسلامية للجاهلية وهي تجربة تاريخية واحدة بتجارب مبتورة معناه فقد

أكبر إمكانيات القدرة الإسلامية في تلك المواجهة.

ولهذا تم لقاء مباشر بين موسى رسول بني إسرائيل وبين رسولنا عليهما الصلاة والسلام ليلة الإسراء والمعراج في السماء.

واستجاب نبينا عليه الصلاة والسلام لنصيحة أخيه موسى..

واستجاب الله عز وجل لسؤال نبينا صلى الله عليه وسلم بالتخفيف، وأصبحت الصلاة خمسًا بعد خمسين[1].

وتقييم التجارب الإسلامية السابقة علينا ليست مجرد إضافة خبرة أو زيادة معرفة، ولكنها استمداد للخير من أصله؛ لأن أي تجربة حدثت في مجال الدعوة هي أحداث سبقنا بها دعاة نحن نليهم في استمرار الدعوة.

والخير على مستوى تاريخ هذه الأمة مرتبط بصفة السبق الزمني بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[2].

وصفة السبق الزمني هي التي تعطي للأحداث صفة التجربة.

وهذه مقارنة قرآنية بين فترة ما قبل الفتح وما بعده من خلال الإنفاق والقتال وذلك في قول الله: **{لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}** [الحديد:10].

وما سبق يحدد قيمة التجربة على المستوى التاريخي للدعوة، ليبدأ بعده تحديد قيمة

---

(1) صحيح ابن حبان، كتاب الإسراء، ح50.

(2) البخاري (5/258) ومسلم (2535).

التجربة على المستوى الفردي، وأثر التجربة في الداعية بصفة شخصية من خلال عدة نقاط:

أولا: أن التجربة أساس للتربية:

ولذلك رعى كل الأنبياء الغنم قبل ممارسة الدعوة ليتزودوا من خلال تجربة الرعي بصفة السكينة والوقار[1].

ولعلنا ندرك قيمة الإنسان وخطورة التعامل معه في مجال الدعوة بدون تجربة، من خلال تزود الأنبياء بتجربة رعي الغنم قبل التعامل مع البشر.

ثانيًا: أن التجربة مصدر للثقة:

ولذلك جعل الله موسى يخوض تجربة العصا عندما تصير حية في الوادي المقدس، قبل أن يذهب إلى فرعون:

{وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى * قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} [طه: 17- 20].

ورغم أن موسى ذهب إلى فرعون مزودًا بتلك التجربة فإنه في موقف المواجهة أوجس في نفسه خيفة، فما بالنا لو ذهب بغير تجربة..؟!

---

(1) روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال: افتخر أهل الإبل والغنم عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الفخر والخيلاء في أهل الإبل والسكينة والوقار في أهل الغنم**».

ثالثًا: أن التجربة ضرورة لليقين:

لأن التجربة واليقين يلتقيان في الواقع؛ إذ إن الواقع هو مجال التجربة ومصدر اليقين؛ ولذلك كانت رؤية زكريا لمريم في تجربة ملموسة للرزق بغير حساب هي مصدر يقينه بإمكانية أن يرزق الولد بعد أن اشتعل رأسه شيبًا:

{كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ} [آل عمران: 37، 38].

رابعًا: أن التجربة ضمان للصواب:

ولذلك يعلمنا النبي صلى الله عليه وسلم الحذر من معاودة الخطأ بالاستفادة من أي تجربة خاطئة فيقول: «**لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين**»[1].

غير أن الاستفادة الحقيقية من تجارب الدعوة السابقة رهن بالتقييم الصحيح لها فكرًا وتطبيقًا.

فمن ناحية الفكر والمنهج يتم التقييم على أساس الالتزام بالكتاب والسنة والفهم السلفي لهما.

ومن ناحية التطبيق والواقع فإن التقييم يتم على أساس بلوغ حد الاستطاعة ماديًّا وتنظيميًّا لتحقيق الهدف المحدد للتجربة.

---

(1) البخاري، كتاب الأدب، باب لاَ يُلْدَغُ المؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ، ح6133. مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ، ح7690.

أما التقييم الخاطئ للتجربة فهو الذي يبتعد عن جوهرها الشرعي والحركي فيفقدها أثرها في واقع الدعوة؛ حيث يصير التقييم بالابتعاد عن جوهر التجربة مجرد كلام نظري لا يتجاوز ناحيتها الشكلية أو نتائجها المادية، وبناء على التقييم الإيماني الصحيح فإن هناك تجارب إسلامية عظيمة وإن لم يكن لها نتائج مادية في الواقع ولكنها أخذت تلك الصفة لتحقق المستوى الإيماني الكامل فيها.

وهؤلاء هم أصحاب الشجرة يبايعون النبي صلى الله عليه وسلم على القتال بصدق فيرضى الله عنهم دون أن يقاتلوا: **{لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا}** [الفتح: 18].

وقد يكون للتجربة آثارٌ ونتائج سياسية وإعلامية ضخمة وظاهرة، ولكن دلالاتها الإيمانية تكون خافية بجانب هذه الآثار الظاهرة؛ فيصبح من الواجب تحري هذه الدلالات الإيمانية للتجربة لتكون مثلا لأصحاب الدعوة.

ونضرب لذلك مثلاً يوضحه.. وهو حادث اغتيال السادات.

فقد كان لهذا الحادث آثار سياسية ضخمة أدركها العالم كله، ولكن كان بجانب هذه الآثار.. دلالات إيمانية لم يدركها إلا القريبون من الحدث.

ونترك شاهدًا من القوم على موقف لا يقل في دلالته الإيمانية عن موقف الاغتيال ذاته، وهو موقف تنفيذ الحكم الباطل بقتل خالد شوقي الإسلامبولي.

يقول الضابط المشارك في تنفيذ الحكم: من المعتاد في مثل هذه المواقف أن يسحب الجنود من سينفذ فيه الحكم لأنه غالبًا ما يفقد قدرته على التحكم في أعصابه ويكون غير قادر على المشي، ولكن خالد كان يسير بنفسه دون أن يكون معه أحد، بل ويسير مسرعًا ثم يقف بنفسه في المكان ثابتًا مبتسمًا أمام طلقات الظلم والكفر..

هل يقل هذا الموقف عن بطولة وثبات حادث الاغتيال نفسه..؟

وهل يجوز أن ينقص تقييم التجربة إدراك هذا الموقف وتفسيره..؟

وإذا كان من الطبيعي أن يكون لكل تجربة خطؤها فإن التقييم الصحيح هو الحد الفاصل بين الخوف من الخطأ الذي يجعلنا نبذل أقصى الجهد لتحقيق صواب العمل وبين الخوف الذي يترتب عليه توقف العمل.

وبذلك، فإن التقييم الصحيح للتجربة هو الذي يضع المسلم في سبيل ميسر للعمل الصحيح بعد أن ينفض عنه غبار الخطأ ويعيد إليه دافع الاستمرار مزوَّدًا بتجربة ماضية ليخوض بها تجربة مقبلة.

قواعد نقل الخبرة:

ومما سبق يتبين أن مهمة نقل الخبرة لها عدة قواعد:

- **الصواب الشرعي**؛ فعند تقييم أي عمل إسلامي في واقع الدعوة نسأل أولًا عن الحكم الشرعي في هذا العمل.

- **بلوغ حد الاستطاعة المادي والتنظيمي المقدر لتحقيق الهدف**..

فإن كان صوابًا شرعيًّا نسأل: هل بلغ أصحاب هذا العمل حد الاستطاعة المادي والتنظيمي قبل القيام به؟

فإن لم يبلغوا فيكون الحكم عليهم بالتقصير من هذه الناحية، وإن كانوا قد بلغوا فلا بأس عليهم.

فإذا توافر الدليل الشرعي بالصواب من حيث الحكم وتوافر حد الاستطاعة المادي

والتنظيمي من حيث العمل، ثم كان الخطأ في الممارسة.. فإننا نواجه هذا الخطأ بعدة واجبات:

الأول: معالجة هذا الخطأ وأثره في الواقع..

الثاني: قد يحدث خطأ باعتبار الخطة وبالقياس إلى الهدف المحدد، ولكن قد يكون لهذا الخطأ بالاعتبار القدري جانب إيجابي بالقياس إلى الواقع، فعندئذ يجب الانتباه لهذا الخطأ المنهجي مع تحديد أسلوب الاستفادة من أي نتائج كائنة بقدر الله في واقع الممارسة.

فلا يمنع خطأ الممارسة مهمة الاستفادة من النتائج الحادثة بصفة قدرية بحتة!

كما أن الاستفادة من النتائج الحادثة قدرًا لا يعني إقرار خطأ الممارسة..

الثالث: ربط آثار التجربة بكل جوانبها الإيجابية المحددة تخطيطًا، أو السلبية الناشئة عن الممارسة، أو الحادثة قدرًا، بواقع الدعوة، وتقييم الوضع النهائي للتجربة، استعدادًا لمرحلة جديدة.

الرابع: الارتفاع بمفهوم الأخوَّة فوق مستوى الصواب أو الخطأ، فلا يعني الحكم بخطأ الممارسة أن ينسحب أثر هذا الحكم على صاحب هذه الممارسة، لأن المقصود من تقييم الممارسة الاستفادة من الأخطاء لتفاديها، وليس الأشخاص بذاتهم.

وإذا كان من الطبيعي أن يكون لكل تجربة خطؤها فإن التقييم الصحيح هو الذي يرتفع بحقيقة الأخوة، فلا تكون مرهونة بصواب أو مفقودة بخطأ، طالما أن قيام التجربة كان في حدود الإيمان الصحيح..

ويسعنا في ذلك قول الله عز وجل:

{رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10].

التقييم التاريخي:

كما يجب تقييم أي تجربة على أساس الواقع والظروف التي تمت فيها، فيقاس تقييم أي حدث تاريخي بالنسبة لواقع الدعوة القائم إلى ظروف البداية التي لم يملك فيها أصحاب الدعوة أي تصور حركي أو خبرة سابقة أو إمكانية للعمل.

فعندما يقوم رجل ليمشي بعد وقت طويل من المرض والرقاد وعدم الحركة لا يجب أن نسأله إلى أين أنت سائر؟ وما هي وجهتك؟ إنه يتحرك.. يتحرك فقط وهذا يكفي.. أو عندما يفر إنسان من حريق يكاد يلتهمه، لا نسأله إلى أين أنت ذاهب؟ وما هي وجهتك؟ إنه يفر من الحريق.. يفر فقط وهذا يكفي!

هكذا كان الحال في البداية..[1]

ومن هنا كانت التصرفات التي لا يمكن الاقتناع بها الآن.. تمثل بالنسبة لأصحاب هذه المرحلة خطوة متقدمة..

مثل: فكرة الهجرة التي تبناها زعيم إحدى الجماعات..

فجمع أتباعه في إحدى المناطق الصحراوية في الصعيد ليقيم مجتمعا بعيدا عن المجتمع الجاهلي، هذه الفكرة التي تبدو الآن غريبة لا معنى لها، كانت في وقتها فكرة متقدمة ملهمة لعدد كبير من الشباب الذين انضووا تحتها بقناعة وحماس.

---

(1) المقصود بالبداية هنا هي الفترة من 1965 حيث كان قادة الحركة الإسلامية في السجون، ولم يكن في الواقع أي عناصر تتمتع بالخبرة، وتستطيع قيادة التجربة.

وابتداء من المحاولات الأولى وانتهاء بالمرحلة القائمة كانت كل تجارب الدعوة وأحداثها تمثل أقصى حد للاستطاعة يبلغه أصحاب الدعوة من حيث التحديد المنهجي ومن حيث الإمكانيات التنظيمية والمادية.

وهذا التحديد شرط عملي هام لكي تكون هذه الجماعة امتداد صحيحًا للواقع التاريخي للدعوة وذلك بأن تجتمع فيها كل تجارب الدعوة السابقة.. وهذا ما يتحقق بربط الجماعة القائمة بالواقع التاريخي برباط التجربة.

وفي ذلك تحقيق لأهم مقتضيات الحكمة؛ حيث جاء في تعريفها من حيث علاقتها بالتجربة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لكل حليم عثرة ولكل حكيم تجربة»[1] ولقولهم في تعريف الحكمة: «رجل حكيم أي رجل أحكمته التجارب».

التفسير التاريخي للحركة الإسلامية

ويدخل في نقل الخبرة وتقييم التجربة الإسلامية.. التفسير التاريخي للدعوة، وقيمة هذا التفسير هي إدراك النتائج الناشئة عن السياق التاريخي للحركة بصفة عامة وهو الأمر الذي يختلف عن النتائج الناشئة عن حدث محدد أو فترة محددة.

فلا يمكن قياس المستوى المنهجي للحركة في المرحلة القائمة إلا بقياسها على المحاولات البسيطة التي بدأتها الحركة.

ولا يمكن قياس استقرار ظاهرة الالتزام بالزي الشرعي للنساء إلا بقياسها على محاولة خروج الأخت الأولى بهذا الزي إلى الشارع، والاحتمالات التي كانت قائمة من جهة الناس.

---

(1) الحاكم في المستدرك، وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

ولا يمكن قياس الوصول إلى المرحلة العملية للمواجهة إلا بقياسها على المرحلة التي لم تتجاوز بكل اتجاهاتها الحد النظري ومجرد الكلام.

ولا يمكن قياس النتائج المتحققة في واقع الدعوة إلا بإدراك حجم القوة الجاهلية المانعة من هذه النتائج من الناحية الأمنية والسياسية وجميع النواحي الأخرى وعلى كل المستويات العالمية والإقليمية.

الفصل الثالث

الجانب الثالث من جوانب النظرية

الإنسان «المسلم السياسي»

أما جانب «الإنسان» في النظرية السياسية فإنه يتمثل في مصطلحين:

الأول: المفكر السياسي

وذلك باعتبار أن الفكر مهمة إنسانية صادرة عن الإنسان المرتبط بالحق والناظر في الواقع والمدرك للغاية.

لتصبح جوانب الحكمة هي بذاتها عناصر الفكر السياسي.

وبذلك أصبح لزامًا على المفكر السياسي الإسلامي الالتزام بالأساس الشرعي؛ ليكون الحق هو القيمة العليا التي منها وبها تتحدد جميع أبعاد الممارسة السياسية.

وأصبح لزامًا على الفكر السياسي الإسلامي الارتباط بالواقع بجانبيه: الاجتماعي والحركي؛ وذلك من خلال الارتباط بواقع الدعوة، وكذلك من خلال الالتزام بقواعد الحركة لهذا الواقع أيضًا.

وأصبح لزامًا على المفكر السياسي الإسلامي اعتبار قضية الخلافة هي منطلقه الوحيد في بناء وتصور الحقيقة السياسية وذلك على أساس أن الخلافة هي الغاية النهائية للحركة.

وبذلك يُنشئ الفكر السياسي علاقة تفاعل بين التأمل في الحق، الذي يقوم به الإنسان، وهو يحيا في الواقع، لإدراك الغاية.

وإذا كان التأمل يعكس النبوغ الفردي والحساسية الذاتية.. فإن الواقع ترجمة للمعاناة

اليومية من خلال الممارسة..

والاستمرارية الفكرية تفترض التتابع المستمر، والمعاناة المنتظمة، في علاقة ثابتة بين الفكر والحركة؛ حتى تتحقق الغاية.

والمحصلة النهائية لبعدي الحق والإنسان هي تكوين المفكر السياسي.

والذي يجب فهمه هو أن الإنسان المؤمن –صاحب التصور السلفي– هو الذي يملك القدرة –بإذن الله– على أن يكون مفكرًا سياسيًّا.

وافتقاد هذا التصور يعني العجز عن تقديم أي عطاء، بل والعجز عن الارتباط الصحيح بأحداث الأمة، وهناك أمثلة تاريخية لهذا الانفصال:

الغزالي: يعاصر الغزوة الصليبية فلا يعلق عليها..

الفارابي: يترك الواقع ويعيش مدينته الفاضلة..

ابن رشد: يعيش مأساة انهيار الدولة الإسلامية بالأندلس، ومع ذلك يحيا تهافت الفلاسفة وغير الفلاسفة..[1]

وقد مر بنا الارتباط بين الفقه والسياسة، وأن الفقهاء كانوا هم المفكرين السياسيين في الأمة.

الثاني: الزعامة السياسية:

الزعامة السياسية تعني باختصار: القدرة الذاتية على اتخاذ القرار السياسي المحقق

---

(1) هذه الأمثلة نقلا عن حامد ربيع في سلوك المالك.

لأقوى إمكانيات الصواب، وأقصى درجات الاطمئنان النفسي.. يعني «الجانب الإنساني للقرار السياسي».

ومن مجموع كتب الفكر الإسلامي التراثية والحديثة تتحدد **صفات الزعامة السياسية** اللازمة لاتخاذ القرار السياسي وأساسها:

- **الحكمة**، وهي الروية، والتمييز، والورع، وضبط النفس، والشجاعة، والإقدام، سعة الأفق، قوة الحدس والتخمين.. ثم الرأي المتين، بالبحث والنظر في تدابير السلف وتجاربهم.

- **الإخلاص** الملهم للصواب، والمجبر للخطأ، والمحقق للثواب في كلا الاحتمالين، والمحقق في نفس الوقت للتجرد من الصراعات النفسية والمؤثرات العاطفية.

- **الصبر** على الشدائد بلا تردد الخائف، ولا تهور المتحمس، والذي يتحمل به المناوأة من المختلفين معه داخل كيانه السياسي، والمتربصين به خارج كيانه، والضاغطين عليه من العقول غير الفاهمة، والنفوس غير السوية..

- **الذكاء** المحقق للإحاطة بالقرار وآثاره واحتمالاته وبدائله؛ بدقة ذهنية واستشفاف مستقبلي يستوفي حق التفكير في القرار بأنسب وقت ممكن بحيث لا يكون فيه تعجل.. ولا تردد.

- **العلم** والخبرة المستخلصة من تجارب الواقع المشابهة للتجربة القائمة لتحقيق كل عناصر الصحة والصواب بأسهل الأساليب، وتحقيق أكبر العوامل المنبهة للتجربة القائمة إلى المزالق والثغرات التي دفع ثمنها أصحاب التجارب السابقة حتى لا يتضاعف الثمن وتتضاءل الحصيلة.

- **الشورى** الجامعة لأقصى إمكانية الصواب في الرأي.

- **العزم** الذي يجعل صاحب القرار منطلقًا بقراره بأقصى الاطمئنان الشرعي والحركي والنفسي.. اطمئنانًا يملؤه ويتعداه منه إلى جميع المحيطين به فيطمئنوا كما اطمأن اطمئنانًا واثقًا، بغير غرور يعمي عن الحقيقة، وبغير تردد يضيع الهدف ويحير المشاركين له في الموقف.

- **التوكل** المعين على خوض التجربة قبل بدئها وعلى تحمل آثارها بعد تمامها.

- **الحب والألفة**: التي تعين على الاطمئنان لقراره وتخفف من وطأة الخطأ إذا حدث وتعين على تحمل المعاناة المترتبة على الخطأ.. الحب الذي يجعل الجميع يبذل كل ما في وسعه؛ لإنجاح قرار يحبون صاحبه (**خَيْرُ أمرائكم من تحبونهم**)[1].

وبصفة نهائية تكون **القوة الشخصية**.. التي يأخذ بها فرصته الكاملة في اتخاذ قراره، ويتنبه بها إلى المحاولات الطبيعية المصاحبة لكل قرار جديد، والتي يحاول فيها أصحابها نقد أو رفض القرار من المحيطين بصاحب القرار عندما يكون حوله المخلص غير الذكي والذكي الفاقد للخبرة؛ حيث سيترتب على فقد أي عنصر من عناصر الإخلاص والذكاء والخبرة.. محاولة معاكسة لصاحب القرار..

القوة الشخصية التي ينشئ بها واقعًا جديدًا، ومرحلة جديدة، ومتغيرات بقرارات سياسية تتطلب رجلًا قويًّا..

وأقوى ما تتمثل فيه القوة الشخصية للزعيم السياسي هو قدرته على مواجهة جماعته ذاتها في حال الوقوع في خطأ جماعي يجب تصحيحه، والدليل على هذه الحقيقة ما كان من موقف موسى مع قومه بعد عبادتهم العجل، الأمر الذي لم يستطعه هارون، وما كان

---

(1) رواه مسلم في الإمارة باب وجوب الإنكار على الأمير فيما يخالف الشرع (244/12/4 – نووي)، وأحمد في المسند (24/6) عن عوف بن مالك بلفظ: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم**».

في غزوة أحد: **{أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [آل عمران: 165].. أي: بسبب عصيانكم رَسُول الله صلى الله عليه وسلم حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم، يعني بذلك الرماة..

أو في حال اتخاذ قرار يراه صوابا ولا يشاركه في هذه الرؤية أحد غيره، مثلما كان من أبي بكر في حرب الردة، وهذه الحالة لا تعتبر استبدادًا:

لأنها تستند إلى أساس شرعي..

ولأن القرار كان بعد المشورة..

ولأن العلاقة النفسية بين الجماعة والأمير كانت قوية بالدرجة التي تجاوزت بها الجماعة هذا الموقف، فاقتنعت بالرأي بعد ثبات أبي بكر عليه، ولذلك يقول عمر: (فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَأَيْتُ أَنْ قَدْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ)[1].

وأساس القوة الشخصية هو إيمان صادق يتعرف به الزعيم السياسي على مصلحة الدعوة بكل كيانه ومواهبه..

وربانية تحميه من أي تناقض بين إنسانيته والحق الواجب.. وبصيرة تثبُتُ بها الغاية في فؤاده.. وعلمٌ يمنعه من الغفلة عن الواقع وطبيعة الأمور، تخطر له الفكرة ويلهم الأمر، ويلازم الصواب..

يعيش قضيته.. يتحرك بجماعته.. ينهض بأمته.. يحيي حضارته.

(1) رواه البخاري (2657/6، 6855)، ومسلم (51/1، 20).

وبذلك تجتمع في الزعامة السياسية كل العناصر المحققة لمضمون النظرية السياسية، والمحصلة النهائية للممارسة.

وكما كانت صفات الزعامة السياسية أساسًا في تحقيق غاية الجماعة، فإنها هي نفسها أساس حماية الجماعة من أخطار الزعامة.. وأشدها الإحساس بتعلق أهداف الدعوة بهذا الزعيم وارتهانها بشخصه.

ومكمن الخطر هو أن الشروط المحققة للزعامة هي نفسها التي يتسلل من خلالها هذا الخطر.. وخصوصا إذا طال الوقت بهذا الزعيم وكثرت أعماله الساعية إلى تحقيق هدف الجماعة، فينشأ الشعور بأن الجماعة غير قادرة على تحقيق أهدافها بغير هذا الزعيم..

لقد تنبه عمر إلي هذا الخطر فكان قرار عزل خالد، ليؤمن المسلمون أن الأمر بيد الله وحده..وفي غزوة أحد «لما تكامل تهيؤ المشركين للانصراف، أشرف أبو سفيان على الجبل، فنادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجبيبوه. فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه –وكان النبي صلى الله عليه وسلم منعهم من الإجابة– ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة **لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم**–. فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله ما يسوءك»[1].

فنلاحظ في الموقف أن تصور الجاهلية للزعامة –متمثلة في موقف أبي سفيان– يقوم على الأشخاص، وهو ما أكد عليه صاحب الرحيق المختوم بقوله: «ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة **لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم**».

قد تمثل في التصور الإسلامي الصحيح لموقف الزعامة موقف أنس بن النضر –في

(1) رواه البخاري وأحمد وأبو داود وابن حبان، والاقتباس من الرحيق المختوم للمباركفوري.

نفس الغزوة– عندما أشيع خبر مقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قال لقومه من الأنصار: «يا قوم إن كان محمد قد قتل، فإن رب محمد لم يقتل وما تصنعون في الحياة بعد رسول الله، فقاتلوا على ما قاتل عليه رسول الله، وموتوا على ما مات عليه».

وإشاعة مقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم تسجل درسًا هامًا في قضية الزعامة السياسية، إذ قدر الله سبحانه هذه الإشاعة لينزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حي، ليخبرهم ما يكون إذا مات الرسول: **{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ}** [آل عمران:144].

ويموت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتمثل موقف الأمة في موقف عمر وأبي بكر..

عمر لا يصدق ويقول: محمد ذهب ليلقى ربه وسيعود..

وأبو بكر يستوعب الموقف ويقف خطيبًا ويقول كلمته المشهورة: يا أيها الناس! من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا الآية، فيقول عمر: وكأني لم أسمعها من قبل!

فخاطبت الآية الأمة بعد وفاة رسولها صلى الله عليه وسلم **{وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ}**.

وهذه العقيدة نتعامل بها مع زعمائنا في حياتهم وعند مماتهم وغيابهم، فإذا غاب منا زعيم وقلنا: «إنا لله وإنا إليه راجعون» أخلفنا الله خيرا منه..

فلا يجب أن تتجاوز الصدمة حق العقيدة، ولا تؤثر في هذه المسلمات..

والله سبحانه الذي صنع هذا الزعيم وأقدره على الوصول لهذه المكانة بيننا.. قادر على أن يخلفنا فيه خيرا.

طالوت.. درس في الزعامة:

وهناك تجربة قرآنية تاريخية في قضية الزعامة.. هي قصة طالوت، التي عقب الله عليها بقوله سبحانه: **{تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ}** [البقرة: 252] لنفهمها درسًا منهجيًا باقيًا لأتباع المرسلين..

والبداية هي تفسير حقيقة الموت والحياة:

والاستعداد للموت.. أساس الفهم الصحيح، والحركة الصحيحة، ولذلك تبدأ الآيات بمعالجة هذا الإحساس بحقيقة أن الحرص على الحياة لا يبقيها، والخوف من الموت لا يمنعه، وهذه هي الحقيقة في المعالجة: **{الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ المَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا}** [البقرة: 243].

أماتهم الله وهم حريصون على الحياة، وبعد أن ماتوا وفقدوها.. أحياهم الله..!

وبعد فهم قضية الموت والحياة.. يكون القتال في سبيل الله أمر سهل: **{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}**..

وعندما يكون الاستعداد للموت يكون الاستعداد للبذل.. سنة نفسية ثابتة، ومعيار سلوكي صحيح: **{مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}**.

والله يحي ويميت.. ويقبض ويبسط: **{تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَتُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}**

[آل عمران:27]..

بهذه القاعدة نعيش الواقع ونخوض التجربة..

وتبدأ الآيات بالتحديد الزمني للتجربة.. ملأ من بني إسرائيل: **{أَلَمْ تَرَ إِلَى المَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ}**

والتحديد الزمني **{مِنْ بَعْدِ مُوسَى}** كان ضروريًا، لأن آية الملك ستكون بقية مما ترك آل موسى وآل هارون..

ولكن الأمر يتطلب الاطمئنان إلى مصداقية هذا الطلب: **{قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا}**..

ولكن أصحاب الطلب يثبتون أهميته: **{قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا}**..

إجابة مقنعة.. فعندما يكون الإخراج من الديار والأبناء.. لابد أن يكون القتال، ومع ذلك فقد يكون الإخراج من الديار والأبناء، ولا يرون وجوب القتال بل يحاربون أهله..

حالة تجاوز فيها هؤلاء الناس حد الطبع الإنساني بالغيرة على العرض والأهل..فمسخوا وغابوا عن الوعي والطبع، فلما كتب عليهم القتال بعد مطالبتهم به.. لم يواصلوا الطريق الواجب: **{فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}**..

ومن ذلك أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الفائر في نفوس الجماعات ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول.. فإن أكثرية بني إسرائيل هؤلاء قد تولوا بمجرد أن كتب عليهم القتال استجابة لطلبهم..

{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا} وكلمة «بَعَثَ» تدل على

أن نشأة الإمارة في مثل هذا الواقع قضية قدرية خالصة، لأن المعايير اللازمة للإمارة غير قائمة في واقع الفراغ، وهذا لا يعني إلا اللجوء إلى الله والاستعانة به في أن يبعث من تجتمع حوله القلوب، بدلا من الهروب وإسقاط واجب الجماعة والاتجاه نحو العزلة..

كما أن كلمة «بَعَثَ» تدل على أن الزعامة في مثل هذه الظروف ارتفاع بمستوى شخص من قدرها الله له فوق انحطاط الواقع، والخروج به عن سياق الضعف والتخبط.

وبمجرد بعث طالوت بدأت مشكلة الصراع على الزعامة..

وقد يتبادر إلى الذهن أنه ما كان لهذه المشكلة أن تظهر في مثل هذه الظروف، ولكن هذه المشكلة تفرض نفسها على كل الظروف، وتلك هي خطورتها، مما يقتضي التعامل معها باعتبار تلك الخطورة: **{قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ المَالِ}**

جميعهم قالوا.. كل واحد منهم قال..

كل واحد منهم كان يتصور أنه أحق بالزعامة..

وفهم هذه المشكلة هو الذي يحقق التعامل الصحيح معها، وأول قواعد هذا التعامل هو فرض الزعامة كأمر واقع: **{قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ}**..

ثم تحقيق القناعة النفسية بالزعامة بعد فرضها..

وترتيب الآية في تفسير المشكلة هو نفسه ترتيب مواجهتها.. الفرض ثم القناعة.

وإثبات إمكانية الزعامة المفروضة هي أول أسباب تحقيق القناعة: **{وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ}** وهما عنصري الزعامة..

فالناس يحتاجون إلى العلم الصحيح ويحتاجون إلى صاحبه، وتكون له الولاية عليهم، وكذلك يحتاج الناس إلى العمل ويحتاجون إلى صاحب القدرة عليه..

ولا يؤثر في الأتباع ويضمن ولاءهم إلا العطاء العلمي والقدرة العملية:

العطاء العلمي الذي يجده الأتباع في زعيمهم فيتحقق لهم الإيمان بأنهم على الحق في كل موقف وفي كل خطوة..

والقدرة العملية في تحريكهم إلى العمل بمقتضي هذا الحق..

وبتحقيق الولاء للزعامة السياسية بخصائصها وقدراتها الذاتية والنفسية والسلوكية في شخص الزعيم.. ينقطع طمع كل واحد فيها لتبدأ مرحلة تقييم هذه الزعامة التي فرضت عليهم: **{وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}**.

والإيمان بأن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء هو الأساس النفسي الذي تتحقق به المعالجة.. وهذا الترتيب له تفسيره:

فالأمر الأول هو فرض الزعامة الذي سينهي الطمع فيها..

لتنتقل النفس بعد اليأس منها إلى تقييم من استحقها دونهم..

فيأتي الأمر الثاني وهي بالإمكانيات واقع ثابت في الزعيم المختار يصعب على الإنسان ادعائه لنفسه، ليأتي الاختصاص الذي لا حيلة لأحد فيه: وهو المشيئة الإلهية..

واعتبار الكفاءة في اختيار الزعامة يعني أن القدرة على تحقيق الهدف الإسلامي هو المعيار الأساسي للاختيار، وأن المقارنة بين أصحاب الفكر النظري وأصحاب القدرة على تحقيق الهدف الإسلامي الصحيح عمليًا يجب أن تكون لصالح أصحاب هذه القدرة العملية.

وكل ما سبق قد لا يكفي النفس للتسليم بالزعامة، فيدخل إلى النفس أن كل هذه الاختصاصات غير كافية إذا كان الأمر متعلقا بمصير الأمة..

فترغب النفس بعد ذلك إلى الاطمئنان إلى صواب الزعامة وإمكانية تحقيق النصر بها، فتنتقل الآيات لمتابعة المشكلة: **{وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}**

التابوت حقيقة محسوسة ملموسة للاطمئنان..

والتابوت نفسه جعل الله فيه السكينة..

وكان التابوت كافيًا.. ولكن طالوت أتي بالتابوت **{وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ}** ليكون الارتباط القدري الشخصي بين نبي الأمة ونصرها هو ما تعنيه البقية..

ويبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة هذا الارتباط باعتبار أن امتداد صلة الأمة بالنبي هي أساس الفتح فيقول: «**يأتي على الناس زمان يغزون، فيقال: فيكم من صحب رسول الله** صلى الله عليه وسلم؟ **فيقولون: نعم، فيفتح عليهم، ثم يغزون فيقال لهم: هل فيكم من صحب رسول الله** صلى الله عليه وسلم؟ **فيقولون: نعم، فيفتح لهم**» البخاري في صحيحه.

وفي رواية أبي داود: عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**يأتي على الناس زمان – فيغزو فئام من الناس. فيقال لهم: هل فيكم من رأى رسول الله** صلى الله عليه وسلم؟ **فيقولون: نعم، فيفتح لهم. ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صحب رسول الله** صلى الله عليه وسلم؟ **فيقولون: نعم فيفتح لهم. ثم يغزو فئام من**

الناس، فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صحب من صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم **ويقولون: نعم فيفتح لهم**».

ولعلنا نلاحظ عبارة هل فيكم من رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تدل على أن رؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت أساسًا للفتح، ومن هنا قدم البخاري من خلال أبواب كتاب الجهاد صورة وصفية لكل تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وكأننا نراه ليقترب المسلمون من رؤية الرسول ليتحقق في المسلمين أمرًا يعينهم على فتح الله لهم.

وإن كانت البقية التي تركها آل موسى وآل هارون هي التابوت فيه السكينة من الله.. فإن ما تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم هو كتاب الله وسنته: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي**».

{فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالجُنُودِ}.. لم يكن هناك فارق زمني بين اختيار طالوت زعيمًا وبين فصله بالجنود، ولذلك لم تذكر الآية إعلان اتفاق الأتباع على زعامة طالوت، بل جاء مباشرة الفصل بالجنود -الخروج بهم إلى القتال- فإن أخطر ما يواجه الزعامة أن يعيش الأتباع في فراغ من العمل ولو لوقت ضئيل..!

وأخطر مشاكل الدعوة هي جمع الأتباع دون وجود الخطط المتفق عليها للعمل، ولابد من تطور العمل لأن الأتباع لا يقنعون إلا بالعمل، ولا يقتنعون بعد العمل إلا بعمل أقوى منه: **{فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي}**

فالابتلاء بالنهر جاء بعد الفصل بالجنود، وهنا يتبين الفهم الصحيح لمرحلة التربية.. أن تكون من خلال الواقع، وفي إطار المواجهة والواقع القتالي، وفي هذا الواقع يكون البلاء..

وتأتي حقيقة التوازن بين الصبر على البلاء.. والثبات على الحق والطاعة.. من ناحية، واعتبار الطبيعة البشرية.. من ناحية أخرى!

فكان مقتضي الصبر على الطاعة هو: **{فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي}**

وكان اعتبار الطبيعة هو **{إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ}**

فيدخل في تحقيق التوازن في التربية: العدل بين الأتباع..

لأن الاحتياج إلى الماء سيكون بقدر حجم الجسم، ومعيار حجم الجسم هو حجم اليد، ولذلك كان الأمر بالشرب بغرفة اليد، وهو ما جاء في نص الأمر: **{إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ}**..

ولما كان البلاء هنا هو اختبار الاستعداد للموت.. كانت طبيعة البلاء من جنس طبيعة الهدف منه، فكان الامتناع عن شرب الماء وهو سبب الحياة.. اختبار في القدرة على التضحية بهذه الحياة: **{فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ}**..

وفي ذلك يقول سيد قطب:

«شربوا وارتووا. فقد كان أباح لهم أن يغترف منهم من يريد غرفة بيده, تبل الظمأ ولكنها لا تشي بالرغبة في التخلف! وانفصلوا عنه بمجرد استسلامهم ونكوصهم. انفصلوا عنه لأنهم لا يصلحون للمهمة الملقاة على عاتقه وعاتقهم. وكان من الخير ومن الحزم أن ينفصلوا عن الجيش الزاحف , لأنهم بذرة ضعف وخذلان وهزيمة. والجيوش ليست بالعدد الضخم , ولكن بالقلب الصامد , والإرادة الجازمة , والإيمان الثابت المستقيم على

الطريق»[1].

{فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ}..

وهذه الآية تناقش أخطر قضايا فقه الدعوة: فالذين آمنوا هنا لا تعني كفر من عصي وشرب، لكنها تعني إيمان من أطاع! وهذا هو حد الارتباط بين مصطلح الإيمان وعلاقته بالواقع العملي للدعوة والسمع والطاعة فيها.. أن تكون الطاعة إيمانا دون التكفير بالمعصية، إلا أن تكون المعصية نفسها كفرًا.

ورغم الطاعة.. قد يكون الضعف، فالطاعة والإيمان يكون معهما معالجة الطبيعة البشرية الضعيفة: **{قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا اليَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ}**.

والمتكلمون هنا هم الذين آمنوا وجاوزوا النهر والابتلاء به، الذين ثبت استعدادهم للموت.. لم يصطدموا بالحرص على الحياة.. ولكنهم اصطدموا بواقع المواجهة الصعب!

نحن مستعدون للموت.. ولكننا قلة!

وتجاوز هذه الظروف يتطلب مستوى أعلى من تجاوز الابتلاء بالنهر، وهنا يظهر أهل النصر عندما يرتفعون بإيمانهم فوق الظروف.. مستوى اليقين بلقاء الله الذي تعرج به النفس فوق مستوى الواقع: **{قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}** [البقرة: 249].

لم يصل إلى مرحلة القدرة على القتال إلا من تجاوز مشكلة الزعامة.. ثم بلاء النهر.. ثم بلاء الصدام ولقاء العدو!

---

(1) في ظلال القرآن.

وذلك بالتجرد من حب الإمارة، وهو أشد حظوظ النفس..

والتحكم في الرغبة النفسية الطبيعية في الحياة.. وهي أشد رغبات النفس..

والإقبال على الموت.. وهو أشد مكروه إلى النفس..

ليتحقق اليقين في لقاء الله!

وبعد إنشاء الواقع العملي بأبعاده الكاملة.. تنشأ معايير الاختيار الشرعية والعملية بصورة طبيعية، والمثال عليها اختيار داود عليه السلام، وذلك أن داود كان فردا ضمن الذين كانوا مع طالوت، وكان له دور متقدم بين الصفوة.. مَكَّنَهُ من أن يقتل جالوت، فتميز داود بصورة لم تجعل له قرينًا فكان هو الملك بعد طالوت بصورة تلقائية: **{وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ المُلْكَ وَالحِكْمَةَ}**.

وقتل داود لجالوت هو اختصار لمعنى التجربة كله، وهذا الاختصار.. مثالٌ منهجيٌ لحقيقة الصراع كما أراده الله..

فقتل داود الفتى الصغير لجالوت ملك العماليق يدل على قدرة الله المطلقة، ولذلك يقول سيد قطب: «وداود كان فتى صغيرا من بني إسرائيل. وجالوت كان ملكا قويا وقائدا مخوفا.. ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بظواهرها, إنما تجري بحقائقها. وحقائقها يعلمها هو. ومقاديرها في يده وحده. فليس عليهم إلا أن ينهضوا هم بواجبهم, ويفوا الله بعهدهم. ثم يكون ما يريده الله بالشكل الذي يريده. وقد أراد أن يجعل مصرع هذا الجبار الغشوم على يد هذا الفتى الصغير , ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف.. يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم.. وكانت هنالك حكمة أخرى مغيبة يريدها الله؛ فلقد قدر أن يكون داود هو الذي يتسلم الملك بعد طالوت, ويرثه ابنه سليمان , فيكون عهده هو العهد الذهبي لبني إسرائيل في تاريخهم الطويل، جزاء

انتفاضة العقيدة في نفوسهم بعد الضلال والانتكاس والشرود.

{وَآتَاهُ اللهُ المُلْكَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}..

ونمضي مع القصة.. فإذًا الفئة القليلة الواثقة بلقاء الله, التي تستمد صبرها كله من اليقين بهذا اللقاء, وتستمد قوتها كلها من إذن الله, وتستمد يقينها كله من الثقة في الله, وأنه مع الصابرين.. إذًا هذه الفئة القليلة الواثقة الصابرة , الثابتة , التي لم تزلزلها كثرة العدو وقوته , مع ضعفها وقلتها.. إذًا هذه الفئة هي التي تقرر مصير المعركة. بعد أن تجدد عهدها مع الله, وتتجه بقلوبها إليه, وتطلب النصر منه وحده , وهي تواجه الهول الرهيب: **{وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ المُلْكَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}..**

هكذا.. **{رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا}**.. وهو تعبير يصور مشهد الصبر فيضًا من الله يفرغه عليهم فيغمرهم , وينسكب عليهم سكينة وطمأنينة واحتمالا للهول والمشقة. **{وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا}** فهي في يده – سبحانه – يثبتها فلا تتزحزح ولا تتزلزل ولا تميد **{وَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ}**.. فقد وضح الموقف.. إيمان تجاه كفر. وحق إزاء باطل. ودعوة إلى الله لينصر أولياءه المؤمنين على أعدائه الكافرين. فلا تلجلج في الضمير , ولا غبش في التصور , ولا شك في سلامة القصد ووضوح الطريق.

وكانت النتيجة هي التي ترقبوها واستيقنوها: **{فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ}**.. ويؤكد النص هذه الحقيقة: **{بِإِذْنِ اللهِ}**.. ليعلمها المؤمنون أو ليزدادوا بها علما. وليتضح التصور الكامل لحقيقة ما يجري في هذا الكون , ولطبيعة القوة التي تجريه.. إن المؤمنين ستار القدرة ; يفعل الله بهم ما يريد , وينفذ بهم ما يختار.. بإذنه.. ليس لهم من الأمر شيء , ولا حول لهم ولا قوة , ولكن الله يختارهم لتنفيذ مشيئته , فيكون منهم ما يريده بإذنه.. وهي حقيقة خليقة

بأن تملأ قلب المؤمن بالسلام والطمأنينة واليقين.. إنه عبد الله. اختاره الله»[1].

أما العبرة الكلية للقصة ففيها يقول سيد قطب:

«العبرة الكلية التي تبرز من القصة كلها هي أن هذه الانتفاضة – انتفاضة العقيدة – على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقعة من نقص وضعف, ومن تخلِّي القوم عنها فوجًا بعد فوج في مراحل الطريق – على الرغم من هذا كله.. فإن ثبات حفنة قليلة من المؤمنين عليها قد حقق لبني إسرائيل نتائج ضخمة جدا.. فقد كان فيها النصر والعز والتمكين, بعد الهزيمة المنكرة, والمهانة الفاضحة, والتشريد الطويل، والذل تحت أقدام المتسلطين».

إنسانية الممارسة السياسية:

وتعني ما يتعلق بالجانب الإنساني في الممارسة السياسية، وتتلخص في:

الوطنية:

والمفهوم الوطني في التصور السياسي الإسلامي يتحدد في عدة عناصر:

– **العنصر الأول**: الإقرار بالإحساس الطبيعي للإنسان تجاه الوطن الذي نشأ فيه، وهو ما عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم عندما هاجر من مكة؛ فقال مخاطبًا لها: «**ما أطيبك من بلد وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك**»[2].

---

(1) في ظلال القرآن.

(2) سنن الترمذي (723/5).

ففي هذا الحديث كان الخطاب من الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مكة، ومعنى ذلك شدة العاطفة نحوها، وفيه الإقرار بأنها أطيب البلاد، حتى لا يفهم الخروج منها بأنه تحول عنها، ولكنه كان تصرفا اضطراريًّا..

- **العنصر الثاني**: أن حب الوطن هو السعي لمصلحته، وأن تكون كلمة الله هي العليا فيه، وهذه هي مصلحته العليا..

وهذه المصلحة العليا لا تقف عند حد النجاة من النار في الآخرة، بل تتضمن الرخاء في الدنيا والرغد في العيش:

{فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا} [نوح: 10-12].

{فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ} [قريش: 3، 4]، ومن هنا كانت أولوية العشيرة في الدعوة إلى دين الله، وهو الأمر الوارد في قول الله عز وجل **{وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}** [الشعراء: 214].

- **العنصر الثالث**: وفي حالة إعراض القوم والعشيرة يجب بذل أكبر جهد في معالجة هذا الإعراض، وهو ما تعلمناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال بكل قوة عاطفته موجهًا قريش إلى ما فيه مصلحتها:

«**يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ، لَقَدْ أَكَلَتْهُمُ الحَرْبُ، مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَانَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الإِسْلَامِ وَهُمْ وَافِرُونَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا، قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ**».. أي قاتلوه هو!

ومع كل هذه الرحمة والشفقة فإنه يقول بعد ذلك:

«فماذا تظن قريش؟! والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهره الله له أو تنفرد هذه السالفة»[1].

وهذا الحديث يتضمن الحد الفاصل بين العاطفة نحو القوم والوطن، ومقتضات

(1) أخرجه أحمد في المسند (18930) وأبو داود، وحسنه الشيخ أحمد شاكر، وصححه الألباني.

(2) وفي هذا السياق يجب مناقشة مفهوم القومية؛ ذلك أن ارتباط الإسلام بالعرق العربي أوجد خلطًا في المفاهيم، حتى تحول مفهوم القومية العربية إلى الحالة التي كان عليها الأمر قبل الإسلام من التعاكس والتقابل مع الدعوة. يراجع خط الصد عن سبيل الله في السياسة الشيطانية، الباب الثالث، الفصل الأول.

الفصل الرابع

الجانب الرابع من جوانب النظرية

«الغاية»

أهداف العمل السياسي

وجانب الغاية في التصور السياسي له معنى جوهري وهو الهداية؛ لأن الهداية هي غاية الدعوة وحكمتها.

وباعتبار أن السلطة هي الوسيلة الأساسية لتحقيق الهداية «**إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن**»[1].

وباعتبار أن للسلطة حدًّا نهائيًّا.. وهو الخلافة، أصبحت الخلافة هي الصيغة السياسية لغاية الهداية.

ولكن إقامة السلطة –ابتدًاء– والخلافة –كحد نهائي لها– تقتضي القوة.. والقوة غايتها الشهادة.. والشهادة غايتها الجنة، لتكون الشهادة والجنة غاية نهائية على المستوى الفردي لأصحاب الدعوة.

وبذلك يتحدد مجموع الغايات بصورة مرتبة:

الهداية: كغاية نهائية للدعوة.

الدولة والخلافة: كصيغة سياسية لتلك الغاية.

---

(1) أورده ابن كثير في تفسيره (109/5 – ط. كتاب الشعب).

الشهادة والجنة: كمقتضى لتحقيق تلك الصيغة. وهذه الحقائق الثلاث هي التي تمثل في التصور السياسي جانب الغاية.

أولًا: الهداية:

وبحسب ترتيب حقائق الغاية في التصور السياسي أصبحت غاية الهداية هي الهدف الذي ترتبط به كل الأساليب.

وهذا الارتباط حقيقة بارزة في التصور الإسلامي العام؛ حيث إن الغاية والأسلوب ليس بينهما في التصور الإسلامي أي تناقض، ومن هنا أصبحت غاية الهداية هي المحصلة النهائية لكل أبعاد التصور السياسي.

فالهداية هي محصلة البعد العسكري بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**»[1] وقوله: «**عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل**»[2].

وكذلك نجد في تعبير النبي صلى الله عليه وسلم حرصًا على ألا يطغى الأمر بالقتال على غاية الهداية تحقيقًا للإحكام بين المفاهيم، مثال قوله صلى الله عليه وسلم:

«**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله**» ثم قرأ: **{فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ}** [الغاشية: 21، 22] وذلك حتى لا تطغى مهمة القتال على مهمة التذكير في فهم الناس.

---

(1) أخرجه البخاري (1096/3، 2847)، ومسلم (1872/4، 2406) عن سلمة بن الأكوع.

(2) أخرجه البخارى (1096/3، رقم 2848)، وأحمد في المسند (406/2)، وأبو داود (2677).

ويشكو صحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لا يثبت على الخيل، فيدعو له النبي: «**اللهُمَّ ثَبِّتْهُ.. وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا**»[1].

واعتبار القوة وسيلة هداية يرجع إلى كونها أساسًا لقيام السلطة الإسلامية التي تعتبر بدورها أساسًا في تحقيق الهداية.

ودليل العلاقة بين القوة والسلطة والهداية هو قول الله عز وجل: **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}** [النصر: 1-3].

ولذلك يجب أن يكون خط القتال مشدودًا إلى موقع السلطة، لتحقيق العلاقة التي أثبتها القرآن بين النصر والفتح؛ باعتبار أن النصر هو النتيجة العسكرية للقتال، وأن الفتح هو النتيجة السياسية للنصر، ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر بعد القتال أيامًا في موقع القتال يقيم الأحكام، لتصبح دار الحرب دارًا للإسلام، ويتحقق الفتح بعد النصر، مثلما انتظر الرسول في مكة بعد الفتح.

وإثبات القرآن للعلاقة بين القتال والسلطة هو الذي يرد أي تصور لقيام السلطة بغير القتال؛ ذلك لأن السلطة الإسلامية هي التي يتحقق بها الإظهار لدين الحق ولو كره الكافرون، ولن يكون ذلك إلا بالقوة، كما أن السلطة الإسلامية هي التي يأمن تحتها المسلم على ماله ودينه وعرضه، ولن يكون ذلك أيضًا إلا بالقوة.

والهداية هي محصلة البعد الاقتصادي بدليل قول الله: **{إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالمَسَاكِينِ وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}** [التوبة: 60].

---

(1) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب: من لا يثبت على الخيل، (162/56).

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إني أعطي الرجل وغيره أحب إلي منه، مخافة أن يكبه الله في النار**»[1].

والهداية هي محصلة البعد الجماهيري[2]..

وفي تحديد معنى الغاية في التصور السياسي عدة حقائق أساسية:

– **ارتباط كل مراحل الدعوة وأساليبها بالغاية النهائية للدعوة**: وهذا الارتباط هو الذي يحمي الغاية من أن تتحول إلى شعار أو ادعاء ليس له وجود في الواقع.. **مما** يقتضي ارتباط كل مراحل الدعوة وأساليبها بغاية الدعوة.

– **العلاقة بين الكيانات المتعددة في الواقع الواحد**: وهي نقطة الضوء المكثفة حول حقيقة الغاية في التصور السياسي وهي حق هذه الغاية على مستوى كيانات الحركة المتعددة التي تتبنى جميعها الهداية كغاية واحدة لتلك الكيانات.

فيجب أن يكون لهذه الغاية الواحدة –وهي الخلافة– حق مفروض على طبيعة العلاقة بين الكيانات المتعددة الهادفة إلى هذه الغاية الواحدة.

وأهم القواعد في هذا الحق هي أنه: «**لا صراع مع مسلم**».

ثانيًا: الخلافة.. الصيغة السياسية لحركة الهداية:

(أ) دولة الدعوة:

والسعي للخلافة كصيغة سياسية للغاية يبدأ بإقامة الدولة المرتبطة بالهداية.

---

(1) روى البخاري وأحمد حديثًا بمعناه عن عمرو بن تغلب (288/6/ح 3145)، والمسند (69/5).

(2) كما سيتضح – إن شاء الله – في باب أبعاد التصور السياسي.

فالدولة الإسلامية أساس قيامها: الدعوة ونشر العقيدة، والدعوة الإسلامية محورها ووظيفتها: تحقيق القناعة بحقيقة الدين.

وواجب الرسول صلى الله عليه وسلم هو الدعوة: **{ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}** [النحل: 125]..

هذه الطبيعة المتميزة لابد وأن تكوّن بخصائصها جميع عناصر ومتغيرات النموذج السياسي الإسلامي..

فالدولة وظيفتها الدفاع عن العقيدة..

وأساس شرعية السلطة ومحور وسبب وجودها هو نشر الدعوة فيها..

والدعوة والسلطة يتفاعلان كحقيقة ديناميكية واحدة..

ورغم أن المحور الأساسي وجوهر هذا التفاعل هو الدين، إلا أن السلطة هي التي تأتي فتخلق ذلك الإطار الذي يتيح للفرد أن يحقق ذاته من خلال الاستجابة إلى قواعد الممارسة الدينية..

وهكذا فإن شرعية السلطة هي الدين.. وأداة الدين هي السلطة.

إن واجب الدولة هو أن تدعو إلى كلمة الحق، وأن تدعو من خلال الإقناع، والاقتناع بهذا المفهوم لا بد أن يتحول إلى قواعد للممارسة في كل ما له صلة بنظرية التعامل السياسي في الحضارة الإسلامية.

وكذلك فإن البيعة كعقد سياسي مصدر للسلطة يتمركز حول عنصر أساسي هو وحده محور شرعيتها، وهو مضمون الممارسة للسلطة..

«**وخصائص العلاقة السياسية في النموذج الإسلامي هي: أنها علاقة مباشرة لا تعرف الوسيط**: فالعلاقة بين الحاكم والمحكوم هي علاقة بين اثنين يقف كل منهما من الآخر موقف مساواة، لا يفصل بينهما أية عقبات اجتماعية أو نظامية.

– **أنها علاقة تابعة**: تنبع من مفهوم العلاقة الدينية وتتحدد بها، حيث إن علاقة الإنسان المسلم بالكتاب الكريم هي التي تحدد خصائص العلاقة السياسية.

– **أنها علاقة كفاحية**: حيث إن مفهوم الدعوة ونشر تعاليم الإسلام الذي ينبع من طبيعة العلاقة الدينية يفرض على الفرد المسلم الدفاع عن المثالية الحركية، وبجميع الأدوات والوسائل.

– **أنها علاقة مطلقة**: لا تعرف التمييز والتنوع، والمقصود بالتنوع هنا التنوع الطبقي، أي التدرج التصاعدي، وبالتالي فالتمييز بين الحاكم والمحكوم هو تمييز وظيفي لا ينبع من متغير الانتماء ولا من متغير الاستمرارية الوراثية.

– **أنها علاقة تتسم بالبساطة**: فهي لم تعرف التجريد المثالي الذي عرفته الحضارة اليونانية، والتركيب النظامي الذي عرفته الحضارتان الرومانية والكاثوليكية، ولا الاستيعاب المطلق الذي عرفه نموذج الدولة القومية.

وبالتالي فإن النموذج الإسلامي يعبر عن مذاق خاص يجمع بين الفكر والحركة، ويخلق توازنًا معينًا بين الحاكم والمحكوم، ولا ينسى أن السيادة هي وليدة القوة، وأن القوة هي وحدها التي تحمي الشرعية»[1].

والدولة هي مقتضى التوحيد؛ لأن الدولة هي الحُكم، والحكم هو مقتضى التوحيد:

---

(1) بتصرف من تعليق الدكتور حامد ربيع –رحمه الله– على «سلوك المالك في تدبير الممالك».

{مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الحُكْمُ إِلَّا للهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: 40].

والدولة هي التمكين للدين في الأرض: **{وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ}** [النور: 55].. والدولة هي الأداة الأساسية لإقامة الدين:

{الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ} [الحج: 41].

وهذا النص القرآني يتضمن أهم أصول التصور السياسي وهو الارتباط المنهجي بين العبادة والسياسة.

لقد كانت بيعة العقبة الأولى هي أول مرحلة فعلية لإقامة الدولة.. وكان مضمونها: «**حتى أُبَلِّغَ دعوة ربي**»[1].. فالدولة هي الوسيلة الأساسية للدعوة.

ومن قول الله تعالى: **{وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا}** [القصص: 5] ندرك أن هدف الدولة.. هو رفع الاستضعاف عن المسلمين.

وفي قوله سبحانه: **{حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ}** [البقرة: 193] ندرك أن الدولة لرفع الفتنة عن الناس؛ **{وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ للهِ}**.

ولذلك جاء تعريف وظيفة الدولة في التصور السياسي بأنها: مجموع الأهداف التي يجب

---

(1) أخرجه أحمد والبيهقي في الدلائل وفي السنن، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي والهيثمي.

أن تسعى الإرادة السياسية إلى تحقيقها من خلال الأداة النظامية[1].

إن الدولة عندما تكون للدعوة.. فإن هذا معناه أن يكون الحاكم ونظام الحكم والمحكومين به.. أداة للدعوة.

بل تكون الدعوة قضية كل إنسان وحياة كل نسمة في دولة الدعوة.

بل بلغ الأمر أن تكون الدعوة قضية الهدهد في دولة سليمان نبي الله:

فيعرف الشرك: **{وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ}** [النمل: 24] ويعرِّف التوحيد: **{أَلَّا يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** ويعرِّف سبب الشرك: **{وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ}** ويعرِّف السبيل: **{فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ}**.

يتأخر وهو مطمئن؛ لأن معه نبأ عظيم.. نبأ فوق النظام.. نبأ من أجله كان النظام.. يتأخر ومعه عذره؛ لأن معه قضية الدعوة وهي قضية الحاكم وقضية الدولة وقضية الأمة..

هدهد يعرف أن الدعوة لأهل الأرض جميعهم؛ فيجب ألا يكون شرك في أي مكان، ففي سبأ شرك يجب القضاء عليه.. حتى لو لم تكن سبأ في ملك سليمان.

ودون أن يكون من رجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. ودون أن يكون من رجال الحسبة.. ودون أن يكون مكلفًا.. أو موظفًا.

فالدعوة هي الضمير.. وهي الوعي والذات.. وهي الهوية.

---

(1) أما الماوردي فيقول القول الأخير في مسألة الوظيفة الأساسية للدولة: وظيفة الدولة هي الدفاع عن العقيدة، وهو محور الحركة السياسية للدولة والمبرر لوجودها المسيطر على أهدافها.

ولذلك يقول الإمام ابن القيم في شفاء العليل: «ولما كان الهدهد داعيًا إلى الخير وعبادة الله وحده والسجود له.. جاء النهي عن قتله..».

لقد كانت دعوة الهدهد ولاءً للدولة الإسلامية، فكان لا بد أن يكون على الدولة الإسلامية واجب حمايته بعد أن أعطاها ولاءه، فجاء نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتله ومعه النملة والنحلة[1]. من أجل ذلك يجب أن تكون خطوط الحركة مشدودة إلى هدف إقامة الدولة.

وهذه الخطوط هي أخطر خطوط التصور السياسي للحركة الإسلامية:

الخط الأول: هو أن يكون لقيام الدولة الاعتبار الأول في منهج الحركة وبحسب مقتضيات الواقع وطبيعة الظروف وبكل الإمكانات.

ولكن.. هذا الاعتبار لا يوقف كل كيان الحركة على هذا الهدف؛ إذ إن هناك أهدافًا موازية، ضرورية في ذاتها بصفة شرعية، ومؤدية إلى هذا الهدف الأساسي بصفة حركية..

وأهم هذه الأهداف:

- رفع الالتباس عن الناس واستفاضة البلاغ -وهو هدف شرعي.

ولكنه -في نفس الوقت بالصفة الحركية- يعني تكوين القاعدة المؤيدة للدولة الإسلامية ونظام الحكم الإسلامي عندما يقوم.

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -وهو هدف شرعي-، ولكنه -في نفس الوقت بالصفة الحركية- يعني تهيئة الواقع الاجتماعي للإذعان لحكم الله.

---

(1) أخرجه أحمد في المسند (332/1)، وأبو داود (5267)، وابن ماجه (3224)، جميعًا عن ابن عباس: «نهى عن قتل أربع من الدواب: النملة والنحلة والهدهد والصرد». وصححه الألباني في الإرواء (2490).

– جمع الإمكانات لإقامة الدولة –وهو من إعداد القوة بالصفة الشرعية–، ولكنه – في نفس الوقت بالصفة الحركية– يمثل الحماية التي تحمي الدولة من العجز الإداري والفني عند إقامة السلطة.

والشرط الأساسي في ممارسة تحقيق هذه الأهداف الموازية لهدف إقامة السلطة:

- هو ألا يطغى هدف بعينه على بقية الأهداف الموازية..
- وألا يطغى مجموع الأهداف الموازية على هدف إقامة السلطة، والإعداد لها بالصورة الحركية المباشرة.. لأن هذا الهدف له الاعتبار الأول في الدعوة..

الخط الثاني: هو أن يكون للمستضعفين في زمن الحركة الولاية في نظام الدولة[1].. وذلك لأن الدولة والسلطة فتنة، فلا يجب أن يتعرض لها إلا من لا تضره بإذن الله..

والمستضعفون هم الذين عرضت على قلوبهم الفتن كالحصير عودًا عودًا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث[2].

فالمستضعفون هم الذين لا تضرهم الدنيا والسلطان بعد أن مروا بمرحلة الاستضعاف.. فتوليتهم حرز من فتنة السلطة، وهم –بقلوبهم البيضاء– خير من يحفظ أمانة السلطة.

من ناحية أخرى.. فإن تولية المستضعفين مسألة عدل.. ويدل على ذلك خطبة عمر

---

(1) إذا كانت الأحكام الشرعية تحمي الهدهد الذي كان له الولاء المطلق للدعوة، فكيف بمن كان له هذا الولاء من المسلمين؟!.

(2) عن حذيفة بن اليمان: «**تُعْرَضُ الفِتَنُ عَلَى القُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَتْ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى يَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**» أخرجه مسلم (128/1، 144).

بن الخطاب التي رواها ابن عمر: خطب عمر بن الخطاب بالجابية فقال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامي فيكم فقال:

«استوصوا بأصحابي خيرًا، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»[1].

كما قال عمر أيضًا في موضع آخر: إن الله عز وجل جعلني خازنًا لهذا المال وقاسمه له، ثم قال: بل الله يقسمه وأنا بادئ بأهل النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أشرفهم، نفرض لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم عشرة آلاف إلا جويرية وصفية وميمونة، فقالت عائشة: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعدل بيننا، فعدل بينهن عمر، ثم قال: إني بادئ بأصحابي المهاجرين الأولين فإنا أخرجنا من ديارنا ظلمًا وعدوانًا، ثم أشرفهم.

ففرض لأصحاب بدر منهم خمسة آلاف، ولمن شهد بدرًا من الأنصار أربعة آلاف، ولمن شهد أُحدًا ثلاثة آلاف، قال: ومن أسرع في الهجرة أسرع به العطاء، ومن أبطأ في الهجرة أبطأ به العطاء؛ فلا يلومن رجلٌ إلا مناخ راحلته[2].

وهذه خطبة عتبة بن غزوان التي تمثل الوثيقة السياسية التي يتأكد منها منهج الدعوة في الانتقال من مرحلة الحركة إلى مرحلة الدولة.

عن خالد بن عُمَيْر العَدَوِيِّ، قَالَ: «خَطَبَنَا عُتْبَةُ بنُ غَزْوَانَ، وَكَانَ أمِيرًا عَلَى البَصْرَةِ، فَحَمِدَ الله وَأثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصُرْمٍ، وَوَلَّتْ حَذَّاءَ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا، وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لاَ زَوَالَ لَهَا، فَانْتَقِلُوا بِخَيرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ، فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أنَّ الحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا، لاَ يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا، وَاللهِ لَتُمْلأَنَّ.. أَفَعَجِبْتُمْ؟! وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أنَّ

---

(1) رواه أحمد في المسند (18/1) عن عمر بن الخطاب، وابن حبان في صحيحه (239/16/ح 7254).

(2) رواه أحمد في المسند (475/3) عن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة.

مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ مَسيرَةُ أرْبَعِينَ عَامًا، وَليَأتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابعَ سَبْعَةٍ مَعَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، مَا لَنَا طَعَامٌ إلاَّ وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرِحَتْ أشْدَاقُنَا، فَالتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا، وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا، فَمَا أصْبَحَ اليَوْمَ مِنَّا أحَدٌ إلاَّ أَصْبَحَ أمِيرًا عَلَى مِصرٍ مِنَ الأَمْصَارِ، وَإنِّي أعُوذُ بِاللهِ أنْ أكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا، وَعِنْدَ اللهِ صَغِيرًا، وإنَّه لم تكن نُبُوَّة قَطُّ إلا تَنَاسَخَت حتى تكونَ عاقِبَتُها مُلْكًا، وسَتَخْبُرُون وتُجَرِّبُون الأمراءَ بعدَنا»[1].

ومن تحليل الوثيقة يتبين: كيف أن الولاية لم تؤثر في إيمان الولاة وارتباطهم بالآخرة واحتقارهم لشأن الدنيا، وكيف أن الولاية لم تنسَ الولاء فترة الاستضعاف، وأنها لا زالت هي الفترة التي تملأ عقله ووجدانه ولم تزحزحها عن ضميره ممارسة الحكم.

وكيف أن الولاية لم تصبه بأمراضها، فنراه يستعيذ بالله أن يكون في نفسه عظيمًا وعند الله صغيرًا، وكيف أن الولاية مرحلة ستمر ولن تبقى لهم وأنه سيأتي ولاة آخرون محددو الصفات والمعالم.

وهذه وثيقة أخرى تتضمن نفس القاعدة وهي وثيقة تعيين أول سفراء بعد إقامة الدولة الإسلامية..

وهذا بيان بأسماء المعينين وصفات كل منهم:

حاطب بن أبي بلتعة: سفير إلى مصر أرسل إلى المقوقس، وهو بدري شهد الحديبية[2].

دحية بن خليفة الكلبي: سفير إلى الروم أرسل لهرقل، وهو قديم شهد المشاهد[1].

---

(1) أخرجه مسلم في الزهد (2278/4، 2967)، وأحمد في المسند (174/4) عن خالد بن عمير.

(2) انظر: الإصابة (314/1).

سليط بن عمرو العامري: سفير اليمامة أرسل إلى هوذة بن علي وهو بدري له قدم في الإسلام[2].

شجاع بن وهب الأسدي: سفير إلى دمشق أرسل إلى الحرث بن أبي شمر، من السابقين هاجر للحبشة[3].

عبد الله بن حذافة السهمي: سفير إلى فارس أرسل إلى أبرويز بن هرمز، مجاب الدعوة من سادة الصحابة[4].

عمرو بن أمية: سفير إلى الحبشة أرسل إلى الأصم بن أبجر النجاشي، أسلم يوم أحد[5].

عمرو بن العاص: سفير إلى عمان، أسلم قبل الفتح[6].

وعندما نقدم هذا النموذج التاريخي لدولة الدعوة، نقدم معه هذه الحقيقة:

إن حقيقة دولة الدعوة لا تتجلى إلا في التجربة الإسلامية؛ لأن دار الإسلام هي الدار التي تعلوها أحكام الإسلام، وعندما لا تعلوها أحكام الإسلام لا تكون إسلامية، وتصير خارج نطاق التجربة.

والإسلام يرفض إثبات اسم دار الإسلام لدولة لا تعلوها أحكام الإسلام، ويعلن

---

(1) انظر: الإصابة (463/1).

(2) انظر: الإصابة (70/2).

(3) انظر: ترجمته في الإصابة (137/2)، والاستيعاب في الإصابة (157/2).

(4) انظر: ترجمته في الإصابة (287/2/ت 4622)، والاستيعاب في الإصابة (274/2).

(5) انظر: الإصابة (157/2/ت 5768).

(6) انظر: ترجمته في الإصابة (2/3/ت 5884)، والاستيعاب في الإصابة (501/2).

الفقه الإسلامي أن الدولة التي لا تعلوها هذه الأحكام ليست محسوبة على الإسلام.

وفي كل مراحل الدولة المسلمة.. كان شرط الدعوة قائمًا، ابتدًاء من الخلافة الراشدة حتى الملك العضوض.. كانت الدعوة.

أما التجارب التاريخية للأمم السابقة في العلاقة بين الدولة والدعوة فإنها تسمح بمتناقضات غاية في الخطورة، فالحضارة اليونانية والرومانية والفارسية.. لم يكن لها اهتمام بالدين. وحتى الحضارة الكاثوليكية التي قامت على حقيقة التعصب الاستفزازي للمسيحية.. كان هذا التعصب فارغًا من مضمون الدعوة.

حيث كانت صيغة هذا التعصب هي المزايدة بين الأمراء والاتهامات بالهرطقة والسيطرة المقيتة لرجال الدين.. كانت هوسًا فارغًا من مضمون الدعوة. حتى مثال الدولة اليهودية كرمز للربط بين الدولة والدين يثبت ويؤكد أن دولة الدعوة ليست إلا الإسلام؛ لأن اليهود ليست لهم أية صلة باليهودية.

ومن هنا استحقت الدعوة الإسلامية -دون غيرها- أن تكون المقيمة لدولة الحق، واستحقت الخلافة الإسلامية أن تكون المقيمة لحضارة الحق.

(ب) المضمون الحضاري لدولة الدعوة «الحق»:

فلكل حضارة مضمون.. والحركة صانعة الحضارة.. والحق هو مضمون الحركة الإسلامية وحضارتها، ومن هنا يتحدد مقتضى الحق كمضمون للحضارة الإسلامية الذي تنشأ عنه خصائصها المستمدة من حركتها من البداية؛ لتكون هذه الخصائص:

- **العدل**: متمثلًا في الوحدة في معايير السلوك، والوحدة في معايير التعامل.. **{كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ}** [النساء:135]، **{كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ}** [المائدة: 8].

– **العالمية:** فإن الحق الذي تتبناه الحضارة يجب أن يستوعب الواقع البشري جميعًا..

– **البقاء:** فإن مقتضى الحق الاستمرارية.. «**لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ**»..

– **القوة:** فالحق مقتضاه من حيث التعامل السيطرة والظهور..

{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ} [الصف:9]، من أجل ذلك تصبح القوة التي تفرض بها هذه السيطرة هي أهم مقتضيات الحق باعتبارها أداة تحقيق كل المقتضيات.

(ج) الصيغة السياسية للمضمون الحضاري:

إن قضية الخلافة هي القضية الإنسانية الأولى لأنها ضبط للوجود الإنساني وفقًا لشرع الله سبحانه.

فإننا إذ نحكم قومًا معينين في مكان معين بحكم الإسلام.. فإن ذلك قد يكون سهلًا إذا كان هؤلاء الناس يؤمنون بذلك ويرغبون فيه.

أما إقامة الخلافة التي تعني جمع كل البشر تحت نظام واحد.. فهو الأمر الذي يتطلب الدراسة الوافية.

لأنها الولاية على كل الأجناس، كل القارات، الذين يؤمنون، والذين لا يؤمنون، وبصورة إنسانية راقية.. يشعر فيها كل إنسان بأمنه وحقه ومكانته، رغم اختلاف الطبائع الفردية والجماعية والأممية.

ولأن هذه الولاية تقتضي اختيار الجماعة التي تقوم على عملية إنشاء هذه الولاية بدقة متناهية.

بخصائصها الأساسية: العدل، والعالمية، والبقاء، والقوة..

ولقد سبق القول إن الحضارات السابقة حضارات مصنوعة، جاء مضمون كل حضارة منها كرد فعل للحضارة التي تسبقها..

مثلما جاءت حضارة القوة المادية «الرومانية» كرد فعل لحضارة المثالية الخيالية «اليونانية»..

وجاءت حضارة الحاكم الإله «الفارسية» كرد فعل للقوة المادية «الرومانية»..

ومثلما جاءت حضارة الفرد والقومية «الأوربية» كرد فعل للتعصب الكاثوليكي «الكاثوليكية»..

وهذا دليل على أنها حضارات مصنوعة.

ودليل آخر على ذلك هو أن النظرية السياسية لكل حضارة لم تتكون إلا بعد فترة زمنية طويلة، وقطع أشواط تاريخية عبر حياة الأمة.. بل إن هناك أممًا لم تتكون نظريتها إلا في أواخر عمرها.

الأمر الذي يختلف تمامًا في حضارة الأمة الإسلامية التي تكونت نظريتها السياسية في حياة مؤسسها الأول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من الحركة حتى الخلافة.

لأن الممارسة السياسية للمضمون الحضاري للأمة تعني أن يكون الموقف السياسي امتدادًا طبيعيًّا لتاريخ الأمة وانسجامًا مطلقًا مع حضارتها.

وذلك يقتضي أن تجتمع في هذا الموقف كل الخبرة السياسية للأمة المأخوذة عن تراثها السياسي وتجاربها التاريخية.

الباب الثاني

الممارسة السياسية

بعد طرح النظرية السياسية ببنائها الفكري وجوانبها الأساسية (الحق والواقع والإنسان والغاية)..

تبدأ مناقشة الممارسة السياسية التي يجب أن تجتمع فيها كل جوانب وأسس النظرية السياسية..

وفي بداية الممارسة السياسية يكون الموقف السياسي..

الفصل الأول

الموقف السياسي

(أ) الموقف السياسي «نقطة البدء»:

وكما تسهم كل نقطة عندما تتحرك في صنع الخط.. كذلك يسهم الموقف في تحديد اتجاه الخط السياسي للدولة وطبيعة البناء الحضاري للأمة في واقع الممارسة.

إذن فالموقف السياسي هو النقطة المتحركة الصانعة للخط السياسي.

ولإنشاء الموقف السياسي عدة قواعد واعتبارات أهمها:

الترتيب الإجرائي:

1- الحكم الشرعي في مضمون الموقف «الفقه»:

ولنضرب مثلًا لما نعنيه بكلمة «مضمون الموقف».. فعندما نقول بعدم جواز دخول **المجالس النيابية** يكون هذا هو عنوان الموقف.. بينما يكون مضمونه هو قضية الحاكمية، التي تعني حكم الله للناس، وبطلان حكم الناس لأنفسهم.

فلابد من الوقوف على حكم الشرع في كل تفاصيل الموقف قبل الشروع فيه.. ومطالعة مبدئية للأبواب التي صنفها الإمام البخاري في كتاب الجهاد تؤكد هذا المبدأ، لنجد أنه تم استيفاء قضية الجهاد في البخاري بصورة كاملة..

ابتداء من تكوين الدافع من خلال التعريف بفضل الجهاد وفضل المجاهد وأجره ومقام الشهادة..

ثم العدة من الرمي والخيل..

ثم تحديد أحكام الأعمال القتالية والأعمال المساعدة.. وأحكام السلاح واللباس في الحرب..

ثم تحديد العدو الاستراتيجي للأمة: اليهود والنصارى، الذي يبقى عداؤه لها حتى قيام الساعة..

ثم تحديد الضوابط الشرعية للخروج للقتال، وما ينبغي عمله مباشرة قبل الخروج، وأثناءه.. وانتهاءً بأحكام المسائل المترتبة على الجهاد، كقضية الأسرى والغنائم والعودة من القتال..

2- الحفاظ على وحدة الجماعة:

فقد يكون الموقف صحيحًا شرعًا، ولكنه لا يحظى بإجماع الجماعة؛ حيث يسبب مجرد إعلانه انشقاقًا.. عندئذٍ يكون الأوْلَى ترك هذا الموقف حتى يتحقق الإجماع عليه، وهذا ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما لم يعلن الدخول في معركة بدر حتى حقق إجماع المهاجرين والأنصار، بعد أن قال له سعد بن عبادة سيد الأنصار: «**والذي نفسي بِيَدِهِ لَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نُخِيضَهَا البَحْرَ لأَخَضْنَاهَا، وَلَوْ أَمَرْتَنَا أَنْ نَضْرِبَ أَكْبَادَهَا إِلَى بَرْكِ الغِمَادِ لَفَعَلْنَا**»[1].

إن مراعاة واقع الجماعة في اتخاذ القرار مبدأ سياسي هام يتجلى واضحًا في كل مواقف رسول الله صلى الله عليه وسلم السياسية[2].

---

(1) أخرجه مسلم في المغازي، باب غَزْوَةِ بَدْرٍ (4721).

(2) كما سيتضح إن شاء الله، من عرض نماذج لهذه المواقف.

3- تحقيق الهدف:

فيجب دراسة أثر الموقف في تحقيق الهدف العام للجماعة من ناحيتيه:

النتيجة العملية، والهدف الدعائي.

فقد يكون للموقف أثر صحيح من الناحية العملية، ولكنه يسبب اهتزازًا لصورة الدعوة في نظر الناس، وهذا الذي جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقتل عبد الله بن أبي ابن سلول وهو مستحق للقتل قائلًا لعمر: «**دَعْهُ! لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[1].

ومن هنا كانت الترجيحات هي أساس إنشاء الموقف السياسي بعد ثبوت الترتيب الإجرائي.

فعندما ننشئ موقفًا سياسيًّا بصورة مبدئية، ننظر إلى الحكم الشرعي..

فإذا ثبتت شرعيته ننظر إلى أثر الموقف على ولاء الجماعة؛ لأن الحفاظ على هذا الولاء أولى من تحقيق أي نتيجة عملية..

فإذا لم يكن للموقف ضرر على ولاء الجماعة، ننظر إلى نتيجته العملية في الواقع.. فإذا كانت له نتيجة محققة لمصلحة الدعوة.. ننظر في الأثر الدعائي والإعلامي للدعوة..

فإذا كان للموقف أثر دعائي ضار، يكون من الضروري دراسة إمكانية معالجة هذا الأثر، فإن لم يمكن معالجته، يتم قياسه على المصلحة المتأثرة به..

---

(1) أخرجه البخاري في التفسير في سورة المنافقون، باب: **{يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ}** (8/ 520/ح 4907 – فتح).. وسيأتي هذا الموقف بالتفصيل إن شاء الله.

فإذا كان تأثيره راجحًا.. فلا نمارس هذا الموقف؛ لأن الضرر الدعائي مفسدة؛ ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

وفي إطار الترجيحات الواجبة في إنشاء الموقف السياسي من حيث المآل المقبول والغير المقبول، يجب أن نفرق بين ما قد يصيب الدعوة من ضرر وما يصيب الأشخاص من أذى، فما يصيب الدعوة من ضرر هو المآل غير المقبول، ولكن ما يصيب الأشخاص من أذى هو مآل لا بد أن يكون.

وبذلك يلزم التوقف عن أي عمل يترتب عليه ضرر للدعوة.. كما يلزم عدم التوقف عن أي عمل لمجرد توقع الأذى للأشخاص، بل نعمله مع بذل الطاقة لدفع هذا الأذى والصبر عليه عندما يقع.

والدليل على التفريق بين الضرر والأذى هو قول الله عز وجل: **{لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى}** [آل عمران: 111] حيث إن معنى النص هو أنه لن يضروكم في دعوتكم ودينكم، ولكن قد يصيبوكم في أشخاصكم ودنياكم.

كما يراعى في إنشاء الموقف.. الاعتبارات الأصلية الآتية:

1- التوافق بين الأسلوب والنتيجة:

والتوافق بين الأسلوب والنتيجة خصيصة من خصائص المنهج الإسلامي العام، فالإسلام منهجًا هو الإسلام أثرًا ونتيجة بغير تناقض.

بل إن النتيجة الصحيحة التي يمكن الوصول إليها بأسلوب غير صحيح محكوم عليها بالبطلان..

ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ قَالَ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِرَأْيِهِ؛**

فَأَصَابَ.. فَقَدْ أَخْطَأَ»[1] لأن منهج أو أسلوب الوصول إلى النتائج يجب أن يكون صحيحًا في ذاته حتى يكون صحيحًا في نتيجته؛ وبذلك تقوم الدعوة بالحق، ويقوم الإسلام بالإسلام.

2– التوافق بين المبدأ والمصلحة:

إن أهم الحقائق المعروفة في الدعوة الإسلامية أنها دعوة مبادئ؛ وهذا ما سلَّم به أعداء الدعوة أنفسهم.. حتى إن أبا سفيان يُسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام هرقل –ولم يكن قد أسلم بعد– سؤالًا خطيرًا: أيغدر؟ قال: لا يغدر[2]..

وهناك موقف آخر يدل على أن الحفاظ على مبادئ الدعوة أمر لا يمكن التفريط فيه مهما بلغت درجته..

موقف لرجل أمام رسول صلى الله عليه وسلم وقد أحلَّ دمه، فوقف الرجل أمام الرسول ومشى دون أن يمسه أحد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للصحابة: **لِمَ لم تقتلوه**؟ قالوا: يا رسول الله! هلَّا أشرت إلينا؟ فقال: «**إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَائِنَةُ أَعْيُنٍ**»[3].

3 – التوافق بين الوسيلة والغاية:

والوسائل –بعد الأساليب– يجب أن تكون من الإسلام ذاته، من أجل ذلك ردَّ النبي صلى الله عليه وسلم مشركًا يريد القتال مع المسلمين قائلًا له:

---

(1) رواه أبو داود (3 / 319 / ح 3652)، والترمذي (5 / 200 / ح 2952)، وغيرهما.

(2) صحيح: (الفتح – ص 42) كتاب بدء الوحي.

(3) أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

«**نحن لا نستعين بمشرك**»[1].

بل قد يبلغ الأمر أن يرد الرسول صلى الله عليه وسلم رجلًا لعن ناقته أثناء الذهاب إلى الغزو قائلًا له: «**ارجع بها لا تصحبنا بملعون**»[2].

---

(1) رواه أحمد ومسلم وابن حبان وأبو داود والبيهقي في السنن (9 / 63 / ح 17877) عن عائشة، وفيها: «**ارجع فلن أستعين بمشرك**».

(2) أخرجه مسلم وأبو داود.

الفصل الثاني

التحليل السياسي

الدلالة السياسية للموقف السياسي:

اتفقنا أن النقطة المتحركة –هندسيًّا– هي الصانعة للخط.. وأن الموقف السياسي هو النقطة الصانعة للخط السياسي..

فلا بد أن يكون للموقف السياسي معناه الدال على الاتجاه أو الخط السياسي، وهذا المعنى هو ما نتفق على تسميته بـ«**الدلالة السياسية**».

والدلالة السياسية لا تتحدد إلا بالربط بين «الحدث.. وظروفه»، وبين «الحدث.. وفاعله»، ثم لا تتحدد إلا بتقدير آثاره المستقبلية في واقع الممارسة السياسية.

وعلى هذا الأساس.. يقوم إنشاء الحدث على إثبات دلالة مقبولة، أو نفي دلالة مرفوضة، أو الاثنتين معًا.

والدلالة السياسية.. منها العملي، ومنها القولي، ومنها الشخصي.

ونبدأ بطرح نماذج عامة للموقف السياسي الإسلامي وتفسير دلالاته السياسية:

1– دلالة سياسية تحققت بالكلام دون العمل:

– فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا لعائشة: «**يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته**

بالأرض، وجعلت له بابين؛ بابًا شرقيًّا وبابًا غربيًّا فبلغت به أساس إبراهيم»[1].

ودلالة هذا الموقف هي تقرير الحق حتى لو كانت الظروف تمنع التطبيق؛ لأن هذا التقرير سيكون حجة لمن أراد التطبيق عندما تكون الظروف مناسبة..

ويكون تقرير الحق متضمنًا لحقائق منهجية –ولو بصورة مجردة– حفاظًا علي مبادئ الدعوة وترسيخًا لها في الواقع.

مثلما كان من عمر بن الخطاب في اختياره لمن يخلفه في المسلمين؛ إذ حدد بعض الناس معلنًا أنه لو كان أحدٌ منهم حيًّا لاستخلفه؛ يريد بذلك إثبات معايير الاختيار والاستخلاف وإن كان الأشخاص غير موجودين.

حيث قال حين حضرته الوفاة: «لو كان أبو عبيدة حيًّا لاستخلفته، ولو كان معاذ حيًّا لاستخلفته، ولو كان سالم حيًّا لاستخلفته؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **أبو عبيدة أمين هذه الأمة، ومعاذ أمة لله قانتًا ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون، وسالم شديد الحب لله، لو كان لا يخاف الله لم يعصه**»[2].

2– تحقيق دلالة سياسية بأساليب غير مباشرة:

ومن أمثلة ذلك حادثة المرأة التي ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم قبيلتها وقاتل القبائل حولها، فعن عمران بن حصين قال: كنا في سفر مع النبي صلى الله عليه وسلم، وإنا أسرينا حتى إذا كنا في آخر الليل وقعنا وقعة ولا وقعة أحلى عند المسافر منها، فما أيقظنا إلا حر الشمس... فلما استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم شكوا إليه الذي أصابهم، قال: «**لا**

(1) أخرجه البخاري في الحج، باب: فضل مكة وبنيانها (3 / 51 / 1586 – فتح) عن عائشة.
(2) تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف، للزيلعي.

ضير –أو لا يضير– ارتحلوا». فارتحل، فسار غير بعيد، ثم نزل فدعا بالوضوء فتوضأ، ونودي للصلاة ف صلى بالناس، فلما انفتل من صلاته إذا هو برجل معتزل لم يصلِّ مع القوم، قال: «**ما منعك يا فلان أن تصلي مع القوم؟!**» قال: أصابتني جنابة.. ولا ماء. قال: «**عليك بالصعيد؛ فإنه يكفيك**». ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم فاشتكى إليه الناس من العطش، فنزل فدعا فلانًا –كان يسميه أبو رجاء نسيه عوف– ودعا عليًّا فقال: «**اذهبا فابتغيا الماء**». فانطلقا فتلقيا امرأة بين مزادتين –أو سطيحتين– من ماء على بعير لها فقالا لها: أين الماء؟ قالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة، ونفرنا خلوفًا. قالا لها: انطلقي إذًا. قالت: إلى أين؟ قالا: إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قالت: الذي يقال له الصابئ؟ قالا: هو الذي تعنين، فانطلقي.

فجاءا بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم وحدثاه الحديث. قال: فاستنزلوها عن بعيرها، ودعا النبي صلى الله عليه وسلم بإناء ففرغ فيه من أفواه المزادتين –أو السطيحتين– وأوكأ أفواههما وأطلق العزالِي ونودي في الناس: استقوا. فسقى من شاء، وكان آخر ذاك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناء من ماء قال: اذهب فأفرغه عليك. وهي قائمة تنظر إلى ما يفعل بمائها. وايم الله لقد أقلع عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملأة منها حين ابتدأ فيها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**اجمعوا لها**» فجمعوا لها –من بين عجوة ودقيقة وسويقة– حتى جمعوا لها طعامًا فجعلوها في ثوب وحملوها ووضعوا الثوب بين يديها، قال لها: تعلمين ما رزئنا من مائك شيئًا، ولكن الله هو الذي أسقانا.. فكان المسلمون بعد ذلك يغيرون على من حولها من المشركين ولا يصيبون الصرم الذي هي منه. فقالت يومًا لقومها: ما أرى أن هؤلاء القوم يدَعونكم عمدًا، فهل لكم في الإسلام؟ فأطاعوها، فدخلوا في الإسلام[1].

ولعلنا نلاحظ من الحدث أن المسلمين فرضوا عليها فهمًا محددًا لموقف المسلمين من

(1) أخرجه البخاري في التيمم، باب: الصعيد الطيب وضوء المسلم (344/531/1).

قبيلتها.. حتى فهمت المرأة دلالة الموقف فأسلمت هي وقومها.

3- استبدال الدلالة السلبية للحدث، بدلالة إيجابية:

- عن ابن عمر قال: كنا في غزاة فحاص الناس حيصة[1]. قلنا: كيف نلقى النبي صلى الله عليه وسلم، وقد فررنا من الزحف، وبؤنا بالغضب؟ فأتينا النبي صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الفجر، فخرج فقال: «**من القوم؟**» فقلنا: نحن الفرارون، قال: لا، بل أنتم العكارون «أي الكرارون»، فقبلنا يده، فقال: **أنا فئتكم وفئة المسلمين**، ثم قرأ **{إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ}** [الأنفال: 16][2].

وذلك في تفسير قول الله عز وجل: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ}** [الأنفال: 15].

- وفي غزوة أحد حيث وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الغزوة وجمع المسلمين حوله ليردوا على أبي سفيان الذي أراد أن يحقق نتيجة سياسية للغزوة..

حتى إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سار وراء المشركين بالجيش وأقام ثلاث ليال حتى سميت غزوة حمراء الأسد[3]، وكان في هذا أيضًا نفي دلالة سلبية وإثبات دلالة إيجابية.

فالوقوف بعد أُحد ثلاث ليال.. لنفي دلالة سلبية.. وهي قبول الهزيمة.

وإثبات دلالة إيجابية.. وهي الإصرار على مواصلة الجهاد بعد حرمان العدو من تحقيق أي نتيجة سياسية لصالحه.

---

(1) فحاص الناس: أي جالوا جولة يطلبون الفرار قاله في «النهاية» انظر: تحفة الأحوذي.

(2) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والبخاري في الأدب المفرد والبيهقي.

(3) روى ذلك ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر والسيوطي في الدر المنثور ص 179.

4- تجريد حدث من دلالة مرفوضة وإثبات دلالة مقبولة:

بعث النبي صلى الله عليه وسلم خيلا قِبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟**» فقال: عندي خير يا محمد؛ إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فاسأل ما شئت، فتُرك حتى كان الغد ثم قال له: «**ما عندك يا ثمامة؟**» قال: ما قلت لك؛ إن تنعم تنعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: «**ما عندك يا ثمامة؟**» قال: عندي خير.

فقال: «**أطلقوا ثمامة**». فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد فقال: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله**»[1]...

والملاحظة الأساسية في الحديث: أن ثمامة في اليوم الأول ذكر الدم والمال؛ لذا تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم مربوطًا؛ لأنه لو أطلقه بعد ذكره الدم والمال لكان معنى الموقف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خاف قومه فأطلقه، أو طمع في الدية أو الفداء.

وفي اليوم الثاني أشار ثمامة إلى ما قاله في اليوم الأول، فلم يطلقه.

أما في اليوم الثالث فلم يذكر ثمامة الدم أو المال فقال: عندي خير فقال: «**أطلقوا ثمامة**».

إن القاعدة السياسية التي يتضمنها هذا الموقف هي شرط جوهري في الممارسة

---

(1) الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود والبيهقي وأحمد، والقصة ذكرها ابن عبد البر في ترجمة ثمامة بن أثال الحنفي (205/1)، والحافظ في ترجمته وعزاها لابن إسحاق في المغازي والحميدي، وقد تقدمت.

السياسية، وإنشاء الموقف السياسي.. وهو الوضوح، ومعناه: أن يكون للموقف تفسير واضح لا يحتمل غيره.

ولذلك ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمامة حتى أصبح لإطلاق سراحه تعبيرٌ واحد ومعنى واحد.. هو الإكرام الذي لا يختلط به معنى الخوف من الثأر أو الطمع في الدية.

5- حدث قام على حفظ وحدة الموقف:

ومن أخطر دلالات الموقف السياسي حفظ وحدة الموقف الإسلامي، فحينما غدر يهود بني قريظة بالمسلمين في غزوة الخندق وتحالفوا مع المشركين.. كان لا بد من إجلائهم؛ لأن وجودهم كان مرهونًا بالمعاهدة التي كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولكن تحالف اليهود مع الأنصار قبل دخول الرسول صلى الله عليه وسلم –والذي لم يزل قائما بعد دخوله صلى الله عليه وسلم المدينة– كان يمثل مشكلة خطيرة.. فما الموقف..؟!

كان الموقف السياسي.. هو إحالة أمرهم إلى الأنصار أنفسهم، فطلب منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزلوا على حكم من يختارون.

فكان من الطبيعي أن يكون اختيارهم من الأنصار باعتبار التحالف الذي بينهم؛ فاختاروا سعد بن معاذ سيد الأنصار.

تقول كتب السيرة: «فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتواثبت الأوس فقالوا: يا رسول الله إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت..

فلما كلمته الأوس قال: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فذاك إلى سعد بن معاذ.. فلما حكمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني قريظة أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من أدم، وكان رجلًا جسيمًا جميلًا، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم؟ فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم. فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل. فنعى لهم رجال بني قريظة، قبل أن يصل إليهم سعد، عن كلمته التي سمع منه.

فلما انتهي سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قوموا إلى سيدكم**...» فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله قد أمر مواليك لتحكم فيهم؛ فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم، قال: وعلى من ها هنا، في الناحية التي فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو معرض عن رسول الله إجلالًا له؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**نعم**»؛ قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة**»(1).

6- توجيه أعداء الدعوة لما يناسب مصلحتها:

فعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبي ومن كان معه يعبد الأوثان من الأوس والخزرج ورسول

---

(1) أخرجه البخاري في الجهاد والسير، باب: إذا نزل العدو على حكم رجل (191/6/ح 3043) مختصرًا، ورواه أحمد بطوله، وذكره الهيثمي في المجمع، وحسنه الحافظ في الفتح (51/11).

الله صلى الله عليه وسلم يومئذ بالمدينة: آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم ونسبي نساءكم..

فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ! ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم؛ يريدون أن تقاتلوا بأبنائكم وإخوانكم**» فلما سمعوا ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم تفرقوا[1].

وهذا الموقف يتضمن قاعدة سياسية مهمة وهي توجيه أعداء الدعوة إلى اتخاذ الموقف المناسب للدعوة.. بمنطق المصلحة لهؤلاء الأعداء.

وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عبدة الأوثان الذين اجتمعوا لقتاله، وما فعله مع قريش ذاتها..

فعندما بلغه أنهم خرجوا بالعوذ المطافيل[2] لقتاله فقال: **ويح قريش! لقد أكلتها الحرب، خلوا بيني وبين القبائل، فإن كان الأمر لي عليهم كان شرفًا لهم وإن كان الأمر لهم عليَّ.. كان ما يرجون**[3].

نفس منطق المصلحة يتحدث به الرسول إلى أعدائه ليوجههم إلى الموقف المناسب للدعوة.

وبعد هذه النماذج.. تبقى المفاوضات والمعاهدات هي الاتجاه الجامع لتفسير معنى

---

(1) رواه أبو داود في الخراج والإمارة والفيء، باب: في خبر النضير (155/3/ح 3004)، ورواه البيهقي في الدلائل (178/3، 179).

(2) العوذ: جمع عائذ وهي التي لم تلد، والمطافيل: جمع مطفل وهي التي لها طفل.

(3) ذكره ابن هشام في سيرته (356/3، 357)، ووصلها عبد الرزاق في مصنفه (97206) ومن طريقه البخاري في الشروط (388/5/ح 2731، 2732 – فتح) مطولا وفي المغازي (158/7/ح 4178، 4179).

الدلالة السياسية، باعتبار أن المفاوضات والمعاهدات هي الموقف السياسي الجامع بين الاتجاه الإسلامي والجاهلي.

والدلالة الثابتة التقليدية للمعاهدات من أي طرف هي:

(1) إثبات وحدة الموقف.

(2) فرض الإرادة السياسية.

(3) تحقيق مكاسب عملية.

ومن الطرف الآخر يكون الهدف هو هدم هذه الأهداف وتضييع هذه الدلالات.

مثلما قال المفاوض عن قريش للرسول صلى الله عليه وسلم في معاهدة الحديبية: يا مُحمدُ جمعت أوباش الناس ثُم جئت بهم لبيضتك لتفُضها، إنها قُريشٌ!.. وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفُوا عنك غدًا... ثم تناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم والمغيرة بن شعبة واقفٌ على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديد قال يقرع يده ثم قال: أمسك يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل والله لا تصل إليك! قال: ويحك ما أفظك وأغلظك! قال: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: من هذا يا محمد؟ قال هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة، قال: أغدر؟! هل غسلت سوأتك إلا بالأمس...

فقام من عند رسُول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأى ما يصنع به أصحابه؛ لا يتوضأ وضوءًا إلا ابتدروه، ولا يبسق بساقا إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيءٌ إلا أخذوه.

فرجع إلى قريشٍ فقال: يا معشر قريشٍ إني جئت كسرى في ملكه وجئت قيصر والنجاشي في ملكهما، والله ما رأيت ملكًا قط مثل محمدٍ في أصحابه، ولقد رأيت قوما

لا يسلمونه لشيءٍ أبدا[1].

ومثلما حاول مفاوض الفرس في معاهدته مع المسلمين إنشاء شرخ في بناء موقفهم السياسي، فاتفق مع المفاوض المسلم على معاهدة الصلح، وأخبره أنها تبدأ من اليوم الذي تم فيه عقد هذا الصلح.

ثم جاء في اليوم الثاني مفاوض آخر فوافقه مفاوض الفرس على المعاهدة وأخبره أنها تبدأ من اليوم الذي جاء فيه المفاوض الثاني، فرفض المفاوض المسلم أن يكون بدء المعاهدة من اليوم بل من الأمس كما حدد ذلك أخوه السابق عليه.

وبذلك تتحقق وحدة الموقف وتخفق خطة الفرس في التفريق بين المفاوضين المسلمين، حتى ولو بفارق يوم في تحديد تاريخ المعاهدة.

ولعل وحدة الموقف هذه التي أثبتها المفاوض الثاني وهي التي ثبت معها فرض الإرادة السياسية، وذلك بتمسكه باتفاق أخيه على تاريخ المعاهدة.

المناورة السياسية:

من صور الموقف السياسي.. المناورة السياسية، وهي اتخاذ إجراءات غير مباشرة للوصول إلى مواقف مباشرة مطلوبة ومحددة..

ففي غزوة الأحزاب، والمدينة تحت الحصار.. جاء الحارث الغطفاني يساوم النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، شاطرنا تمر المدينة قال: **حتى أستأمر السعود**، فبعث إلى سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وسعد بن خيثمة، وسعد بن مسعود –رضي الله عنهم– فقال: «**قد علمْتُم أن العَرَب قد رمتكم عَن قَوسٍ وَاحِدَة، وإن**

(1) مسند أحمد ح 18910.

الحَارِث يسألكم أَن تشاطروه ثَمَر المَدِينَة، فَإِن أردتم أَن تدفعوه عامَكم هَذَا حَتَّى يَنْظرُوا فِي أَمركُم بعد» قالوا: يا رسول الله! أَوَحْيٌ من السماء.. فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك فرأينا تبع لهواك ورأيك؟ فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا، فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء، ما ينالون منا تمرة إلا بِشِرى أو قِرَى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**هو ذا تسمعون ما يقولون**» قالوا: غدرت يا محمد.

فلما اتهم الغطفاني رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغدر.. كان لابد من نفي ذلك عنه بصورة إعلامية تساند موقفه وترد عنه، فقام حسان بن ثابت إليهم قائلا:

يا حار من يغدر بذمة جاره — أبدا فإن محمدا لا يغدر

وأمانة المرء حيث لقيتها — كسر الزجاجة صدعها لا يجبر

إن تغدروا فالغدر من عاداتكم — واللؤم ينبت في أصول السخبر[1]

وبعد تفسير الموقف السياسي والمناورة السياسية يكون مصطلح **المرحلة السياسية**.. وهي مجموع المواقف السياسية المتجانسة في موضوع سياسي واحد خلال زمن محدد.

---

(1) انظر معجم الطبراني ح 5416، وقال الهيثمي: رواه البزار والطبراني ورجالهما فيهم محمد بن عمرو حديثه حسن وبقية رجاله ثقات، مجمع الزوائد 132/6- 133.

الفصل الثالث

أبـعاد الممارسة السياسية

البعد الجماهيري:

والجماهير هم العامة، وهم عنصر أساسي من عناصر الأمة؛ حيث إن الأمة.. هي الحكم، والملأ، والعامة..

وهذا العنصر –العامة– هو المحقق لمعنى الأمة المرتبط بخصائصها القدرية.

وهذه الخصائص هي:

- **العصمة**: حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الله لا يجمع أمَّتي على ضلالة**»[1].

- **الرحمة**: حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**أُمَّتِي هَذِهِ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ**»[2].

- **النصر**: حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**هذه الأمة منصورة**»[3]. وقال: «**لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر هذا الدين لا يضرهم من خالفهم**»[4].

وهذه الخصائص مرهونة بالأمة؛ بمعنى السواد الأعظم، باعتبارها العنصر الأساسي للأمة، والضمان الأخير لتحقيق معنى الجماعة؛ ولذلك جاء معنى الجماعة في مجموع

(1) رواه الترمذي (2167) وحسنه الألباني، وله طرق كثيرة بألفاظ مقاربة لهذا المتن.
(2) رواه أبو داود (4 / 103 / ح 4287)، وأحمد في المسند (4 / 410)، وحسنه الألباني.
(3) أخرجه ابن عساكر (258/1) [كنز العمال 38222] بلفظ: «لن تبرح هذه الأمة منصورة».
(4) أخرجه البخاري، وقد تقدم.

النصوص الواردة بأربعة معايير؛ وكان منها معيار العامة[1].

ومما يجب إدخاله في الاعتبار وجوبًا شرعيًّا جوهريًّا هو أن العامة في دار الإسلام هي المقصودة -أساسًا- بهذا المصطلح، أما العامة في دار الكفر فلا تنطبق إلا على من كره ما عليه المجتمع من الكفر، وهذه هي البراءة المذكورة في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فمن كره فقد برئ، إلا من رضي وتابع**»..

فلا يمكن أن نتصور أن مجموع الراضين عن الكفر والتابعين لأهله الملتصقين بهم في كفرهم أو مجموع الهمج الرعاع أتباع كل ناعق هم المحققون لمصطلح السواد الأعظم.

قيمة التوجه للعامة:

والحقيقة أن التعامل مع العامة ترجع أهميته إلى ارتباطه المباشر بغاية الدعوة، وهي الهداية.

وذلك أن غاية الدعوة هي أن يؤمن الناس، وعندما يتمكن أصحاب الدعوة من التعامل المباشر مع الناس فإن هذا الأمر تكون له أهمية ضخمة قد تقترب من أهمية محاولة إقامة السلطة الإسلامية؛ لأن هدف هداية الناس هو أهم أسباب قيام هذه السلطة.

كما نعلم أن إسقاط الحكم الجاهلي هو إزاحة لأخطر أسباب منع وصول الحق إلى الناس، وعندما تنشأ ظروف الدعوة التي تتاح فيها إمكانية وصول الحق إلى الناس.. تكون قد تحققت نتيجة أصلية هي نفسها أهم نتائج إسقاط الحكم الجاهلي وإقامة الحكم الإسلامي.

---

(1) وذلك عندما لا يكون العلماء الذين يمكن الرجوع إليهم، باعتبار أن العامة هم الكثرة الغالبة الملتزمة بأحكام الكتاب والسنة.

ومن هنا كان من أهم معاني الفتح[1] معاهدة الحديبية؛ لأن هذه المعاهدة هي التي أتاحت هذا الاتصال المباشر بين المسلمين والكفار، فحقق هذا الاتصال إيمان تسعة أعشار المسلمين الذين كانوا في فتح مكة، فسمَّى الله معاهدة الحديبية **فتحًا مبينًا**؛ لأن لها حقيقته وغايته، وهي أن يؤمن الناس..

وكما ترجع قيمة فرصة الاتصال بالناس إلى نتيجتها، ترجع إلى سببها.

إن الجاهلية لا تتيح هذه الفرصة.. بغير حساب.

إنها تتيحها تسليمًا بأقل الأخطار عليها.

إن الجاهلية تُوازِن كما وازنت قريش فوافقت على المعاهدة، وأعطت فرصة الدعوة عندما أيقنت أنها أمر واقع لا يمكن مواجهته، وعندما أيقنت أن استنفاد طاقة الدعاة في الدعوة بالكلمة هو البديل الحتمي لممارسة القوة.

فالفرصة لها ثمن، والفرصة ليست رخيصة، وليست عارضة..

إنها محسوبة وبدقة من جانب الطرف الجاهلي الذي سلَّم بحركة الدعاة المتجهة إلى الناس.

وباعتبار أن عنصر الكثرة هو أهم عناصر العوام، فإن تحقيق الإضلال لهم أصبح أكبر أهداف الشيطان؛ لأن الشيطان يسعى أن يموت أكثر الناس على الكفر.

ومن هنا فإن التعامل المباشر مع الناس هو الذي يقطع على الشيطان هدفه في الإضلال العام.

---

(1) وذلك في تفسير قول الله عز وجل: **{إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}**.. الفتح هنا: معاهدة الحديبية.

وقد تكون مهمة إسقاط الحكم الجاهلي بالصفة الانقلابية أخطر وأشد؛ ولكن دعوة الناس مباشرة تستوعب أكبر عدد ممكن من هؤلاء الناس.

وهذا هو الذي يعطي لأسلوب الاتصال المباشر بالناس أهمية وقيمة.

فليست الخطورة معنى مرادفا للأهمية في منهج الحركة، فقد يكون الأمر أقل خطورة وأكثر أهمية، أو أقل أهمية وأكثر خطورة.

والتوجه للعامة هو الذي يحقق أكبر فرصة لاستخلاص الطاقات الصالحة للحركة..

فهناك في واقع الناس معادن مغمورة يقول فيها النبي صلى الله عليه وسلم: «**خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[1].

إن التوجه إلى الناس لا يعني أن يؤمن كل الناس، فإذا كانت الاستجابة قليلة فإن هذه القلة هي النتيجة الطبيعية؛ وإدراك هذه الحقيقة يعالج اليأس الذي قد يطرأ على أصحاب الدعوة إذا بذلوا جهدًا ضخمًا مع الناس.

يقول سبحانه: **{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ}** [يوسف:103]..

كما يعالج الرسول صلى الله عليه وسلم اليأس في نفوس الدعاة إذا اقتربوا ممن يحمل كرهًا شديدًا للدعوة بحيث يصبح هذا الأمر سببًا في الأمل والرجاء؛ فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**تَجِدُونَ مِنْ خَيْرِ النَّاسِ.. أَشَدَّهُمْ كَرَاهِيَةً لِهَذَا الأَمْرِ، حَتَّى يَقَعَ فِيهِ**»[2].

(1) أخرجه البخاري (6 / 608 / ح 3493، 3496 – فتح)، ومسلم في الفضائل.

(2) رواه البخاري في المناقب (3496).

مصلحة الجماهير:

والجماهير لها قضاياها.. وأولها الطعام والأمن!

واعتبار هذه القضايا عند مخاطبة الجماهير أمر واجب، لقوله تعالى: **{لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}** [قريش: 1-4].

ولكن الأمر المحظور حظرًا شديدًا هو تبني المطالب الاقتصادية للجماهير.. بصورة منفصلة عن قضية الدعوة الأساسية وهي العقيدة والتوحيد، حتى لا تتحول الدعوة بمنهجها إلى توجه اقتصادي يؤثر في صبغتها الربانية.

ومع ذلك فليس هناك ما يمنع من تفهيم الناس أن المشروع الإسلامي سيكون منطلقًا لتحقيق المصالح الاقتصادية للناس.

ولعل قصة يوسف ورؤية العزيز المنذرة بالمجاعة، والخطة التي وضعها يوسف لإنقاذ مصر والمنطقة المحيطة بها.. دليلٌ على أهمية التصور الاقتصادي في منهج الدعوة.

وبعد الطعام والأمان.. تبقى عوامل التأثير في العامة.

والقاعدة السياسية في تحقيق هذا التأثير.. هي تحقيق مقتضيات الكيان الصحيح للدعوة:

1- البطولة: وهي النموذج الإنساني السليم للتأسي والاقتداء إسلاميًّا.
2 - التماسك: ويراجع فيه معاهدة الحديبية.
3 - التضحية والبذل.
4 - الثبات على العقيدة: الذي جعل مشركًا يسلم لما ضرب مسلمًا ليقتله، فسمعه

يقول: فزت ورب الكعبة.

أما أساسيات التوجه من حيث الأسلوب الحركي ومن حيث قضايا التبليغ.. فإن الأسلوب الحركي في دعوة العامة قائم على قاعدة أن نغشى الناس، كما قال الصحابي للنبي صلى الله عليه وسلم عند قدومه إلى المدينة: «اغشنا في مجالسنا»[1].

ومن كلمة «اغشنا» ينطلق أسلوب التعامل مع العامة.

ومن كلمة «غشي» تنشأ عناصر الأسلوب، ومن لسان العرب:

1- غَشِيَهُ غِشْيانًا: أَتاهُ..
2- غَشِيَ الأَمرَ غَشيانًا: باشَرَهُ..
3- فَإِنْ غَشِينَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا[2]: من القَصد إلى الشيءِ والمباشَرَة..
4- وفي حديث المسعى: (فإن الناسَ غَشُوه)[3] أَي ازْدَحَمُوا عليه وكَثُروا..
5- الغشاء: الغطاء والعموم.

وبذلك يجتمع في معنى «غشي» التوجه، والتعميم والازدحام والكثرة والملابسة.

يجب أن نغشى الناس فنذهب إليهم بكثرة.. وليس مجرد التسلل إليهم.

---

(1) كما جاء في الصحيح على لسان عبد الله بن رواحة ردًّا على طلب عبد الله بن أبي ابن سلول بألا يتحرك الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة..

(2) أخرج الإمامان البخاري (70/5، 3680) ومسلم (1333/3، 1709) عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ: «بَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عَلَى أَنْ لاَ نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا وَلاَ نَزْنِيَ وَلاَ نَسْرِقَ وَلاَ نَقْتُلَ النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ نَنْتَهِبَ وَلاَ نَعْصِيَ فَالْجَنَّةُ إِنْ فَعَلْنَا ذَلِكَ **فَإِنْ غَشِينَا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا** كَانَ قَضَاءُ ذَلِكَ إِلَى اللهِ».

(3) أخرج الإمام مسلم (1333/3، 1709) عَنْ جابر قَالَ: «طَافَ رَسُولُ اللهِ بِالْبَيْتِ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ عَلَى رَاحِلَتِهِ يَسْتَلِمُ الرُّكْنَ بِمِحْجَنِهِ لأَنْ يَرَاهُ النَّاسُ وَلِيُشْرِفَ وَلِيَسْأَلُوهُ فَإِنَّ النَّاسَ **غَشُوهُ**».

ونغشاهم.. وليس مجرد لقاءات عابرة.

والهدف.. هو أن تعيش الجماهير واقع الدعوة الذي يستردهم من أسر الإعلام الجاهلي.. الجماهير أسيرة، والدعوة تتطلب إنقاذهم واستردادهم وفك أسرهم..

والوسيلة: هي أن تصبح دعوة الجماهير موازية ومقابلة لمكر الليل والنهار: السحر، البهارج، والألوان الشيطانية التي تأخذ عيون الناس..

موازية للخبث الذي يصل إلى أعماق النفس البشرية.

موازية للإغراء والفتنة.. للكيد والدهاء.

الجماهير في وضع لا يطاق.. نادرًا ما تجد ناجيًا من لوثته.

وحتى لا تخاف الجماهير عندما ترى الدعاة يقتربون منهم.. يجب أن يكون هذا الاقتراب من خلال المبررات الطبيعية لهذا الاقتراب، فترتكز حركة التوجه إلى الجماهير من خلال مبرراته الطبيعية:

القرابة.. الجوار.. الصداقة.. أو أي مبرر طبيعي آخر.. هذا هو الأساس في الأسلوب الحركي في التوجه للعامة.

ثم نأتي إلى الأساس في أسلوب عرض القضايا وهو البساطة.

الأمية:

والحد النهائي للبساطة هو مفهوم الأمية..

والأمية تعني التسليم بحقائق هذا الدين بغير مسلمات فكرية مسبقة؛ وعندئذ يخلو المتلقي من الخلط بين وحي السماء والثقافات الخاصة.

ويعبر النبي صلى الله عليه وسلم عن حقيقة الأمية بقوله: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لاَ نَكْتُبُ وَلاَ نَحْسُبُ، وَالشَّهْرُ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا**» مشيرًا بيده وأصابعه[1].

ولعل أهم أمثلة التعالي الجاهلي بالثقافة المقابلة للأمية.. كانت الثقافة اليونانية والرومانية.. وكانت هذه الثقافة هي بذاتها.. مادة اختلاط حقائق الدين المسيحي المنزلة من عند الله، وكانت سببًا مباشرًا في دخول الوثنية إليه، والترحيب بها لدى كثير من بلدان الدين المسيحي ذاته.

وكما تكون البساطة أساسا في أسلوب عرض قضايا الدعوة كذلك تفعل الجاهلية في مواجهة قضايا الدعوة.

لكن الجاهلية لن تتركنا والعامة، بل ستحول بيننا وبينها، وستمنعها عنا، وسترتكز الجاهلية في ذلك على خصائص الجماهير.

الارتكاز الجاهلي على خصائص الجماهير:

هذا هو النمرود الذي حاج إبراهيم في ربه يقول: «أنا أحيي وأميت».. فينتقل سيدنا إبراهيم إلى دليل آخر، ولم يكن هذا تسليمًا بإمكانية ذلك، ولكنه اليقين بإمكانية خداع الجماهير بأي صورة من الصور التي وردت في التفسير..

وهي أن يأتي باثنين محكومًا عليهما بالإعدام فيعدم أحدهما ويترك الآخر، ويقول: أنا أحيي وأميت، فتصرخ الجماهير بذلك الموقف الوهمي والمتحمسة لموقف الملك الكذاب!!

---

(1) أخرجه البخاري (675/2، 1814)، ومسلم (761/2، 1080) ومعناه أنه أشار بيده ثلاث مرات: في المرة الأولى والثانية يبسط أصابعه كلها دلالة على عشرة أيام وعشرة أيام، وفي الثالثة بسط أصابعه عدا واحدًا؛ للدلالة على رقم (9) أي أن الشهر (29) يومًا..

هذه هي الجماهير في ظل الجاهلية..

وعندما قال فرعون: **{يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ}** [غافر: 36].. إنما أراد أن يضاعف إخضاع الجماهير؛ لأنهم يعرفون هامان كما يعرفون فرعون.

تتضاعف رموز السلطة في إحساس الجماهير.

وعندما قال: «ابنِ لي صرحًا» أراد أن يبدو أمام الجماهير في غاية الموضوعية والمنطقية، وكأنه سيسير مع القضية خطوة خطوة، وأمام الناس.

وبذلك تصبح الجماهير الساذجة أمام الفضاء..

يضع أعينهم أمام الفراغ.. ماذا بعد الصرح؟! لا شيء.. وهذه هي النتيجة المطلوبة.. أن يعتقد الناس أنه لا شيء في السماء، وأن موسى كاذب.

إن البساطة أمر فرعوني واضح في التعامل مع الجماهير، والعامة تنخدع بمنتهى البساطة.

ألم يجعل لهم السامري عجلًا جسدًا له خوار؟

وبنفس منطق السامري واصل الصليبيون الخداع..

وهذا فصل حيل الرهبان:

وفيه يقول ابن تيمية: «وقد صنف بعض الناس مصنفًا في حيل الكهان، مثل الحيل المحكية عن أحدهم في جعل الماء زيتًا بأن يكون الزيت في جوف المنارة فإذا نقص صب فيها ماء فيطفو الزيت على الماء؛ فيظن أن نفس الماء انقلب زيتًا.

ومثل الحيلة المحكية عنهم في ارتفاع النخلة، وهو أن بعضهم مر بدير راهب.. أسفل

منه نخلة فأراه النخلة صعدت شيئًا حتى حازت الدير فأخذ من رطبها، ثم نزلت حتى عادت كما كانت، فكشف الرجل الحيلة.. فوجد النخلة في سفينة في مكان منخفض إذا أرسل عليه الماء امتلأ حتى تصعد السفينة، وإذا صرف الماء إلى موضع آخر هبطت السفينة.

ومثل الحيلة المحكية عنهم في التكحل بدموع السيدة مريم، وهو أنهم يضعون كحلًا في ماء متحرك حركة لطيفة، فيسيل حتى ينزل من تلك الصورة فيخرج فيظن أنه دموع.

ومثل الحيلة التي صنعوها بالصورة التي يسمونها القونة بصيدنايا، وهي أعظم مزاراتهم بعد القيامة وبيت لحم، حيث ولد المسيح وحيث قبر -في زعمهم- فإن هذه هي صورة السيدة مريم، وأصلها حشة نخلة سقيت بالأدهان حتى سمنت وصار الدهن يخرج منها مصنوعًا يظن أنه من بركة الصورة.

ومن حيلهم الكثيرة.. النار التي يظن عوامهم أنها تنزل من السماء في عيدهم في قمامة.. وهي حيلة قد شهدها غير واحد من المسلمين والنصارى ورأوها بعيونهم أنها نار مصنوعة يضلون بها عوامهم، يظنون أنها نزلت من السماء، ويتبركون بها، وإنما هي صنعة صاحب مِحَال وتلبيس»[1].

وقد أورد ابن كثير رحمه الله عند تفسيره قول الله تعالى: **{يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ}** [البقرة: 102] حكاية عن بعض الرهبان، وهو أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة، فإذا سمعته الطيور ترق له فتلقي في وكره من ثمر الزيتون ليتبلَّغ به، فعمد هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكله، وتوصل إلى أن جعله أجوف فإذا دخلته الريح يسمع منه صوتًا كصوت ذلك الطائر، وانقطع في صومعة ابتناها، وزعم أنها على قبر بعض صالحيهم، وعلَّق

(1) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

ذلك الطائر في مكان منها، فإذا كان زمان الزيتون فتح بابًا من ناحيته، فتدخل الريح إلى داخل هذه الصورة فيسمع صوتها كل طائر في شكله أيضًا، فتأتي الطيور فتحمل من الزيتون شيئًا كثيرًا فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون في هذه الصومعة، ولا يدرون ما سببه، ففتنهم بذلك وأوهمهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر.. عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة[1].

وكما يكون الارتكاز على بساطة الجماهير في الإضلال.. يكون الارتكاز على تحقيق العصبية الجماهيرية للجاهلية.. إن تحقيق عصبية العامة للحكم الجاهلي مهمة صعبة، ولكن الجاهلية تمارسها بكل دقة.

ونموذج تلك الممارسة هو الممارسة الفرعونية..

وعناصر تلك الممارسة هي أن يشعر العامة أنهم أصحاب السلطة «شركاء في القرار»، وهذه هي فكرة فرعون عندما قال: **{فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}** [الأعراف: 110].

استيعاب: المشاركة في اتخاذ القرار..

المجالس النيابية..

الرأي في النكسة..

الرأي في الاتحاد الاشتراكي..

ويبلغ إحساس العامة بالسلطة الكاملة عندما يقول لهم فرعون: **{ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى}** [غافر: 26].. إن فرعون يقول للعامة: ذروني! مع أنه لا يوجد من يستطيع أن

---

(1) تفسير ابن كثير في تفسير قوله تعالى: **{وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}**.

يمنعه.. يطلب فرعون من العامة أن يتركوه.. يطلب التفويض الشعبي في اتخاذ القرار المناسب تجاه موسى، وأن يشعر العامة أنهم أصحاب المصلحة **{يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ}** [الأعراف: 110].

أن يشعر العامة أنهم أصحاب السياسة **{وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى}** [طه: 63].. سياستكم ومذهبكم السياسي.

أن يشعر العامة أنهم أصحاب القضية والمبدأ **{إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ}** [غافر:26].

أن يشعر العامة أنهم حماة الواقع وأصحاب الإصلاح.

إن أهم عناصر العصبية هي إنشاء الخوف على النظام الحاكم في نفوس الناس؛ ولذلك يعبر الناس عن الخوف قائلين: **{أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}** [الأعراف: 127].

وحينئذٍ يكون واجب النظام هو طمأنة الناس: **{قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ}**.

ومن أهم عناصر العصبية أن يشعروا بأنهم محور النظام، ومن هنا كان الضمير يعود على الناس: «أرضكم – طريقتكم – دينكم...».

قال تعالى: **{وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ المَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ}** [الزخرف: 51-56].

ولما كان الزخرف جزءًا من الواقع.. كان خطاب فرعون هروبًا من الحق في متاهات الواقع، فيقوم خطابه على المسلمات الواقعية لتحل محل مسلمات الحق..

فكان أول ما فعله: نداؤه في قومه، والكثرة لها رونق عند النداء، وأثر في العقول، وتلك طبيعة العقل الجماعي الباطل الذي يعتبر الجمع في ذاته معيارًا للحق..!

{أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ}.. وهكذا يستمد الشرعية لحكمه من استقرار وضعه.. **{وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي}**.

وحركة الأنهار من تحته تساهم مساهمة ضخمة في تأكيد معنى السيادة والاستقرار.. **{أَفَلَا تُبْصِرُونَ}**.

تضليل.. واستفزاز لقبول الضلال.. **{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}**.. ولا بد أن المقارنة ستكون لصالحه عندهم؛ لأنه ملكهم ورمز حياتهم ومثال قوتهم.. وهذا ما فعله فيهم وبهم.

وبذلك يتبين أن إطار التعامل الجاهلي مع الجماهير يقوم على البساطة المرتكزة على سذاجة الجماهير في إضلالهم وتحقيق عصبيتهم للضلال عن الحق.

وبعد عرض البعد الجماهيري للتصور السياسي.. قيمته وضرورته وأسس ممارسته، فإنه يجب أن يتقرر:

أن العمل الجماهيري لا يمثل بديلًا عن العمل العسكري ولا مقابلًا له ولا مؤثرًا فيه..

لأن حسابات العمل الجماهيري قائمة على هدف استيعاب «القوة الجاهلية» في تيار الحركة الإسلامية، أما هدف العمل العسكري فهو إضعاف هذه القوة وإفناؤها.

وفي حالة العمل الجماهيري المحقق «لاستيعاب» القوة الجاهلية، وفي حالة العمل العسكري

المحقق «لإفناء» القوة الجاهلية التي لم يستوعبها العمل الجماهيري.. لن تقوى «الجاهلية» على منع إقامة الحكم الإسلامي.

ولكن السنة الثابتة للتدافع بين الجاهلية والإسلام لن تترك التيار الإسلامي يستوعب الواقع الجاهلي بجماهيره وقوته دون أن تمنعه.

ومن هنا نشأ مفهوم حتمية العمل العسكري.. بحيث يصل هو الآخر إلى مرحلة السنة الثابتة للعمل الإسلامي.

ولذلك قرر ورقة بن نوفل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة المعاداة باعتبارها سنة ثابتة من سنن الثوابت، وليس باعتبارها حقيقة مستخلصة من خبرة الواقع.

فكانت حقيقة التدافع هي الحقيقة الأولى التي قالها النبي صلى الله عليه وسلم بعد حقيقة الوحي من حديث ورقة، إذ قال له بعد إخباره بالنبوة: يا ليتني كنت جذعًا إذ يخرجك قومك. قال: «**أوَمخرجيَّ هم؟!**».

قال: نعم.. ما أتى أحد بمثل ما أتيت به إلا أُخرج وعُودي[1].

---

(1) صحيح البخاري كتاب بدء الوحي (30/1/ ح 3 – فتح).

البعد العسكري:

سياسة القوة:

وهذا البعد من أخطر أبعاد التصور السياسي للحركة الإسلامية؛ وذلك لأن المستقر في الأذهان أن السياسة تقابل القوة، ولكن التصور السياسي يتضمن أن هذه السياسة توافق القوة أو توازيها في مهمة تحقيق الغاية النهائية للدعوة، ومن هذه الحقيقة ينطلق هذا البعد.

والتفسير السياسي للعمل العسكري يقوم على عدة عناصر:

- تحديد أهمية العمل العسكري قياسًا على الأبعاد الأخرى لمنهج الدعوة.
- تحديد ضرورة العمل العسكري وفقًا لظروف وواقع الدعوة.
- تحليل عناصر الممارسة العسكرية للاستفادة بفاعليتها في حال توقف الممارسة الفعلية للعمل العسكري كضرورة سياسية.

أما تحقيق ذلك في مجال الممارسة فإنه يقتضي عدة أمور:

- تحليل القوة العسكرية إلى عناصرها الأساسية في التنفيذ.
- الاستفادة بهذه العناصر بغرض التأثير في الواقع الجاهلي في حال توقف الممارسة الفعلية للقوة كضرورة سياسية.

وتفسير ذلك:

أن الجاهلية تعتبر الحركة الإسلامية قوة سياسية طالما أيقنت بقدرتها على الممارسة العسكرية.

والقوة العسكرية لها عناصر لا تقوم إلا بها، وإدراك الجاهلية لتوافر هذه العناصر لدى

الحركة الإسلامية ينشئ تأثيرًا عند الجاهلية لا يقل شأنًا عن الممارسة الفعلية للقوة العسكرية.

وهذه العناصر هي:

- الزعامة.. والولاء المطلق لها.
- القوة والمستوى المرتفع للكفاءة العملية.
- الاستعداد التام للبذل والتضحية.

كذلك تحليل القوة العسكرية إلى عناصرها الأساسية في التأثير وتحقيق هذه العناصر بصورة مباشرة في الواقع.. فتحقق آثار القوة العسكرية دون ممارستها وأهمها الرهبة وفرض الإرادة..

ولما كان تحقيق هذه العناصر في واقع الدعوة –سياسيًّا– يعتبر أهم ضرورات التصور السياسي للقوة؛ لذلك كانت المعاهدات باعتبارها مجالًا للربط بين السياسة والقوة هي أيضًا المجال الفعلي لإبراز هذه العناصر في الواقع.. مثلما كان في معاهدة الحديبية، حيث تحقق فيها مجمل العناصر المذكورة.

كما تقول كتب السيرة: خرج عروة بن مسعود زعيم ثقيف حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس بين يديه ثم قال:

يَا مُحَمّدُ.. أَجَمَعْت أَوْشَابَ النّاسِ ثُمّ جِئْت بِهِمْ إلَى بَيْضَتِك لِتَفُضّهَا بِهِمْ؟!

محاولة التأثير في حقيقة الجماعة فيصف المؤمنين برسول الله صلى الله عليه وسلم المجتمعين حوله، التاركين لأهلهم وديارهم، نُزَّاع القبائل.. بقوله: «أوشاب الناس».

ثم يقول:

إنّها قُرَيْشٌ قَدْ خَرَجَتْ مَعَهَا العُوذُ المِطَافِيلُ.. قَدْ لَبِسُوا جُلُودَ النّمُورِ، يُعَاهِدُونَ اللّهَ لَا تَدْخُلُهَا عَلَيْهِمْ عَنْوَةً أَبَدًا.. وَايْمُ اللّهِ لَكَأَنّي بِهَؤُلَاءِ قَدْ انْكَشَفُوا عَنْك غَدًا.

محاولة التخويف بأشد الأساليب.

إنها قريش.. قد خرجت معها العوذ المطافيل.

قد لبسوا جلود النمور.

يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدًا.

وايم الله لكأني بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدًا.

قال: وأبو بكر الصديق خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد، فقال: امْصُصْ بَظْرَ اللّاتِ، أَنَحْنُ نَنكَشّفُ عَنْهُ؟!

ولم يجد أبو بكر رضي الله عنه أمام تلك المحاولات وهذه الأساليب للتعبير عن الرفض إلا تلك العبارة.

فالإيمان العميق القوي أمام هذا المكر الخطير السخيف هو الذي أنطق أبا بكر.. أنحن ننكشف عنه؟!

نحن؟!.. نحن ننكشف عنه؟!

قال: مَنْ هَذَا يَا مُحَمّدُ؟ قَالَ: هَذَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، قَالَ: أَمَا وَاَللّهِ لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لَك عِنْدِي لَكَافَأْتُك بِهَا، وَلَكِنّ هَذِهِ بِهَا.

وتستمر المحاولة الكافرة الفاجرة..

قال: ثُمّ جَعَلَ يَتَنَاوَلُ لِحْيَةَ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يُكَلّمُهُ..

محاولة التأثير في مهابة رسول الله وشخصيته المبجلة في نفوس أصحابه..

فيعبر صحابي آخر عن رفض المحاولة، ولكن ليس بالكلام مثل أبي بكر ولكن باليد..

وَالْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ وَاقِفٌ عَلَى رَأْسِ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم فِي الحَدِيدِ.. قَالَ: فَجَعَلَ يَقْرَعُ يَدَهُ إذَا تَنَاوَلَ لِحْيَةَ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم وَيَقُولُ: اكْفُفْ يَدَك عَنْ

وَجْهِ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم قَبْلَ أَنْ لَا تَصِلَ إلَيْك..

فيقول عروة: وَيْحَكَ! مَا أَفَظّك وَأَغْلَظَك!

فَتَبَسّمَ رَسُولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم..

تبسم رسول الله.. لأن شخص صاحب الرد أبلغ من فعله.

فَقَالَ لَهُ عُرْوَةُ: مَنْ هَذَا يَا مُحَمّدُ؟

فكانت الإجابة التي زلزلت الكافر.

قَالَ: هَذَا ابْنُ أَخِيك المغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ..!

قَالَ: أَيْ غُدَرُ! وَهَلْ غَسَلْت سَوْءَتَك إلّا بِالأَمْسِ؟![1]

فقام من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد رأى ما يصنع به أصحابه..

بعد كل ما قاله.. العوذ المطافيل.. وجلد النمور وكل العبارات الخائبة..

- أبو بكر يقول كلمته..
- والمغيرة يضربه..
- والرسول يبتسم..

ثم.. قَامَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم وَقَدْ رَأَى مَا يَصْنَعُ بِهِ أَصْحَابُهُ:

لَا يَتَوَضّأُ إلّا ابْتَدَرُوا وَضُوءَهُ..

وَلَا يَبْصُقُ بُصَاقًا إلّا ابْتَدَرُوهُ..

وَلَا يَسْقُطُ مِنْ شَعْرِهِ شَيْءٌ إلّا أَخَذُوهُ..!

فرجع إلى قريش فقال: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! إنّي قَدْ جِئْت كِسْرَى فِي مُلْكِهِ، وَقَيْصَرَ فِي مُلْكِهِ، وَالنّجَاشِيّ فِي مُلْكِهِ..

فنكتشف من قوله سر اختيار قريش لهذا الرجل.. إنه جليس الملوك، خبير

---

(1) قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَرَادَ عُرْوَةُ بِقَوْلِهِ هَذَا أَنّ المغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ قَبْلَ إسْلَامِهِ قَتَلَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ بَنِي مَالِكٍ مِنْ ثَقِيفٍ، فَتَهَايَجَ الحَيّانِ مِنْ ثَقِيفٍ: بَنُو مَالِكٍ رَهْطُ المقْتُولِينَ، والأَحْلَافُ رَهْطُ المغِيرَةِ، فَوَدَى عُرْوَةُ المقْتُولِينَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ دِيَةً وَأَصْلَحَ ذَلِكَ الأَمْرَ، فهو يعايره بفعله من أجله.

المعاهدات.. أقصى إمكانية سياسية لدى قريش في هذا الموقف العصيب.

وها هو يتكلم ويقول رأيه النهائي:

وَإِنِّي وَاَللّهِ مَا رَأَيْت مَلِكًا فِي قَوْمٍ قَطّ مِثْلَ مُحَمّدٍ فِي أَصْحَابِه، وَلَقَدْ رَأَيْت قَوْمًا لَا يُسْلِمُونَهُ لِشَيْءٍ أَبَدًا، فَرَوا رَأْيَكُمْ!

فتلك هي العناصر القاتلة للجاهلية.. المسلمون مقاتلون في كل لحظة، ولا ينتظرون فقط إلا الإذن بالقتال، وهذا تفسير التسوية بين من قضى نحبه ومن ينتظر.. بين من قاتل ومن ينتظر القتال، فلكليهما نفس الأثر في قلوب الأعداء.. وبذلك يكون للسياسة أثر الدماء في تحقيق الهدف.

حماية الدعوة من الاصطباغ بالصبغة العسكرية البحتة:

ولا نعني بذلك نفي هذه الصبغة، ولكن نعني طغيان هذه الصبغة على الدعوة كحركة هداية ورحمة..

وبذلك يعني مفهوم **سياسة القوة:**

الحفاظ على الهدف النهائي للدعوة من خلال خط الممارسة العسكرية، بحيث لا تنفصل هذه الممارسة عن هذا الهدف النهائي.. وذلك باعتبار أن السياسة هي التي تتبنى تحقيق هذا الهدف من خلال أساليب الحركة المتعددة.

إن تقرير مبدأ القوة في التصور السياسي لا يعني أن توقفها تخلٍّ عن مبدأ من مبادئ الدعوة؛ لأن الممارسة والتوقف مرتبط بالهدف والواقع.. والتصور السياسي هو الحكم المنهجي لتلك الممارسة.

إن تحقيق التعاطف بتحقيق المنفعة والإقناع العقلي والقدوة الصالحة والصبر على الأذى والبذل والتضحية.. هو الأساس في إقامة سلطان الحق على النفوس.

وكلها عوامل محققة لغاية الهداية، والقوة واحدة من هذه العوامل.

وبذلك يكون تحقيق هذه العوامل مع مجمل العناصر المذكورة الناشئة عن تحليل القوة العسكرية تنفيذًا أو تأثيرًا هي إطار التصور السياسي للقوة.

ولما كانت الهداية هي الهدف النهائي للدعوة.. كانت كذلك هي القيمة العليا للممارسة السياسية، وكانت **سياسة القوة** هي تحقيق الهداية بالقتال.

ومقتضى ذلك يمثل أهم عناصر سياسة القوة:

- التبليغ قبل القتال.

- دعوة الأسرى.

- قبول استجارة المشرك.

- الجنوح للسلم إذا جنحوا له.

- قبول توبة من لم تصله يد القدرة **{إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ}** [المائدة: 34].

وفي إطار حماية الدعوة من الاصطباغ بالصبغة العسكرية البحتة.. تتحدد العلاقة بين أساليب الحركة المتعددة والهادفة إلى تحقيق الغاية النهائية للدعوة بأساس نفسي ثابت.

وفي هذا الإطار تتحدد العلاقة بين أساليب الحركة المتعددة، والهادفة إلى تحقيق الغاية النهائية للدعوة.. ومنها القوة.

فتحقيق التعاطف بتحقيق المنفعة والإقناع العقلي والقدوة الصالحة والصبر على الأذى والبذل والتضحية.. هو الأساس في إقامة سلطان الحق على النفوس.

وكلها عوامل محققة لغاية الهداية، والقوة واحدة من هذه العوامل.

وبذلك يكون تحقيق هذه العوامل مع مجمل العناصر المذكورة الناشئة عن تحليل القوة العسكرية تنفيذًا أو تأثيرًا هي إطار التصور السياسي للقوة.

ومن هنا يتحقق التوازن بين تلك العوامل في واقع الممارسة بأساس نفسي ثابت.

ووصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم **هي الدليل على هذه الحقيقة:**

– فقد مر حديث جرير بن عبد الله الذي دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثبات على الخيل في القتال، مع الدعاء له بأن يكون هاديا مهديا[1].

– وفي فتح مكة حين قال سعد بن عبادة لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، وعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلمة سعد فقال: «**اليوم يوم المرحمة**».

– وحين أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب لقتال خيبر، وقال علي: نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال رسول الله: «**على رسلك! حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يهدي بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**».

– وبلغ حرص النبي صلى الله عليه وسلم على هداية قومه مبلغًا عظيمًا، فكان يحزن حزنًا شديدًا، على عدم إيمانهم، حرصًا منه على الخير، ونصحا لهم.

فلهذا قال تعالى عنه: **{لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ}** [الشعراء: 3] أي: مهلكها وشاق عليها، **{أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}** أي: فلا تفعل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن

---

(1) انظر: بداية الفصل الرابع عند الحديث عن الهداية.

الهداية بيد الله، وقد أديت ما عليك من التبليغ، وليس فوق هذا القرآن المبين آية، حتى ننزلها، ليؤمنوا بها، فإنه كافٍ شافٍ، لمن يريد الهداية[1].

– وفي قوله تعالى: **{فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ}** دعوة واضحة للتجرد من الشعور الشخصي بين المسلمين وأعدائهم وأن يكون إحساسهم بأعدائهم مرهون بالمنهج ومقتضياته.

يقول سيد قطب في ظلاله تعليقًا على هذه الآية:

«هنا يدعو القرآن المؤمنين إلى الارتفاع عن مقابلة الحقد بالحقد، والشر بالشر، ويدعوهم إلى الصفح والعفو حتى يأتي الله بأمره، وقتما يريد..

وهكذا.. يوقظ السياق القرآني وعي الجماعة المسلمة ويركزه على مصدر الخطر، ومكمن الدسيسة؛ ويعبئ مشاعر المسلمين تجاه النوايا السيئة والكيد اللئيم والحسد الذميم..

ثم يأخذهم بهذه الطاقة المعبأة المشحونة كلها إلى جناب الله؛ ينتظرون أمره، ويعلقون تصرفهم بإذنه..

وإلى أن يحين هذا الأمر يدعوهم إلى العفو والسماحة، لينقذ قلوبهم من نتن الحقد والضغينة، ويدعها طيبة في انتظار الأمر من صاحب الأمر والمشيئة»[2].

فتقرير مبدأ القوة في التصور السياسي.. مرتبط بالهدف والواقع.. والتصور السياسي هو الحكم المنهجي لتلك الممارسة.

---

(1) انظر: تفسير السعدي للآية.

(2) في ظلال القرآن لسيد قطب.

وبذلك يعني مفهوم **سياسة القوة**: الحفاظ على الهدف النهائي للدعوة من خلال خط الممارسة العسكرية، بحيث لا تنفصل هذه الممارسة عن هذا الهدف النهائي.. وذلك باعتبار أن السياسة هي التي تتبنى تحقيق هذا الهدف من خلال أساليب الحركة المتعددة.

إن الظهور العسكري البحت أو الغالب للدعوة هو الذي سيحرمها من التعاطف الذي يمثل الجذور الحقيقية لحجم كيانها في الواقع.

إن المعيار النهائي لبعد القوة هو حماية الدعوة من محاولة الجاهلية الهادفة إلى اقتلاع الدعوة من الواقع أو الاستهانة بها في التعامل.

أما وصول الدعوة إلى تعامل الجاهلية كطرف له اعتباره القوي فإن هذا يقتضي فكرًا سياسيًّا تحافظ به الدعوة على هذه المرحلة.

البعد الاجتماعي:

اتفقنا في النظرية السياسية على أن التوافق بين الواقع الحركي والاجتماعي يعتبر شرطًا أساسيًّا في صحتها، وهذا التوافق هو الذي تحاول الجاهلية القضاء عليه، من خلال إنشاء التناقض بين الجانب الحركي والجانب الاجتماعي للدعوة.

والتناقض الذي تحاول الجاهلية إنشاءه يتمثل بصورة أساسية في الإسقاط الاجتماعي للدعوة، هذا الإسقاط الذي يُظهِر الدعوة بصورة متردية ومنحطة، لا تتوافق مع مستوى قضية الدعوة وواقعها الحركي.

ومحاولة الإسقاط الاجتماعي للدعوة أسهل من مواجهتها فكريًّا؛ ذلك لأن هذه المحاولة سيكون التعامل فيها مع الإنسان بضعفه ونقائصه، الأمر الذي يختلف عن المواجهة الفكرية التي سيكون التعامل فيها مع النصوص الشرعية الثابتة.

وكما أنها أسهل فهي أخطر.. ذلك لأن الناس في البداية لا يتعاملون مع الدعوة كقضية فكرية قبل رؤيتهم لصورة الدعوة الاجتماعية.. وعلى هذا فإن الإسقاط الاجتماعي يعني قطع الصلة وبصورة نهائية بين الناس والدعوة.

ومحاولة الإسقاط الاجتماعي للدعوة بدأت من الأيام الأولى..

وكانت هذه البداية هي وضع واقع الدعوة في ميزان التصور الاجتماعي الجاهلي.

فاعتبرت الجاهلية أن النبي صلى الله عليه وسلم أبتر؛ لأنه لا ولد له.

كما اعتبرت النبي صلى الله عليه وسلم لا يستحق النبوة؛ لأنه ليس رجلًا من القريتين عظيم.

واعتبرت أن الدعوة ليست صحيحة؛ لأن أتباعها فقراء.

ولكن هذه البداية لم تنجح؛ لأن الدعوة فرضت تصورها الاجتماعي، وأسقطت التصور الاجتماعي الجاهلي ذاته.

ولعل أبرز مواقف المحاولة الجاهلية كان عند المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ ذلك لأن المؤاخاة كانت علاقة اجتماعية كاملة تحققت كمقتضى للتوافق بين الجانب الحركي والاجتماعي للدعوة، فبلغت الجاهلية أقصى ما عندها في مواجهة هذه المؤاخاة؛ سواء من جانب المشركين أو المنافقين أو اليهود، ولكن المحاولات فشلت حتى تحقق الهدف من المؤاخاة ثم تقرر العودة بالعلاقة الاجتماعية إلى أساسها الطبيعي، وهو صلة الدم والقربى بعد أن كان الأساس الحركي هو أساس العلاقة في موقف المؤاخاة[1].

---

(1) وهو معنى قول الله عز وجل: **{وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ}**.

{النَّبِيُّ أَوْلَى بِالمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ مِنَ المُؤْمِنِينَ وَالمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الكِتَابِ مَسْطُورًا} [الأحزاب: 6].

{وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنفال: 75]

وإذا التقطنا هذا الخيط فإننا ندرك أن واقع الدعوة –منذ البداية حتى الواقع القائم الآن– كان محاولة لتحقيق التوافق بين الجانب الحركي والاجتماعي بإنشاء الواقع الاجتماعي المتناسب مع القضية الإسلامية فكريًّا وحركيًّا.

وكان من ناحية الجاهلية هو إحداث التناقض بين هذين الجانبين بإسقاط الدعوة اجتماعيًّا، وبهذا الإدراك يمكننا تحليل الواقع القائم الآن للدعوة بقدر من التفصيل.

– فمن ناحية الدعوة تَمَثَّل الخلل الاجتماعي –أول ما تمثل– في مجرد إعلان الولاء للتجمع واتجاهه من جانب الأفراد المنتمين إلى الدعوة لتحقيق الارتباط العضوي بالتجمع دون النظر إلى الجانب التربوي والأخلاقي لهؤلاء الأفراد.

وكانت هذه مرحلة وسط بين الوضع المثالي ووضع الانحطاط الكامل المتمثل في المرحلة الثالثة.. وهي مرحلة الانتساب إلى الاتجاه الإسلامي بمجرد الهَدْيِ الظاهر: «الجلباب – اللحية – الحجاب»..

وكان مدخل هؤلاء المنتسبين هو مجرد هذا الالتزام الشكلي.. دون أن يكون هناك الكيان المستقطب القائم على مهمة التربية والتأصيل الأخلاقي.

– يضاف إلى هذا الخطر خطر آخر يساويه، وهو الشعور غير الشرعي بالذات، الناشئ عن الاعتزاز بالانتساب للدعوة صاحبة الأحداث المؤثرة في الواقع.

هذا الاعتزاز الذي نشأ من غير مشاركة فعلية في الأحداث وتحمل مسئوليتها.. والذي سبب ضررًا نفسيًّا بالغًا؛ لأنه اعتزاز بالانتساب الذي يفتقد المسئولية والتضحية والبذل.

هذا الشعور الذي أضاع الفضل الحقيقي لأصحابه في واقع الدعوة مما أحدث اضطرابًا في العلاقات الاجتماعية، وأحدث هذا الاضطراب بدوره ظاهرة الفوضى الاجتماعية التي تعاني منها الدعوة معاناة شديدة.

فأصبح الجميع دعاة وذوي تاريخ..!!

الأمر الذي يتنافى مع قاعدة ارتباط الفضل الاجتماعي في واقع الدعوة بالسبق والتضحية والعمل في سبيل الله..

ثم يضاف إلى شكلية الالتزام، وضياع حق أصحاب الفضل في واقع الدعوة:

خط التشتت الاجتماعي المترتب على معاناة الاعتقالات والسجون، والاحتياج المادي الذي يسبب الإرهاق النفسي الشديد.

ثم كان الخطر الأكبر من خلال إنشاء العلاقات الزوجية تحت مظلة هذه الأخطار المتعددة..

في واقع انحطاط الأخلاق وضياع الأمانة.

وفي واقع الانتساب الشكلي بالهدي الظاهر فقط.

وفي واقع الشعور بالغرور والشعور غير الشرعي بالذات وضياع حق أصحاب الفضل.

وفي واقع الاحتياج المادي والإرهاق النفسي الناشئ عن السجن والاعتقال.

واقع هذا الزواج.. أوجد أسرة أصبحت هي بذاتها مشكلة، وأصبحت محاولة علاجها الشغل الأساسي لأصحاب الدعوة، كما أصبحت معالجة آثار إخفاقها بعد الإخفاق في معالجتها.. عبئًا لا يطاق.

ثم يأتي بعد ذلك الدور الجاهلي القائم على استغلال هذه الأوضاع بأبشع صور ممكنة..

أما من ناحية الجاهلية فقد جاء منها أخطر الأساليب في محاولة الإسقاط الاجتماعي للدعوة، وهي تحريض العناصر الفاسدة على التشبه بالمظهر الإسلامي مع تحريفه، بحيث تسقط مهابة هذا المظهر من نفوس الناس، ويضيع تقديرهم لسماتهم وشكلهم.

وسواء كان انتشار هذه العناصر أمرًا مقصودًا أو حدث بصورة تلقائية فإن النتيجة واحدة.

فكيف تحمي الدعوة نفسها من هذه النتيجة؟

لقد كان الإسلام قادرًا على حماية نفسه من هذه النتيجة يوم كان حكمه غالبًا وأحكامه سائدة، وكان أهم هذه الأحكام هو منع غير المسلمين من التشبه بالمسلمين.

وكان من أخطر هذه الأساليب الجاهلية كذلك هي إيقاع الضرر على العامة وتفسير هذا الضرر على أنه نتيجة حتمية للدعوة؛ ليحدث الانفصال بين العامة والدعوة..

مثل المقاطعة الاجتماعية التي فرضتها قريش على بني عبد المطلب؛ حتى يمارسوا ضغطًا على أصحاب الدعوة.

ولعل حادثة مقاطعة بني عبد المطلب -المذكورة آنفًا- بإيقاع أضرار عليهم بصفة

عامة بسبب أصحاب الدعوة لإيجاد الكُرْه، وإنشاء الحاجز.. مثال تاريخي على هذا الأسلوب.

مفهوم الدفاع الاجتماعي:

والآن لا بد من الدفاع الاجتماعي عن الدعوة.

وهذا المفهوم له عناصر يمكن تحديدها من خلال المحاولة التي تمارسها الجاهلية لإسقاط الدعوة اجتماعيًّا.

- وقد اتفقنا أن أول تلك العناصر هو افتقاد الكيان الواحد المسيطر على الامتداد الاجتماعي، ولما كان وجود الكيان الواحد مرتبطًا بمشكلة الفكر والمنهج.. فإن المعالجة الاجتماعية يجب أن تنفصل عن هذه المشكلة.. بمعنى ضرورة إنشاء سلطة اجتماعية تتولى مواجهة المشكلات الاجتماعية في إطار بعيد عن مشكلة الاختلاف الفكري.

وهذا ما فسره الإمام الجويني حيث قال في كتاب «غياث الأمم في التياث الظلم»: أن يتولى كل عالم في ناحية من النواحي، أو حي من الأحياء، السلطة المفقودة للأمراء في هذا الحي.

- ثم تأتي مواجهة ضياع حق أصحاب الفضل بترسيخ قواعد التعامل الاجتماعي المحددة لهذا الحق:

– حق العلماء الذي يوجب تقديمهم وتوقيرهم وإيثارهم على أنفسنا.

– حق أصحاب السبق الزمني، وهو المقرر في قول الله **سبحانه وتعالى**: **{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ**

عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ} [التوبة: 100].

- ومفهوم الدفاع الاجتماعي يوجب تحديد أساس التعامل الاجتماعي بين أصحاب الدعوة والواقع القائم.

ويجب أن يتقرر ابتداءً أن الناس ينظرون إلى أصحاب الدعوة من خلال مفهوم المثالية؛ لأنهم يمثلون في نظرهم واقع التطبيق الصحيح للدين.

وظهور أي نقيصة أو خطأ سلوكي لن ينظر له على أنه أمر طبيعي محتمل، ولكن سينظر إلى صاحبه على أنه إنسان سيئ يحاول الوصول إلى مكانة لا يستحقها لينال تقديرًا بغير حق.

كما أن الناس ينظرون إلى أصحاب الدعوة على أنهم الفئة التي من الممكن أن تحكمهم في يوم ما، فيرغبون بصورة قوية في الاطمئنان على أمانتهم وسماحتهم وحسن خلقهم؛ لأن أي خطأ يراه الناس يرتبط في أذهانهم بهذا الاحتمال.

فيقول كل من يرى الخطأ في نفسه: هكذا يفعل أصحاب الدعوة الآن وهم لم يزالوا بعد مستضعفين، فماذا سيفعلون لو كان الأمر بيدهم؟!

وعند حدوث أية مشكلة اجتماعية بين الناس وبين أحد أفراد الدعوة يجب أن لا تأخذ هذه المشكلة صورة العداء بين الجاهلية والإسلام.

لأن احتمال خطأ هذا الفرد المنتسب للدعوة قائم أمام الآخرين، وهذا هو مضمون الموقف الذي نزل فيه قول الله عز وجل: ﴿ٻ ٻ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □
□ □ □ □ □ ٱ ب ٻ ٻ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ﴾

[النساء: 105- 107].

حيث جاء في التفسير:

أن نفرًا من الأنصار غزوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فَسُرِق درع لأحد الأنصار، فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم بنو أبيرق، فأتى صاحب الدرع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن طعمة بن أبيرق سرق درعي. فلما رأى ذلك السارق عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي اسمه زيد بن السمين، وقال لنفر من عشيرته: إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان، فانطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقولوا: إن صاحبنا بريء وإن الذي سرق الدرع فلان، وقد أحطنا بذلك علمًا؛ فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس.. فنزلت الآية تبرئ اليهودي.

وفي مثل هذه الحالة يتمثل واجب نصرة الأخ في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**انصر أخاك ظالما أو مظلومًا**».. في رد الأخ عن ظلمه[1] «**فإن ذلك نصره**».

إن معالجة أي مشكلة عارضة بتلك القاعدة يكون بذاته أفضل أسلوب للدعوة، أما إعطاء المشكلة الاجتماعية العارضة أبعاد العداء بين الجاهلية والإسلام فذلك تصرف باطل.

لأن صورة العداء بأبعاده الكاملة لا تتفق مع المشكلات الشخصية العارضة، مثلما حدث مع موسى والذي استغاثه.. لقد كانت مشكلة عارضة حدثت بين رجل من بني إسرائيل ورجل من الأقباط، وتصرف فيها موسى عليه السلام بصفة شخصية لا تتعلق بمنهج الدعوة ومرحلتيها فقتل القبطي، واعترف بأن هذا العمل من الشيطان:

---

(1) أخرجه البخاري في المظالم، باب أعن أخاك ظالما أو مظلوما (5/117/ ح 2443 – فتح) عن أنس مرفوعًا، وعند مسلم عن جابر وفيه: «**لينصر الرجل أخاه ظالما أو مظلوما**..» الحديث.

{وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ} [القصص: 15]

ولكن موسي الذي أقر بأن قتل القبطي كان من عمل الشيطان.. كان سببًا في غرق فرعون وجنوده بصفة منهجية ترتبط بمنهج الدعوة ومرحلتيها، وكان هذا عملًا طيبًا مقبولًا، ولم يكن من عمل الشيطان.

حقيقة الاستضعاف:

- ومما يجب الحذر منه.. أن تؤثر الضخامة العددية لأصحاب الدعوة على الإحساس بالاستضعاف؛ لأن الضخامة العددية تسبب اعتزازًا وثقة تؤثر في أسلوب معالجة المشكلات العارضة بين أفراد الدعوة والجاهلية.

فالاستضعاف هو مرحلة ما قبل الوصول للسلطة، حتى لو كان هناك قوة شخصية أو كثرة عددية.

ومعالجة المشكلة العارضة يجب أن ترتبط بمرحلة الاستضعاف للدعوة ولا يجوز تجاوزها.

وقد يكون للقوة الشخصية نفس أثر الضخامة العددية في إضعاف الشعور بالاستضعاف.

وهذا عمر بن الخطاب لم يكن يدانيه أحد في قوته الشخصية، حتى إنه هدد من يحاول تتبعه في الهجرة فقال: «**من أراد أن تثكله أمه، ويؤتم ولده، وترمل زوجته..**

فليلقني وراء هذا الوادي، فما تبعه منهم أحد»[1].

ومع ذلك كان مستضعفًا؛ لأنه كان مرتبطًا بالجماعة المستضعفة التي لم يُمَكن لها بعد.

الدفاع الاجتماعي يبدأ من بيت الدعوة:

ومن أهم الحقائق المفترضة في صراعنا مع الجاهلية أنه صراع اجتماعي، قائم بين واقع إسلامي وواقع جاهلي.

وافتراض هذه الحقيقة يحتم أن يدخل المسلمون بتلك الصفة الاجتماعية في كل مراحل الصراع.. من لحظة الاستضعاف إلى فرصة التمكين ووقت الامتداد.

والدخول بالأسرة المسلمة في مجال الصراع باعتبارها الواقع الاجتماعي للفرد الداعية.. هو الوسيلة الأساسية لتحقيق الصفة الاجتماعية لواقع الدعوة في هذا الصراع.

فتدخل الأسرة في مجال الصراع، ويأخذ البيت وضعه في اتجاه الحركة، وتدخل معها المشاعر والغرائز في طاقة التحرك، وتنضم فيها الزوجة إلى دوافع العمل، وتتحول بها الذرية إلى إمكانية امتداد بشرى للدعوة؛ فيتحقق التجرد والتحرر والانطلاق الحركي.. مع الارتباط الأُسَري والالتزام الاجتماعي والاحتياج المعيشي.

كما تنشأ الحدود الفاصلة بين الصواب والخطأ بمقياس الدعوة في حياة الدعاة، مثل الحد بين زينة الله التي أخرج لعباده والترف المحظور، وبين السكن إلى الزوجة والركون إليها، وبين السعي المشروع للرزق والانشغال المنهي عنه بالمال، وبين الحب الفطري للذرية والافتتان بها.

---

(1) أورده صاحب كنز العمال وعزاه لابن عساكر (هامش أحمد: 287/4).

كما يتحدد الحد بين ممارسة الدعوة كهواية لا تتعدى حدود الميول الشخصية وبين أن تكون الدعوة رسالة لها حياة الدعاة واستشهادهم[1].

والواقع أن هناك حديثًا قدسيًّا يعالج قضية المحافظة على البناء الاجتماعي بعد فترة الاستضعاف.

وإليك نصه أولًا:

عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ بْنِ الشّخّيرِ، عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ المجَاشِعِيّ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلمقَالَ، ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «**أَلاَ إِنّ رَبّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمّا عَلّمَنِي، يَوْمِي هَذَا: كُلّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلاَلٌ، وَإِنّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلّهُمْ، وَإِنّهُمْ أَتَتْهُمُ الشّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنّ اللّهَ نَظَرَ إِلَىَ أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ. وَقَالَ: إِنّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لاَ يَغْسِلُهُ المَاءُ، تَقْرَأُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ. وَإِنّ اللّهَ أَمَرَنِي: أَنْ أُحَرّقَ قُرَيْشًا، فَقُلْتُ: رَبّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً، قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ، وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ. قَالَ: وَأَهْلُ الجَنّةِ ثَلاَثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدّقٌ مُوَفّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ القَلْبِ لِكُلّ ذِي قُرْبَىَ وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفّفٌ ذُو عِيَالٍ. قَالَ: وَأَهْلُ النّارِ خَمْسَةٌ: الضّعِيفُ الّذِي لاَ زَبْرَ لَهُ، الّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لاَ يَتْبَعُونَ أَهْلًا وَلاَ مَالًا، والخَائِنُ الّذِي لاَ يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ، وَإِنْ دَقّ إِلاّ خَانَهُ، وَرَجُلٌ لاَ يُصْبِحُ وَلاَ يُمْسِي إِلاّ وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ. وَذَكَرَ البُخْلَ والكَذِبَ وَالشّنْظِيرُ الفَحّاشُ، وَإِنّ اللهَ أَوْحَى إلي: أَنْ تَوَاضَعُوا حَتّى لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ علىَ أَحَدٍ،**

(1) انظر: «بيت الدعوة» للكاتب.

وَلاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»[1].

والملاحظة العامة في هذا الحديث هو معالجته لعدة مراحل مرتبطة ببعضها:

1- نظرة شاملة لمرحلة ما قبل البعثة، وبداية الأمر فيها، وإثبات الأصل الذي كان عليه الوجود البشري: «**كُلّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا، حَلاَلٌ**».. «**وَإِنّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلّهُمْ**».

«**إِنّ رَبّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ**».

هذه مقدمة ضرورية للحديث.. لأن الحديث يثبت أهمية النبي صلى الله عليه وسلم بصورة خطيرة.. صورة افتقار البشر جميعًا إلى الرسالة..

مما يقتضي إثبات افتقاره هو في رسالته إلى ربه.

والرسالة من الله أمر وعلم..

والأمر من الله: «**إِنّ رَبّي أَمَرَنِي**»..

والعلم من الله: «**أَنْ أُعَلّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ**»، والعلم يوم بيوم: «**مِمّا عَلّمَنِي، يَوْمِي هَذَا**».

ليس لي علم إلا ما علمنيه ربي، وليس لي علم مسبق، إنما أتعلم يومًا بيوم.

وهذه هي المقدمة.. «**كُلّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلاَلٌ**».. والمال رمز لكل شيء آتاه الله

---

(1) رواه مسلم في الجنة، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (197/17/6 – نووي)، وأحمد في المسند (266/4) عن عياض بن حمار المجاشعي. انظر: فتح ذي الجلال لتخريج أحاديث الظلال برقم (406) ستجد مصادر أكثر.

إنسانًا، فالأصل في عطاء الله الحِلّ.

«**وَإِنّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلّهُمْ**».. فكل مولود يولد على الفطرة، والأشياء على حلها ما لم تحرَّم.

ثم جاءت الشياطين «**فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**»..

ونشأ الحرام «**وَحَرّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لهُمْ**».

اجتالت الشياطين الدين.. وملأت الأرض بالحرام.. «**وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**».. «**وَإِنّ اللّهَ نَظَرَ إِلَىَ أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ**».. والمقت أشد الغضب.

«**إِلاّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ**» المتمسكون بدينهم الحق من غير تبديل.

والنبي والبشر أمام مسئولية الرسالة سواء: «**إِنّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبتَلِيَ بِكَ**..».

وحتى لا يكون التبديل واجتيال الدين: «**أَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لاَ يَغْسِلُهُ المَاءُ**».

باقيًا لا تجري عليه سنن الفناء.

وأسبابه ثابتَة: «**تَقْرَأُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ**».. وهذه هي البعثة.

ويُقِرُّ النبيُّ بضعفه وافتقاره إلى ربه.. «**رَبّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً**».

لقد كانت شكوى من يريد طاعة الأمر وتنفيذه، ولم تكن شكوى التردد أو التراجع.

فلما علم الله منه ذلك أعطاه ما يقوى به على أعدائه الذين يريدون ثلغ رأسه.

هذا هو الاستضعاف.

فيقول القوي الغني: «**اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ**».

«**وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ**».. وافتح عليهم بلادهم.. نفتح عليك مددنا.

فالله قادر عليهم، ولكن لابد أن تكون البداية من الرسول صلى الله عليه وسلم كما قال الله: **{ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ البَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}**[المائدة: 23].

«**وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ**».

واطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وعد الله، فكان يقول لبلال: «**أَنْفِقْ يَا بِلاَلُ، وَلاَ تَخْشَ مِنْ ذِي العَرْشِ إِقْلاَلًا**». وكان يقول صلى الله عليه وسلم: «**لو أن لي مثل جبل أحد ذهبًا لأنفقته هكذا وهكذا وهكذا**».. في كل اتجاهات الخير.. وكل مجالات الدعوة.

«**وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ**».

وهو المستوى الثابت للتأييد الدائم للمؤمنين في القتال، وقد يفوق التأييد هذا المستوى مثل غزوة بدر، حيث كانت الملائكة بنسبة الأضعاف الخمسة بكثير.

«**وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ**».

الطائعون يقاتلون العاصين، فالقضية هي الدين، والقتال حتى يكون الدين لله، وبذلك يكون النصر كما جاء في خواتيم سورة البقرة **{وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ}** [البقرة: 285].

وبذلك يكون التمكين.

وبعد المقدمة.. والبداية.. والبعثة.. والاستضعاف.. والتمكين..

قام المجتمع المسلم.

(2) فكيف يكون حفظه بعد قيامه؟..

هذا بصفات أهل الجنة الثلاث:

«ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ»

السلطة العادلة غير الظالمة..

السلطة الباذلة كل جهدها ومالها..

هذه السلطة هي الموفقة الملهمة الصائبة دائمًا، لأنها قامت بالحق والعدل والتجرد، فبقي الحق معها، أما الرعية فيمثلها رجلان:

- «**رَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى، وَمُسْلِمٍ**».

- «**وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ**»، فرغم أن فوقه ذو سلطان مقسط متصدق، وبجانبه رجل رحيم رقيق القلب لمن هو مثله، حتى أصبح محاطًا بالعدل والرحمة والصدقة والرقة؛ ومع ذلك فالرجل عفيف متعفف.. رغم أنه ذو عيال!

وهذه الصفات هي عناصر البناء الاجتماعي للدولة المسلمة.

وبهذه الصفات يكون المجتمع المسلم وتكون الأمة وتكون الجنة.

وكما ارتبط المجتمع المسلم بالجنة، ارتبط المجتمع الكافر بالنار، فجاء بعدها صفات أهل النار الخمسة.

- «**الضَّعِيفُ الَّذِي لاَ زَبْرَ لَهُ، الَّذِينَ هُمْ فِيكُمْ تَبَعًا، لاَ يَتْبَعُونَ أَهْلًا وَلاَ مَالًا**» الحثالة الفارغين.. كمالة العدد.

- «**وَالْخَائِنُ الّذِي لاَ يَخْفَى لَهُ طَمَعٌ** – أي لا يظهر–، **وَإِنْ دَقّ إِلاّ خَانَهُ**»، والخونة بطبعهم وتكوينهم وتصرفهم التلقائي.

- «**وَرَجُلٌ لاَ يُصْبِحُ وَلاَ يُمْسِي إِلاّ وَهُوَ يُخَادِعُكَ عَنْ أَهْلِكَ وَمَالِكَ**».

المخادعون: عن العرض والمال..

وأهل البخل والكذب، والشنظير – سَيِّئ الخلق– الفاحش.

«**وَإِنّ اللهَ أَوْحَىَ إِلي: أَنْ تَوَاضَعُوا حَتّىَ لاَ يَفْخَرَ أَحَدٌ على أَحَدٍ، وَلاَ يَبْغِي أَحَدٌ عَلَىَ أَحَدٍ**».

فالتواضع يمنع الفخر الذي إذا امتنع.. امتنع معه البغي.

وبصفات أهل النار تكون نهاية المجتمع، ونهاية الأمة، وتكون النار!

البعد الاقتصادي:

والبعد الاقتصادي للنظرية السياسية بُعدٌ منطقي؛ لأن المال له قوة نفسية واجتماعية بلغت حد الأثر في العقيدة والإيمان الذي أنشأ الخوف الشديد على أصحاب الدعوة من فتنة المال، كما قال تعالى: **{وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}** [الزُّخرُف:33- 35].

ومن أجل هذا التأثير نستطيع أن نقول: إن أخطر أحداث الدعوة كان إنفاق عثمان بن عفان قافلته على المسلمين، وإن أخطر أحداثها من الجانب الآخر كان قرار مقاطعة قريش لبني عبد مناف الاقتصادية.

وليس أدل على أثر الاقتصاد السياسي من دعاء موسى بحسم الصراع بينه وبين فرعون في قوله سبحانه: **{رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ}** [يونس: 88].

وكذلك دعوة النبي صلى الله عليه وسلم بحسم الصراع مع قريش بقوله: «**اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف**»[1]، وفي رواية: «**بسبع كسبع يوسف**».

ولأجل هذا الأثر الاقتصادي على الدعوة كانت العلاقة بين الممارسة الاقتصادية والسياسية تلقائية في فهم الصحابة.

(1) أخرجه البخاري (436/8/ ح 4823 – فتح)، والترمذي (389/5/ ح 3254).

وهذا ثمامة يرجع إلى قومه مسلمًا يعلن لهم إسلامه ويعلن لقريش مع إسلامه: لقد أسلمت، ولن تأخذوا حبة قمح حتى يأذن لكم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم[1].

وبهذا الفهم التلقائي أدركت إحدى النساء مغزى تصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أعطى قبيلتها مالًا وزادًا، ثم أخذ يحارب القبائل الأخرى فقالت: والله ما أرى أن محمدًا قد ترككم بعد أن أعطاكم هذا المال والزاد ثم ذهب ليقاتل القبائل غيركم إلا لأجل شيء يريده منكم، وأرى أنه الإسلام.. فأسلمت وأسلمت معها القبيلة[2].

كما يتساوى البذل بالنفس والبذل بالمال في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من جهز غازيًا فقد غزا، ومن خلفه في أهله فقد غزا**»[3]، فتساوى التجهيز بالمال للغزو والخلف في الأهل بعد الغزو.. مع الغزو نفسه عند الله **سبحانه وتعالى**.

والحقيقة أن العلاقة بين الاقتصاد والسياسة هي نفسها العلاقة بين العمل العسكري والسياسة، وذلك في مضمون فرض الإرادة.

فكما أن التصور العسكري يفرض إرادة المنتصر، فإن الجزية هي التي تبقي على فرض تلك الإرادة.

من أجل ذلك كان اعتبار عنصر المال من أخطر عناصر الدعوة المحققة لأهدافها، ولكن هذا العنصر المهم في ذاته تعتبر نتيجته خطيرة في ذاتها؛ لأن المال هو فتنة هذه

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) أخرج القصة البخاري في التيمم، باب: الصعيد الطيب وضوء المسلم (531/1/ ح 344).

(3) رواه البخاري في الجهاد، باب: فضل من جهز غازيًا (59/6/ ح 2843 – فتح)، ومسلم في الإمارة، باب: فضل إعانة الغازي في سبيل الله تعالى بمركوب وغيره: (40/13/5 – نووي).

الأمة كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال**»[1].

ولعل قصة ثعلبة[2] الذي نزل فيه قول الله عز وجل: **{وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}** [التوبة: 76].. دليل على شدة خطر المال على النفس، وحتى لا نظن أنها حالة فردية.. كانت هذه المواجهة القرآنية الحاسمة للمؤمنين في غزوة أحد: **{مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ}** [آل عمران: 152].

وعند تعميق الإحساس بخطر المال في واقع الدعوة لن تجد أشد من هذا الموقف الذي نرى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى الناقتين اللتين أعدهما أبو بكر للهجرة وهو يقول له: «**بالثمن يا أبا بكر**».

إن الظروف أكبر وأقوى من أن يذكر فيه المال..

لأنهما اثنان مطلوب موتهما يُعدان أسباب نجاتهما..

ولكنها النبوة التي تضع الأسس وترسي القواعد: «**بالثمن يا أبا بكر**».

كما لن نجد حقيقة تدل على خطر المال أقوى من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّين**»[3].

الشهيد..! الشهيد..! نعم.. إلا الدَّين.

فإذا كان هذا مع الشهيد، فليس لأحد من المسلمين خروج عن حساب المال.

---

(1) أخرجه الترمذي (2336/26) وصححه الألباني.

(2) ورد تضعيف هذه القصة من حيث نسبتها إلى ثعلبة البدري، ولكن ثعلبة المذكور غيره.

(3) أخرجه أحمد (220/2، 7051)، ومسلم (1502/3، 1886).

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل قبل أن يصلي على الجنازة: «**هل عليه من دَين؟**» فإن قالوا: نعم، قال: «**صلوا على صاحبكم**» إلا أن يقول رجل: دَينه علي[1].

ذلك لأن الزهد القلبي هو الذي يحقق المعادلة بين ضرورة المال للدعوة وخطورة المال على الدعاة، لأن الزهد ليس معناه ألا أملك.. ولكن معناه القدرة على إنفاق ما أملك.

ومن هنا أصبح النجاح في تحقيق أساس اقتصادي للدعوة هو دليلٌ أصليٌّ وجوهريٌّ على صحة الإيمان، ولعل الدليل على ذلك المثل الذي ضربه القرآن في قوله عز وجل: **{لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}** [الحديد: 10].

وكما تدل النفقة قبل الفتح على قوة الإيمان فإنها تدل كذلك على دقة أثر المال في الدعوة، وذلك لاختلاف أثر النفقة قبل الفتح وبعده، حيث كان للنفقة قبل الفتح أثر أكبر.. من أجل ذلك فإن السياسة الاقتصادية للحركة الإسلامية تقوم ابتداء من مفهوم الزهد الحقيقي في الدنيا.

ومن هنا يأتي دور مجموع نصوص الرقائق المحققة لهذا الزهد لا على أنها نصوص تُحفظ باللسان، بل لتكون واقعًا حيًّا وحياة واقعة لأصحاب الدعوة.

البعد القدري:

ومناقشة البعد القدري للنظرية السياسية يعتبر من أهم المناقشات؛ لأن الفكر السياسي يتميز ببروز الإعمال العقلي والارتباط بالواقع، والبعد القدري هو البعد المقابل

---

(1) أخرجه البخاري (124/3).

لهاتين الميزتين في الفكر السياسي.

ذلك لأن ربانية الدعوة الإسلامية وارتباطها بقدر الله وسننه الثابتة جعل هذا الارتباط في أصل النظرية السياسية.

الفكر والقدر:

وبعد أن اتفقنا على ضرورة الإحكام الفكري بتحديد العلاقة بين الحقائق، نريد أن نتفق على تحديد العلاقة بين الفكر ذاته بعد إحكامه وبين القدر الإلهي، باعتبار أن قيام الواقع الإسلامي يرجع في النهاية إلى قدر الله ولا يرجع إلى التفكير البشري المحدد لقيام هذا الواقع.

ولذلك يقول ابن القيم في تعريف الحكمة: «الحكمة حكمتان، عملية وعلمية، فالعلمية الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقًا وأمرًا، قدرًا أو شرعًا»[1].

وحقيقة أن قيام الواقع الإسلامي يرجع في النهاية إلى قدر الله، بديهية يدركها كل داعية، ولكن هذا الإدراك غالبًا ما يكون مجرد مبدأً نظريًا لا يؤثر في واقع الحركة من حيث تحديد المنهج أو أسلوب العمل.

العلاقة الواقعية بين القدر الإلهي.. والفكر البشري:

والعلاقة بين الفكر والقدر تحددها –من حيث الواقع– عدة حقائق:

– أن التفكير البشري مجرد سبب قد يحدث القدر بدونه، وقد يحدث بما يخالفه. وهذا

---

(1) مدارج السالكين ج 2 ص 498.

لوط عليه السلام يبحث بتفكيره عن ركن شديد فيقول:

{لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [هود: 80]، بينما كان الله يأويه بقدره، وهو ركنه الشديد، فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**يَرْحَمُ اللهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**»[1].

وهذا معناه أن قدر إيواء الله له تحقق فيه دون تفكير مباشر منه.

وقد يحدث بما يخالف هذا التفكير، بدليل قدر حدوث غزوة بدر بما يخالف التفكير في الاستيلاء على القافلة: **{وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ}** [الأنفال: 7] بل قد يحدث القدر بما يضاد التفكير مباشرة.

وهذا يونس عليه السلام يفكر في الخلاص من القوم بالسفينة، فتكون هذه السفينة بقدر الله سبب هلاك، إذ يلقي منها في البحر فيلتقمه الحوت، وهو بتفكير البشر هلاك، ليكون بقدر الله سبب نجاة..

من أجل ذلك فإن القرآن يعلمنا الإيمان بإطلاق القدر الإلهي ومحدودية التفكير البشري فيقول عز وجل: **{فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ}** [المائدة: 52] ردًّا على المنافقين الذين لا يؤمنون بقدرة الله على تخليص المؤمنين من الاستضعاف أصلًا، وتوجيهًا للمؤمنين الذين يؤمنون بقدرة الله على ذلك.

ولكنهم قد يحددون هذه القدرة بصورة واحدة وهي الفتح فيقول الله سبحانه: **{أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ}**، **{وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ}** [الحج: 41]

وقيام الواقع الإسلامي بصورته المادية هو في النهاية أمر غيبي لا يمكن للذهن البشري

---

(1) البخاري في (الأنبياء) (6/411)، ومسلم رقم (151) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

أن يحتويه **{وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ}** [هود: 123، سورة النحل: 77] وقد يفتن الفكر البشري بارتكازه على الأسس الشرعية أو النواميس الكونية فيجزم بضرورة تحقيق النتيجة المحددة بهذه الأسس وتلك النواميس ولكن القدر فوق الشرع وفوق الناموس.

وحتى حقيقة الحقائق، وقمة اليقين التي تملأ قلب كل مسلم؛ حقيقة أن رسول الله سيدخل الجنة، يَرُدُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حدوثها إلى الله فيقول – كما في الصحيح –: «**والله إني لرسول الله؛ لا أدري ما يفعل بي ولا بكم**»[1] وأي محاولة احتواء ذهني لأمر غيبي هي تألٍ على الله وتجاوز للحد البشري كما قدره الله.

العلاقة المنهجية بين القدر الإلهي.. والفكر البشري:

وأمَّا من حيث المنهج، فإن العلاقة **بين** القدر والفكر تتحدد من خلال عدة أمور:

الأول: أن التكاليف الشرعية هي التي تتضمن الأسباب القدرية لتحقيق الواقع، فإن الخطأ الشرعي في مجال الدعوة يعني استحالة أو تأخير تحقيق هذا الواقع.

وليس لهذه القاعدة أي استثناء..

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله اليهود عن الروح فيقول: «**سأخبركم غدًا**»، ولا يقول: إن شاء الله؛ فلا ينزل الوحي إلا بعد فترة الرسول صلى الله عليه وسلم يحزن فيها حزنًا شديدًا، ويقول فيها اليهود: ذهب عنه شيطانه.

ولما نزل الوحي بالإجابة.. نزل ومعه تصحيح وتحديد السبب الذي من أجله تأخر

(1) البخاري في (الجنائز) من حديث أم العلاء (3/114).

النزول[1].

الثاني: تحديد السنن القدرية الثابتة وذلك بنصوص الكتاب والسنة لتحقيق التوافق معها في مجال الحركة الإسلامية، وقد وضح هذا التوافق وضوحًا كاملًا في التحرك الإسلامي الأول وبالتحديد في مجال القتال..

حيث كان الأسلوب القتالي مرتبطًا بسنن إهلاك الكفار، لتحقيق المعنى القدري للقتال، وهو أنه عذاب الله للكفار بأيدي المسلمين: **{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ}** [التوبة: 14]

وهذه مقارنة سريعة بين سنن الإهلاك.. وأساليب القتال:

- في فتح الطائف حاصرها رسول الله ثلاثة أيام ولم تفتح له فقال: «**سنرحل غدًا**» فأرادت الصحابة القتال فتركهم يقاتلون فجرحوا جراحات شديدة ولم تفتح لهم، فقال: «**سنرحل غدًا إن شاء الله**» وتم الرحيل ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عروة بن مسعود وهو مشرك من الطائف ودعاه إلى الإسلام فأسلم، فذهب إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام فقتلوه، فقال صلى الله عليه وسلم:

«**مَثَلُ عروة بن مسعود في قومه كمثل صاحب سورة يس، وهو الذي قال الله فيه: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ}** [يس: 28، 29]..

وفتحت الطائف بعد قتل عروة بن مسعود[2].

---

(1) البخاري (8/401) ومسلم (2794).

(2) أخرجه أحمد في مسنده (4/323 انظر: أسد الغابة (4/33) والإصابة (2/476).

- وفي فتح خيبر قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**» توافقًا مع قوله الله: **{أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ}** [الصافات: 176، 177].

- وفي الطريق إلى مكة قبل صلح الحديبية، يطلب الرسول صلى الله عليه وسلم من الصحابة أن يقولوا: «**قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه**»[1] كما أمر الله بني إسرائيل أن يقولوا **{حِطَّةٌ}** عند دخول الأرض المقدسة، كما جاء في قول الله: **{ وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ}** [البقرة: 58]، ومعناها: حُطَّ عنا ذنوبنا.

ولهذا قال الرسول بعد أن قالها الصحابة: «**والله؛ إنها للحطة التي عرضت على بني إسرائيل، فلم يقولوها**»..

- وفي غزوة الأحزاب علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله سينصره على المشركين واليهود لما تحزبوا ضده وقال: «**أبشروا معشر المسلمين**» لأنهم بهذا التحزب قد حققوا سنة إهلاكهم؛ لأنه من أفعال الله أن يهزم الأحزاب ولهذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم**»[2] ولهذا أيضًا عبر القرآن عن الكافرين بعد إهلاكهم بقوله: **{أُولَئِكَ الأَحْزَابُ}** [ص: 13]..

- والإصباح سنة إهلاك بدليل قول الله في قوم لوط: **{إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}** [هود: 81]..

---

(1) قال في فتح ذي الجلال: رواه ابن إسحاق بإسناد منقطع، ومن طريقه الطبري، وبنحوه البزار في كشف الأستار، وابن مردويه، ويشهد له ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر رضي الله عنه، انظر: السيرة النبوية(429/2)، مرويات غزوة الحديبية (ص92-96)، «مختصر زوائد البزار» (38/1/رقم1385).

(2) البخاري (7/406)، ومسلم رقم (1742) عن عبد الله بن أبي أوفى.

وقوله: **{وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ}** [القمر: 38]..

وقوله: **{فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ}** [الصافات: 177]..

فكان الغزو صباحًا من أهم الأساليب القتالية التي حققت التوافق بين القتال وسنن إهلاك الكافرين، حتى أصبحت الخيل هي المغيرات صبحا، كما جاء في قول الله تعالى: **{وَالعَادِيَاتِ ضَبْحًا * فَالمُورِيَاتِ قَدْحًا * فَالمُغِيرَاتِ صُبْحًا}** [العاديات: 1-3].

أما الأمر الثالث: فهو أن الاستدلال بالنصوص الإخبارية عما سيكون في آخر الزمان وأشراط الساعة لا يكون باعتبار أنها نصوص تكليفية، بل باعتبارها أقدارًا غيبية لا يلزمنا الاحتجاج بها..

أما النصوص التكليفية فهي مدار هذا التأصيل..

والأمر الرابع: هو رفض التفكير البشري البحت الذي لا يقوم على أصل شرعي أو سنة قدرية ثابتة، فهذا التفكير هو الذي سيتحول بالدعوة إلى حركة مادية، ويفقدها صفة الربانية.

ولهذا نجد في واقع الدعوة الصحيح المواقف التي تؤكد صفة الربانية بصورة واضحة.

فعند تحليل الأحداث من المنظور المادي البحت يظهر ارتباط الأحداث ببعضها كسبب ونتيجة، وفعل ورد فعل، ودوافع وأغراض، وعلاقة الحدث بأصحابه وظروفهم..

ولكن من المنظور القدري من حيث علاقة الأحداث بالسنن الثابتة وأحاديث آخر الزمان، نجد تحليل الواقع الجاهلي العام على مستوى العالم له عناصر أساسية أهمها:

1- الهيمنة الصليبية المتمثلة في زعامة أمريكا وأوربا للعالم.
2- العلو اليهودي.

3- العمالة والكفر على مستوى الحكومات المسيطرة على مواقع الدعوة.

4- الفقر والجهل على مستوى الشعوب المحيطة بمواقع الدعوة.

فنجد أن عناصر هذا التحليل المادي للواقع الجاهلي تؤكد اجتماع الجاهلية وتحزبها بكل مستوياتها العالمية الحكومية والشعبية ضد الدعوة؛ مما قد يحدث في نفوس الدعاة منتهى اليأس والإحباط.

فيأتي المنظور القدري فيحقق غاية الرجاء من خلال إثبات سنة الله الثابتة بهزيمة الأحزاب، من هنا استبشر الرسول صلى الله عليه وسلم لما اجتمعت الأحزاب عليه؛ لأن تحزب الأحزاب معناه تحقيق فعل من أفعال الله القدرية وهو هزيمة الأحزاب.

وبذلك يصبح التصور القدري للأحداث بعدًا أساسيًّا من أبعاد النظرية السياسية.. هذا من حيث علاقة التصور القدري بالتحليل السياسي.

والواقع: أن البعد القدري للنظرية السياسية.. كان أساسًا حتميًّا لتحليل مواقف متعددة في تاريخ الدعوة، ما كان لنا أن ندركها إلا من خلال هذا البعد.

ولعل أبرز هذه المواقف طلب يوسف عليه السلام الوزارة في ظل حكم غير شرعي.. ذلك لأن قصة يوسف عليه السلام بأكملها تحقيق قدري للرؤيا التي رآها بالتمكين له في الأرض. وفي إطار هذا التصور كانت جميع أحداث القصة وأبرزها وضع السقاية في رحل أخيه؛ حيث عقبت الآيات على هذا التصرف بقوله سبحانه: **{كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ}** [يوسف:76].

وعلى هذا؛ فلا يحتج بهذا الموقف سياسيًّا، إذ يعتبر من الناحية الفقهية أحوال أعيان لا يقاس عليها.

ومن أمثلة تلك المواقف في تاريخ الدعوة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم: قطع

أشجار اليهود في غزوة بني قريظة؛ حيث أنكر اليهود على الرسول صلى الله عليه وسلم قائلين له: أتنهانا عن الفساد وأنت تأمر بقطع الشجر؟! فأنزل الله عز وجل: **{مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ}** [الحشر:5].

فهذا تصرف قدري بحت، فعله رسول الله بإذن ربه، والقدر فوق الشرع؛ ولكن هذا التصرف القدري لا يؤثر على القاعدة الثابتة في الحروب -ومنها النهي عن قطع الأشجار- إلا أن يكون الأمر لأسباب عسكرية بحتة، فيجوز ذلك اضطرارًا، ولكن لا يحتج بفعل رسول الله في غزوة بني قريظة على الجواز المطلق من حيث التحليل..

البعد القدري والرؤية المستقبلية

ومن أخطر قضايا البعد القدري للتصور السياسي تحديد الرؤية المستقبلية للدعوة.. باعتبار أنها قضية غيبية تنبني على واقع، ولا يجوز فيها الاكتفاء بدراسة الواقع لاستنباط اتجاهات المستقبل من خلاله فقط، ولا مجرد الإحالة إلى النصوص الغيبية، وتعليق العمل المنهجي على تحقق النبوءات، ولكن يكون بالإحكام المنهجي بينهما.

وأبرز تطبيقات هذا الإحكام.. ربط منهج الدعوة بعلامات الساعة، وأساسها أحاديث الفتن والملاحم؛ ومنها الملحمة التي تكون بين المسلمين والصليبيين، حيث تجتمع كل عناصر الصراع بين الحروب الصليبية من الناحية التاريخية والواقعية، والملحمة من الناحية المستقبلية.

حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم بشأن **الملحمة**:

«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقٍ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ، مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، فَإِذَا تَصَافُّوا قَالَتْ الرُّومُ: خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: لَا وَاللهِ.. لَا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا،

فَيُقَاتِلُونَهُمْ، فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لَا يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللهِ، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ، لَا يُفْتَنُونَ أَبَدًا، فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطَنْطِينِيَّةَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الغَنَائِمَ.. قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ، إِذْ صَاحَ فِيهِمْ الشَّيْطَانُ: إِنَّ المَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ، فَيَخْرُجُونَ وَذَلِكَ بَاطِلٌ، فَإِذَا جَاءُوا الشَّأْمَ خَرَجَ، فَبَيْنَمَا هُمْ يُعِدُّونَ لِلْقِتَالِ يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ، إِذْ أُقِيمَتْ الصَّلَاةُ، فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صلى الله عليه وسلم **فَأَمَّهُمْ، فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ اللهِ ذَابَ كَمَا يَذُوبُ المِلْحُ فِي المَاءِ، فَلَوْ تَرَكَهُ لَانْذَابَ حَتَّى يَهْلِكَ، وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللهُ بِيَدِهِ فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ»**[1].

من هذا الحديث نستطيع تحديد العناصر القدرية للصراع بما يلي:

الأول: دخول النصارى في الإسلام:

حيث إنَّ أول سبب ظاهر للصراع يذكره الحديث هو طلب الروم استعادة من أسلموا منهم، يقول الإمام النووي: «رُوِيَ (سُبُوا) عَلَى وَجْهَيْنِ: فَتْح السِّين والبَاء، وَضَمّهمَا. قَالَ القَاضِي فِي المشَارِق: الضَّمّ رِوَايَة الأَكْثَرِينَ. قَالَ: وَهُوَ الصَّوَاب.

قُلْت: كِلَاهُمَا صَوَاب، لِأَنَّهُمْ سُبُوا أَوَّلًا، ثُمَّ سَبَوْا الكُفَّار، وَهَذَا مَوْجُود فِي زَمَانِنَا، بَلْ مُعْظَم عَسَاكِر الإِسْلَام فِي بِلَاد الشَّام وَمِصْر سُبُوا، ثُمَّ هُمْ اليَوْم بِحَمْدِ اللَّه يَسْبُونَ الكُفَّار، وَقَدْ سَبَوْهُمْ فِي زَمَانِنَا مِرَارًا كَثِيرَة، يَسْبُونَ فِي المرَّة الوَاحِدَة مِنْ الكُفَّار أُلُوفًا، وَلِلَّهِ الحَمْد عَلَى إِظْهَار الإِسْلَام وَإِعْزَازه»[2].

وقد تقرر من قبل أن من عناصر الصراع الصليبي ارتباطه بظاهرة دخول النصارى في الإسلام، وهو العنصر الذي سيبقى حتى الملحمة مصداقًا لقوله صلى الله عليه وسلم، والسياق التاريخي

---

(1) أخرجه مسلم (2897).

(2) شرح النووي على صحيح مسلم.

الثابت للحروب الصليبية يبدأ بإقبال النصارى على الإسلام، وهو نفس السياق القائم الآن في الغرب، وخصوصا أن الانتماء للإسلام في الفترة الأخيرة انتماءٌ سلفيّ صحيح.

الثاني: العِرْق:

حيث كان الروم -أو أوروبا- هم العرق المكون «للنصارى» في الحروب الصليبية، ويمثلهم اليوم أوروبا وأمريكا، ليبقى عرق الروم هو العرق الأساسي للنصارى في الصراع حتى الملحمة.

الثالث: الكثرة:

حيث قامت الحروب الصليبية على تجييش «كثرة عددية» ليس لها مثيل في التاريخ، لتبقى هذه الظاهرة في فكرة التحالفات الغربية ضد الإسلام.. حتى زمن الملحمة، ويخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم بهذه الظاهرة فيقول: «**هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُلِّ غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا**»[1]..

ولعلنا نلاحظ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فَيَغْدِرُونَ**» لننتبه أن الغدر عنصر أصيل من عناصر الحرب الصليبية، وكذلك نلاحظ قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فَيَسِيرُونَ إِلَيْكُمْ**»[2]، وقوله: «**فَيَأْتُونَكُمْ**» وقوله: «**وَتَجْمَعُ لِلْمَلْحَمَةِ**» لننتبه إلى عنصر الغزو والهجوم من جانبهم.

الرابع: الصليب:

وهو العنصر الواضح في الحروب الصليبية التاريخية حتى بلغ درجة هيسترية، فيُرسم

---

(1) أخرجه البخاري (3005).

(2) ورد هذا اللفظ في رواية ابن ماجه (2/1341، 4042) وصححها الألباني.

الصليب على أعلام الدول، ورايات الحرب وملابسها، وعلى الدروع والأسلحة.. وكذلك ستكون في الملحمة:

«**فَيَرْفَعُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ النَّصْرَانِيَّةِ الصَّلِيبَ فَيَقُولُ: غَلَبَ الصَّلِيبُ، فَيَغْضَبُ رَجُلٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فَيَدُقُّهُ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَغْدِرُ الرُّومُ وَتَجْمَعُ لِلْمَلْحَمَةِ**»[1].

ولعلنا نلاحظ عبارة: «**غَلَبَ الصَّلِيبُ**» لننتبه إلى مدى حمية النصارى للصليب، وهو الأمر الواضح جدًّا في كل الحروب الصليبية القديمة والحديثة.

وكنتيجة للغدر فإن كفة النصارى سترجح في أول المعركة، فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**وَيَثُورُ الْمُسْلِمُونَ إِلَى أَسْلِحَتِهِمْ، فَيَقْتَتِلُونَ، فَيُكْرِمُ اللهُ تِلْكَ الْعِصَابَةَ بِالشَّهَادَةِ**»[2].

ولكن النتيجة لم تؤثر في المسلمين، ولم يستسلموا لها رغم أن الشهداء كانوا «ثلث الجيش»..

وكنتيجة لاجتماع كل الأعداد والقوى والإمكانيات النصرانية في حرب الملحمة كان من الضروري أن يدخل المسلمون تلك الحرب بمنطق الشهادة: «**فَيَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمْ اللَّيْلُ، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ.. كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ..**

ثُمَّ يَشْتَرِطُ الْمُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يَحْجُزَ بَيْنَهُمْ اللَّيْلُ، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ.. كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ..

---

(1) أخرجه أبو داود (4292) وصححه الألباني في صحيح الجامع (3162).

(2) وردت هذه الفقرة في رواية الحاكم (8298) وصححها الذهبي.

ثُمَّ يَشْتَرِطُ المُسْلِمُونَ شُرْطَةً لِلْمَوْتِ لَا تَرْجِعُ إِلَّا غَالِبَةً، فَيَقْتَتِلُونَ حَتَّى يُمْسُوا، فَيَفِيءُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ.. كُلٌّ غَيْرُ غَالِبٍ، وَتَفْنَى الشُّرْطَةُ..

فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الرَّابِعِ.. نَهَدَ إِلَيْهِمْ بَقِيَّةُ أَهْلِ الإِسْلَامِ، فَيَجْعَلُ اللهُ الدَّبْرَةَ عَلَيْهِمْ، فَيَقْتُلُونَ مَقْتَلَةً -إِمَّا قَالَ: لَا يُرَى مِثْلُهَا، وَإِمَّا قَالَ: لَمْ يُرَ مِثْلُهَا- حَتَّى إِنَّ الطَّائِرَ لَيَمُرُّ بِجَنَبَاتِهِمْ فَمَا يُخَلِّفُهُمْ حَتَّى يَخِرَّ مَيْتًا»[1].

ومن المثال الخاص «الملحمة» إلى القواعد القدرية العامة:

القواعد القدرية العامة للتحليل السياسي:

أولًا: الطاعة المطلقة لله المحققة لمهابة الأعداء لنا:

فالمواجهة السياسية يجب أن تقوم على الطاعة المطلقة لله، لتحقيق المهابة لنا في قلوب أعدائنا؛ لأن هذه المهابة هي حقيقتنا في قلوب أعدائنا، وقوتنا في شعورهم، وحجمنا في تصورهم، وتبعًا لهذه المهابة تكون الممارسة السياسية في الواقع، والله قادر على أن يجعل لنا في قلوب أعدائنا تلك المهابة، وهو قادر أيضًا على أن يجعلهم يروا ضخامة حجمنا في تصورهم بشكل مادي بحت.

غير أن للمهابة أسبابًا:

أهمها الوجود الإسلامي الصحيح لأصحاب الدعوة، حيث يصيروا بهذا الوجود كالقسورة التي تفر منها الحمر المستنفرة[2].

---

(1) أخرجه أحمد (4 / 91، 5/ 371، 409)، وأبو داود (2 / 512)، وابن ماجه (2 / 1369).

(2) كما في قوله تعالى عن الكافرين وموقفهم من الإسلام: **{كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ}**.

ومنها التمسك بالجهاد؛ حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا**»[1]، وقال في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: «**ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم**»[2] إلى آخر الحديث.

وابتداء من نشأة الحركة حتى إقامة السلطة.. لا يغيب البعد القدري، لنرى أن أهم حقائق تلك السلطة –قرشية الخليفة– مثالٌ هامٌّ للمقتضيات القدرية التي يجب الالتزام بها في التصور السياسي للدعوة، وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: «**الخلافة في قريش**»[3].

فلا يسمح التصور السياسي للدعوة بالجدل أو الإعمال العقلي البحت حول هذه الحقيقة؛ لأنها حقيقة قدرية خالصة.

ثانيًا: التفويض والتوكل:

وأهم الحقائق القدرية في التصور السياسي: الوفاء بالعهود والمواثيق؛ ذلك لأن الله لا يحب الخائنين.. فإذا بدت مصلحة لكنها لا تتحقق إلا بنقض العهد؛ فهذه المصلحة باطلة سياسيًّا.

وفي المقابل فإن التصور السياسي يقيم العهود والمواثيق بقاعدة التوكل على الله بعد استفراغ الجهد في التفكير والتقييم والتحليل والتوقع.

ومن هنا قال سبحانه: **{وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}**، فنلاحظ أنَّ الله هو الذي أمكن منهم..

---

(1) رواه الحاكم والبزار وابن ماجه.

(2) رواه أبو داود في الملاحم (108/4/ ح 4297)، وأحمد (278/5).

(3) أخرجه أحمد في المسند (185/4)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (1851).

وهذه هي القاعدة القدرية العامة في العهود ونصها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«مَا نَقَضَ قَوْمٌ العَهْدَ قَطٌّ إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ»[1].

ثالثًا: مراعاة السنن الثابتة:

مثل التفسير القدري للاختلاف كصيغة من صيغ العذاب الواقع علينا، وتحقيق موجبات الرحمة التي يرفع بها هذا العذاب، واعتبار هذه الموجبات أسبابًا مباشرة في معالجة الاختلاف.

وكذلك معالجة الفتن القائمة بين المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باعتبار أن ترك هذا الأمر هو السبب في ضرب قلوبنا بقلوب بعض، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**وَاللهِ لَتَأمُرُنَّ بالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، وَلَتَأخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأطِرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ أطْرًا، وَلَتَقْصُرُنَّه عَلَى الحَقِّ قَصْرًا، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللهُ بقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيلْعَننكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ**»[2].

غير أن موضوعية البعد القدري للتصور السياسي تتمثل بصورة نهائية في الوصول بالدعوة من مرحلة الاستضعاف وخشية الاختطاف إلى مرحلة التمكين والعالمية، إذ إن تجاوز الدعوة لجميع مراحلها لا يمكن أن يتحقق إلا بصورة قدرية.

ولعل حادثة أصحاب الفيل التي حفظ الله بها البيت تهيئة لظروف الدعوة؛ ولعل الصراع بين الروم والفرس الذي أجهد الدولتين تحقيقًا لتلك التهيئة.. دليل على هذا

(1) رواه ابن ماجه في الفتن، باب: العقوبات (133/2/ ح 4019)، وذكره الحافظ في الفتح (203/10).
(2) رواه أبو داود (4336)، وابن ماجه (4006)، والترمذي (3047).

البعد.

كما قال سبحانه: **{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}** [الفتح: 29].

يقول الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية: «هذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، يعني أنهم يكونون قليلا ثم يزدادون ويكثرون، فكان النبي صلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفًا، فأجابه الواحد بعد الواحد، حتى قوي أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفًا، فيقوى حالا بعد حال، حتى يغلظ نباته وأفراخه، فكان هذا من أصح مثل وأقوى بيان».

فنلاحظ من كلام القرطبي توافق الدعوة مع سنن في الزرع، حيث تبدأ عملية الإنبات بفعل إلهي بحت لا دخل لبشر فيه: إرسال الرسول أو بعث المجددين[1].. كما قال سبحانه: **{أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ}** [الواقعة:63-64].

ثم يليه إخراج الشطء، ثم المؤازرة، فالاستغلاظ، فالاستواء..

يقول الزمخشري في الكشاف: «وعن عكرمة: أخرج شطأه بأبي بكر، فآزره بعمر، فاستغلظ بعثمان، فاستوى على سوقه بعليّ، وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن

---

(1) روى الإمام أبو داود (109/4، 4291) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»، وصححه الألباني في الصحيحة (599).

قوي واستحكم، لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم قام وحده، ثم قوّاه الله بمن آمن معه، كما يقوي الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها، حتى يعجب الزرّاع».

رابعًا: غلبة القدر على تخطيط البشر:

وفي إطار تناول البعد القدري للتحليل السياسي ينبغي التركيز على حقيقة: إحاطة الله بواقع الصراع: **{وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** [يوسف:21].

فالصراع له عنصران: الجانب المسلم، والجانب الكافر..

وإحاطة الله تشمل الجانبين، وكل ما يتعلق بهما..

ففي الجانب المسلم.. تأتي غزوة بدر كأبرز مثال على إحاطة ما يريده الله بما يريده البشر: **{كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ المُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ * يُجَادِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى المَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ}** [الأنفال:5-7].

يقول الأستاذ سيد قطب في ظلال هذه الآية: «يتبين من هذا الاستعراض أنهم هم لم يكونوا فيها -أي غزوة بدر- إلا ستارا لقدر الله؛ وأن كل ما كان فيها من أحداث، وكل ما نشأ عنها من نتائج – بما فيها هذه الأنفال التي تنازعوا عليها – إنما كان بقدر الله وتوجيهه وتدبيره وعونه ومدده..

أما ما أرادوه هم لأنفسهم من الغزوة فقد كان شيئا صغيرا محدودا، لا يقاس إلى ما **أراده الله لهم، وبهم،** من هذا الفرقان العظيم في السماوات وفي الأرض.. ذلك الذي اشتغل به الملأ الأعلى، إلى جانب ما اشتغل به الناس في الأرض، وما اشتغل به التاريخ البشري على الإطلاق..

ويذكرهم أن فريقا منهم واجه المعركة كارها؛ كما أن فريقا منهم كره تقسيم الأنفال وتنازع فيها؛ ليروا أن ما يرونه هم، وما يكرهونه أو يحبونه، ليس بشيء إلى جانب ما يريده الله سبحانه ويقضي فيه بأمره، وهو يعلم عاقبة الأمور».

هذا بالنسبة لدور الجانب المسلم في الصراع..

أما الجانب الكافر.. فمهما كانت قوته، فهو لا يخرج عن قدرة الله وتقديره: **{وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ}** [إبراهيم: 46]..

وفي هذا الإطار تظهر مشكلة يجب حسمها، وهي مسألة العلو اليهودي الطارئ، لأن هذه المسألة تأتي خطورتها من الفهم الخاطئ للآيات الواردة فيها؛ حيث يتحدد هذا الخطأ في الاعتقاد الجازم بحتمية أبدية للعلو اليهودي!

ويغذي هذا الفهم اليهود أنفسهم من خلال كتابات[1] معينة يخرج قارئها بتصور يفسد عقيدته، حيث يعتقد أن اليهود يفعلون ما يريدون، وأنه ما من حركة أو سكنة إلا وهي جزء من خطة يهودية شاملة.

هذا التصور شرك صريح.. فالله وحده هو الفعال لما يريد.. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.. وعقيدة التوحيد ترفض هذا الوهم، والواقع شاهد على ذلك.

وحادثة واحدة تكفي.. وهي نكسة 1967م التي كان ظاهرها لصالح اليهود وكان باطنها الرحمة؛ حيث كانت نقطة التحول في تاريخ الحركة الإسلامية؛ حيث بدأت من مصر بعد أن قويت الرغبة في الرجوع إلى الله، لتبدأ مع تلك الرغبة الدعوة الإسلامية بمستواها الفردي، فيبلغ خطرها كل أنحاء العالم، ويصبح مواجهة هذا الخطر هو محور

---

(1) مثل بروتوكولات حكماء صهيون.

السياسة العالمية على مستوى الشرق والغرب.

ولكن معالجة هذه المشكلة لا يعني نفي التصور المؤكد لوجود إدارة جاهلية واحدة للصراع مع الإسلام..

وأن قرارات هذه الإدارة فوق مستوى سلطة الحكومات الجاهلية..

وأن عناصر هذه الإدارة لا تخضع لأي ظروف خارجة عن نطاق الخطة الثابتة لمحاولة القضاء على الإسلام أو تحجيمه.

والشواهد السياسية الدالة على ذلك كثيرة، ولعل أهمها المواجهة الأمنية للدعوة.. حيث يكون التطابق التام في أساليب المواجهة –والذي يدل على صدورها عن نظرية أمنية واحدة– يتم تطبيقها من خلال التعاون الأمني بين الأجهزة الأمنية على مستوى العالم كله ضد الإسلام، بأسلوب واحد، وعناصر ثابتة:

- المتابعة – التخويف – التضييق – الاعتقال – التعذيب — القتل..
- الضغط – الإغراء – التوريط — التجنيد..
- طمس الدين الصحيح – تغيير المناهج – فتاوى العملاء..
- نشر الفقر والمرض – نشر التحلل الخلقي والمخدرات..
- التضليل الإعلامي وتشويه سمعة الرموز..
- إدخال أكبر عدد من الناس في مجال الولاء السياسي: القطاع العام (قديما) – حزب السلطة – والمعارضة المصنوعة..
- توسيع مجال الولاء الوظيفي للسلطة: جيش – شرطة – مخابرات – هيئات حكومية..

والبعد القدري يثبت أن نصر الله للمؤمنين يكون بسبب الكافرين أنفسهم.. وواقع

الصراع بين الجاهلية والإسلام شاهد على ذلك.

وأبرز هذه الشواهد: غباء السياسة الأمريكية الذي يصب في مصلحة الدعوة، ومن أخطر الأمثلة الدالة على ذلك: **كان غزو أمريكا للعراق**..

لقد كان العراق في فترة صدام حسين من أسوأ مواقع الدعوة الإسلامية في العالم، فقد كان النظام يقتل الإخوة في الشوارع.

وليس أدل على حال الدعوة في فترة صدام من عدم وجود أي أثر لمجاهدين عراقيين في أي موقع من مواقع الجهاد الإسلامي في العالم.

فإذا تتبعت الشرائط والأفلام المصورة للمجاهدين وقصص شهدائهم بأسمائهم وجنسياتهم.. لا تجد من بينهم عراقيًّا واحدًا! مما يعني القضاء عليهم كلية..

وبمجرد أن يحدث الغزو، يتحول العراق إلى أقوى موقع جهادي في العالم وتحدث أروع البطولات الإسلامية القتالية.

الباب الثالث

النظرية السياسية الجاهلية

الفصل الأول

التفسير العام للنظرية

ومضمون النظرية السياسية الجاهلية هو:

- **الطاغوتية**، وهو المصطلح الذي يعني الشيطنة السياسية، وأساسيات هذا المصطلح: هي السلطة بعناصرها الأصلية..

والسلطة بكل مستوياتها تقوم على التفاضل بين الشياطين.. والتفاضل يكون بمقدار الفساد الذي يقوم به الشيطان.

فيثبت بذلك ارتباط نظام الشياطين.. بأهدافها، بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشياطين بالنسبة لإبليس: «**وأعظمهم مكانة أعظمهم فتنة**..» وفي رواية أخرى: «**وأدناهم منزلة أعظمهم فتنة**»[1].

ومن أجل أن القرب من إبليس يكون بمقدار الفساد، فإننا نجده –لعنه الله– قد صنع لنفسه عرشًا، وجعل حول العرش حيات، بدليل حديث ابن صياد عندما سأله النبي صلى الله عليه وسلم وقال له: «**ماذا ترى؟**» قال: أرى عرشا على الماء وحوله حيات، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**هو عرش إبليس**»[2] وبالطبع فإن تقريب الحيات إليه إنما هو اعتراف منه بقيمة المهمة التي أدتها الحية في إدخاله الجنة للوسوسة إلى آدم[3].

---

(1) سبق تخريجه.

(2) مسلم رقم [2925] عن أبي سعيد وسبق تخريجه.

(3) وقد ورد هذا الخبر عن ابن عباس رضي الله عنه، ولهذا جاء في تفسير قوله الله عز وجل: **{وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}** [البقرة: 36] قول ابن عباس والسدي: آدم وحواء وإبليس والحية. وقال ابن جرير الطبري في تفسير الآية: وقد رويت هذه الأخبار عمن رويناها عنه من الصحابة، والتابعين، وأولى ذلك بالحق عندنا ما كان لكتاب

ورؤية ابن صياد لعرش إبليس –وهو يدعي النبوة– دليل على ارتباط الإفساد بعرش إبليس كأساس تنظيمي في واقع الشياطين.

وعناصر السلطة الأصلية هي:

– **القتال: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا}.**

– **الولاء: {اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.**

وتنطلق من هذه العناصر أخطر شواهد الجاهلية السياسية، المحققة للسيطرة على الإنسان وعقله، والمنشئة في قلب الإنسان الجاهلي دافع القتال في سبيل الطاغوت، والمحققة لولائه للجاهلية..

شواهد الجاهلية السياسية:

1– الحساسية السياسية الجاهلية تجاه السلطة الشرعية الإسلامية:

ولأجل أن خطورة السلطة الإسلامية على الشيطان قد بلغت أن تكون حرزًا للأمة منه.. فإننا نجد أنه لا يطيق قيامها، ويعتبر هدف إسقاطها إذا قامت مهمة أساسية

الله موافقا. ثم قال: ولكن ذلك كان – إن شاء الله على نحو ما قال ابن عباس ومن قال بقوله. وقال في موضع آخر: أما عداوة آدم والحية فقد ذكرنا ما روى في ذلك ابن عباس ووهب ابن منبه.. هذا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحيات: «**ما سالمناهن منذ حاربناهن، فمن تركهن خيفة منهن فليس منا**» هو عند أبي داود (14/163) وأحمد (2/247) عن أبي هريرة.

عنده، ودليل ذلك هو موقف الشياطين من ملك سليمان؛ حيث جاء في تفسير قول الله: **{وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ}** [ص: 34] قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير والحسن: جسد: يعني شيطان.. مؤكدين القول بقصة مضمونها: أنه كانت هناك محاولة انقلاب شيطانية ضد حكم سليمان، فقدر الله فشلها ونجاته منها بعد بلائه بها.

ولعل هذه الحقيقة تكون تنبيهًا للذين يتلهفون على قيام السلطة الإسلامية دون الاستعداد للمحافظة عليها بعد قيامها؛ إذ إن العقبات الضخمة التي يصنعها الشيطان في سبيل قيام هذه السلطة تكون قليلة، بجانب الأساليب والوسائل التي سيمارسها الشيطان لمحاولة إسقاطها إذا قامت.

ولما فشلت المحاولة الشيطانية ضد سليمان في حياته لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل قدمت الشياطين تفسيرًا باطلًا لسلطة سليمان بعد موته.

مما يعني أن الشيطان لا يقاوم فقط واقع السلطة الإسلامية إذا كانت قائمة، بل يقاوم مجرد أن تكون هذه السلطة إذا غابت عن الواقع مجرد تجربة تاريخية ناجحة.

ففي تفسير ابن كثير لقوله الله: **{وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}** [البقرة: 102] بعد أن أورد قول ابن عباس، والربيع بن أنس ومجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن إسحاق وابن جرير وغيرهم والحاكم في المستدرك قال: فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف في هذا المقام، ولا يخفي ملخص السياق القصة، والجمع بين أطرافها، وأنه لا تعارض بين السياق على اللبيب الفهم.

أما الملخص ففيه: أن السحر انتشر في عهد سليمان وكتبوا فيه كتبا، فجمعها سليمان حتى يمنعهم منها، ودفنها تحت كرسيه، وهو المكان الذي لا تستطيع الشياطين الاقتراب منه، فلما مات سليمان دلت الشياطين الناس على هذه الكتب، فاستخرجوها من تحت الكرسي، وأشاعوا أن سليمان كان يحكم الجن والإنس بها، واتهموا سليمان

بالسحر.

فلما بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم وذكر نبي الله سليمان قالت اليهود: إن سليمان كان ساحرا، فنزل قول الله ردا عليهم: **{وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ}** [1].

وفي ظرف عارض من ظروف الدعوة الإسلامية في مصر، اضطرت السلطة الجاهلية إلى إعلان أن هناك لجان قانونية مختصة لتطبيق الشريعة..

وبعد فترة زمنية طويلة، وفي إطار نفس الظروف العارضة اضطرت السلطة الجاهلية إلى إعلان إتمام تقنين بعض القوانين لتكون المفاجأة..

أن القانون الذي تم إنجازه هو «القانون البحري التجاري».

فرغم أن الحكومة المصرية كانت تعرف أنه لن يكون من ذلك شيء.. إلا أنها ابتعدت عن الواقع المباشر للناس، وآثرت أن تكون المهزلة فوق سطح الماء وفي أعالي البحار بعيدا عن حياة الناس!!

وفي ظرف آخر أعلنت السلطة الجاهلية في نيجيريا عزمها على تطبيق الشريعة، فإذا بالرئيس الأمريكي «كلينتون» يقوم بزيارة سريعة إلى البلاد ليثني أصحاب القرار عن قرارهم، وتراجعوا فور الزيارة الخاطفة وأقيمت الاحتفالات للرئيس الأمريكي، ورقص أصحاب التطبيق المزعوم للشريعة بزيهم المشهور، رقصة آكلي لحوم البشر، وهم يجرون في حلقة أمام الرئيس، ليرى العالم طبيعة أصحاب الشريعة.

وفي السودان أعلن الرئيس جعفر نميري لظروف وملابسات سياسية خاصة تطبيق

---

(1) تفسير ابن كثير (136/1).

الشريعة الإسلامية:

- منها كسب القوة السياسية المتنامية في هذا الوقت في مقابل القوة الصليبية المتمردة على الدولة في الجنوب..

- ومنها: معالجة الضغط الواقع على الشعب السوداني الناتج عن التردي الاقتصادي الشديد، على اعتبار أن الشعب السوداني المحب للإسلام سيلتف حول قيادته السياسية أمام تمرد النصارى، وسيتحمل المعاناة الناشئة عن الفقر.

ومع ذلك لم تنس أمريكا لنميري هذا التصرف وعملت على إزاحته، رغم علمها بأن هذا الإعلان كان مجرد مناورة سياسية عارضة وليست موقفًا سياسيًّا حقيقيًّا.. ورغم أن السياسية السودانية وولاءها للغرب لم تتغير.

فما بالنا لو كانت إقامة السلطة الشرعية الإسلامية حقيقية صادقة مثلما فعلت طالبان في أفغانستان!!

وحساسية الجاهلية من إقامة السلطة الإسلامية تكون مع أبسط مستويات هذه السلطة ابتداءً من تدخل العلماء المسلمين في معالجة المشاكل الاجتماعية للناس وفقا للتصور الإسلامي في المعالجة، فتمنع الجاهلية هذا التدخل بكل وسيلة.

لقد كان إعلان السلطة الشرعية الإسلامية في أفغانستان هو البداية الفعلية للحرب الأمريكية والغربية عليها.

2- التخلي عن الأولياء:

{وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا

تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ العِقَابِ} [لأنفال: 48]

3- المتابعة:

ولقد بدأت المتابعة الجاهلية فعلًا منذ لحظة الرسالة الأولى، حيث «أمر إبليس أتباعه بالانتشار في الأرض» عند بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.

تلك هي خصائص الجاهلية التي تسيطر بها على الإنسان..

وهذه قريش تشترط على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعيد إليها كل من أسلم، حتى جاء أبو جندل مسلمًا فأعاده المسلمون التزاما بالمعاهدة، فيأخذه المشركون مقيدًا بالحديد.

وتبعث في أثر المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة لتعيدهم إليها. ويقدمون الهدايا إلى قساوسة النجاشي ملك الحبشة من أجل إعادتهم.

وتزاحم قريش النبي صلى الله عليه وسلم في مواسم الحج لتقاوم دعوته بعد أن رأته يدعو الناس.

وهذا أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة يسبقان النبي صلى الله عليه وسلم إلى عمه في لحظات موته، فيحاول النبي صلى الله عليه وسلم أن ينطقه الشهادتين، فيشتد الصراع في لحظات الموت من أجل التأثير على أبي طالب، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**يا عم قل: لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله**» فيقول أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب.. أترغب عن ملة عبد المطلب؟! قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب..

وهذا حاكم كافر يبعث رسالة إلى فرد مسلم قاطعته الجماعة لأجل خطأ وقع فيه،

فيقول له فيها: أما بعد، فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هَوان ولا مَضْيَعة، فالحق بنا نُواسِكَ[1].

سبحان الله!! حاكم دولة كافر، يطلب فردًا مسلمًا، في توقيت خطير، ليؤثر عليه ويفتنه.

صراع على الإنسان.. مزاحمة في المكان.. وملاحقة في الطرق.. مطاردة في الأرض.. تربص وترصد.. مراقبة وتتبع.

هذه بعض ملامح الصراع والتي لا تزال قائمة.. بل تزداد.

ولعل هذه الملامح تكون واضحة لأصحاب فكرة التربية النظرية الهادئة، هؤلاء الذين يتخيلون توقف الحركة الجاهلية.. ويطفئون في إحساسهم اشتعال الصراع ويفترضون أن الجاهلية ستتركهم يربون جيلًا إسلاميًّا، وتمنحهم فرصة تكوين كيان إسلامي قوي على أرضهم وتحت سلطانهم!!

4- الإشاعة:

ففي غزوة أحد، صرخ الشيطان –لعنه الله– بأعلى صوته: إن محمدًا قد قُتل، ووقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين، وتولى أكثرهم، وكان أمر الله[2].

فطارت بقية صواب المسلمين، وانهارت الروح المعنوية أو كادت تنهار في نفوس كثير من أفرادها، فتوقف من توقف منهم عن القتال، وألقى بأسلحته مستكينًا، وفكر آخرون

(1) تفسير ابن كثير في تفسير قوله تعالى: **{وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ...}** الآية. والرسالة كانت من ملك غسان لكعب بن مالك رضي الله عنه.

(2) انظر: فصول من السيرة لابن كثير.

في الاتصال بعبد الله بن أبي –رأس المنافقين– ليأخذ لهم الأمان من أبي سفيان. ومر بهؤلاء أنس بن النضر، وقد ألقوا ما بأيديهم فقال: ما تنتظرون؟! فقالوا: قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟! قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: اللّهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين، ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أين يا أبا عمر؟ فقال أنس: واها لريح الجنة يا سعد، إني أجده دون أحد، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل[1].

والإشاعة عنصر أساسي تعالج به الجاهلية مواقفها السياسية؛ ففي حكم عبد الناصر بعد ضربه للإخوان المسلمين خرجت همسات بين الناس تقول: ما له يقتل المسلمين ويترك النصارى؟! وكان عبد الناصر لا يستطيع أن يمس نصرانيًّا، بل كان مساندًا لهم، حيث بُنِيَت في زمنه كاتدرائية العباسية، وتبرع لها من أموال الدولة بالمال الكثير، وكانت له مواقف تحيز فيها للنصارى في بلاد كثيرة وليس في مصر فقط، فتحيز للأسقف مكاريوس ضد تركيا في نزاع جزيرة قبرص، وتحيز للإمبراطور هيلاسلاسي في الحبشة ضد مسلمي الحبشة.

ولما كان عاجزًا عن ضرب النصارى في مصر كما ضرب المسلمين.. أشاع خبرا كاذبًا مفاده: (أن القساوسة اجتمعوا ليطالبوا عبد الناصر ببعض مطالبهم فأظهر الموافقة على مقابلتهم، فركبوا جميعًا القطار ليسافروا إليه ويقابلوه، ففجّر بهم القطار).. فهدأت خواطر الناس بالخداع والكذب.

ويماثل نشر الإشاعات في معالجة المواقف السياسية الجاهلية.. نشر المفاهيم الخاطئة.. ومثال ذلك:

---

(1) انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري.

– إشاعة أن السادات هو الذي أعطى الفرصة للحركة الإسلامية..

وهذا أمر غير صحيح، لأن الحركة الإسلامية «المرحلة الثانية» بدأت في عهد عبد الناصر وظلت في سرية، ولم يكتشفها أحد حتى حادثة الفنية العسكرية عام 1974.

وحتى حادثة الفنية ذاتها.. لم تكشف غير بعض جوانب الواقع السري للحركة..

ولكن الذي حدث.. أن السادات أراد ضرب الشيوعيين في الجامعات، فأتاح الفرصة للنشاط الذي كان قائمًا وموجودًا بالفعل، وكان نشاطا علنيًّا مختلفًا عن النشاط السري للحركة التي يزعمون أن السادات هو الذي أوجدها..

– إشاعة أن أمريكا هي التي ساعدت المجاهدين في أفغانستان في حربها ضد الروس..

والصواب: أن الجهاد ضد الروس وعملائهم الشيوعيين كان موجودًا قبل الاحتلال، وبمجرد دخول القوات السوفييتية لدعم الحكومة الشيوعية العميلة المنهارة.. اشتعلت الأرض تحت أقدامهم، ودخل المجاهدون من باكستان على الخط، ولم يكن هناك أي دور لأمريكا أو غيرها، لكن أمريكا أرادت التغلغل في الجهاد الأفغاني للسيطرة عليه والتحكم فيه، فأوعزت لمخابرات الأنظمة العميلة لها بالسماح لجمع التبرعات وإرسال المجاهدين العرب إلى أفغانستان مع مراقبة الأحداث، واستطاعت أمريكا زرع العديد من عملائها، الذين تمكنت من خلالهم فيما بعد من شق صفوف المجاهدين بعد اندحار السوفييت، ووصل الأمر إلى تدمير مخازن سلاح المجاهدين الذي تم شراؤه بأموال المسلمين، ثم اغتيال الشهيد –بإذن الله– عبد الله عزام، والرئيس الباكستاني ضياء الحق..

– إشاعة أن أمريكا هي التي قتلت السادات..

والصواب: أن السادات هو الذي قتل نفسه بتطاوله على الشريعة والرموز الإسلامية

علانية وبوقاحة غير معهودة، فاجأت حتى المقربين منه، مما استفز الشعور العام، وكان اعتقال محمد الإسلامبولي شقيق خالد الضابط بالقوات المشتركة في العرض هو السبب الرئيسي للتفكير في اغتياله، ونجاح هذه العملية.. وأما ادعاء أنه تم التغاضي عن مرور منفذي العملية بأسلحتهم، فهذا كذب صريح، ولكن الواقع أن الضابط المسئول عن طابور العرض كان قد مرض مرضًا مفاجئًا، فتم تعيين بديل له، لم يتمكن من تفتيش العربات واحدة واحدة.. واضطر لتفتيش واحدة وترك الأخرى عشوائيًا، وقدر الله أن تكون عربة منفذي الاغتيال ضمن العربات التي لم تفتش «عشوائيًا».

– إشاعة أن أمريكا هي التي صنعت أحداث الحادي عشر من سبتمبر..

وقد أثبتت الوثائق التي أفرجت عنها القاعدة أن الأحداث من تخطيطها وتنفيذها، وضحوا بأهم اثنين من عناصرهم لتأكيد تلك المعلومات..

– إشاعة أن العداء الأمريكي والغربي للإسلام بدأ بعد أحداث سبتمبر..

والصواب: أن العداء الأمريكي للإسلام بدأ منذ نشأة أمريكا كدولة، حيث حمله إليها قادة الهجرة الأنجلوساكسون، وليس أدل على ذلك من جلب المسلمين من غرب أفريقيا واستعبادهم، وبدخول أمريكا في المعترك السياسي العالمي في الحرب العالمية الثانية، جاء دورها لاستلام تركة أوربا المنهارة المتمثلة في أقطار العالم الإسلامي بكل ما تحتويه من ثروات طبيعية وخصائص استراتيجية!

ولكن التساؤل الذي يفرض نفسه: ما الهدف من وراء تلك الإشاعات؟!

هناك علة واحدة لكل هذه الإشاعات: هو نزع الثقة من الإنسان المسلم في أن يكون قادرًا على صنع شيء!

والمنهزمون أمام الجاهلية، وفاقدو الثقة في أنفسهم ودينهم، هم الذين يتجاوبون مع هذه الإشاعات، ويصدقونها.

والواقع أن للجاهلية نظريات ومذاهب واتجاهات ومدارس ونظمًا سياسية مختلفة[1]، لكن ما نعنيه بالعنوان هو النظرية السياسية الجاهلية في عدائها مع الإسلام؛ لأن هذا العداء هو جوهر السياسة الجاهلية. وبهذا الاعتبار فإن هذا الاختلاف في هذه النظريات والمذاهب والاتجاهات والمدارس والنظم السياسية المختلفة يصبح أمرًا شكليًّا بالنسبة لهذا الجوهر وتعددًا سطحيًّا بالنسبة لاتجاه الهدف الأساسي والنهائي للجاهلية، وهو القضاء على الإسلام.

وللدلالة على هذه الحقيقة نَذكُر مثالًا بأقصى تناقض شكلي في إطار النظريات السياسية الجاهلية يحقق أكبر توحد في حرب الإسلام، وهذا المثال هو الديمقراطية والديكتاتورية؛ حيث يمثل أكبر تقابل في إطار النظريات الجاهلية أكبر توحد في إطار النظرية الجاهلية الواحدة.

فكلا النظريتين يمنع وجود واقع صحيح للدعوة.

فالديمقراطية.. هي أن يتكلم الجميع!

والديكتاتورية.. هي أن لا يتكلم أحد!

وهاتان النتيجتان المتقابلتان بالنسبة للدعوة يحققان نتيجة واحدة، وهي أنه لن يسمع أحدٌ لأحد، حيث لا تقوم الدعوة إلا في واقع يجد فيه من يتكلم.. أحدًا يسمعه.

---

(1) سواء فكرًا قوميًّا، أو وطنيًّا، أو كان مذهبًا سياسيًّا، أو ديمقراطيًّا، أو ديكتاتوريًّا، أو كان نظامًا سياسيًّا جمهوريًا، أو ملكيًا، أو رئاسيًا، أو كانت مدارس سياسية شرقية، أو غربية.

وفي الديمقراطية يتبدد الفكر الصحيح في واقع الإسفاف والثرثرة، وفي الديكتاتورية يتوارى الفكر الصحيح في واقع القهر والكبت.

وفي الديمقراطية يضيع الإنسان المفكر في ظواهر الفوضى الفكرية والإعلامية، وفي الديكتاتورية يختفي الإنسان المفكر في غياهب السجون، وفي كلا النظريتين.. يغيب الإنسان المفكر، والفكر الصحيح.

وأقرب تشبيه للفرق بين الديمقراطية والديكتاتورية هو فرق اللون بين الضباب والظلام؛ حيث يكون التقابل التام في اللون الأبيض والأسود بنتيجة واحدة: وهي انعدام الرؤية.

وجوهرية النظرية السياسية الجاهلية في مواجهة الإسلام لها غاية ثابتة وهي الصد عن سبيل الله.

والصد عن سبيل الله كغاية سياسية جاهلية له خطوط محددة:

- **منع ظهور الدين**: «قتل الأنبياء والذين يأمرون بالقسط من الناس».

- **منع حدوث الامتداد إذا فرض الظهور**، من خلال التركيز على الزعامة - كمحاولة منع الرسول الخروج من مكة- كما قال سبحانه: **{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ}** [الأنفال: 30].

- **التفسير غير الحقيقي للامتداد** إذا فرض هذا الامتداد، كما فسر رستم قائد الفرس خروج المسلمين للقتال بقوله: «ما أخرجكم إلا الجوع».

فإذا ظهر الدين وفرض وجوده وتحقق امتداده.. نشأت خطوط أخرى:

- **منع الدين السياسي**: العلمانية.

وفي منع الدين السياسي عشنا فترة تمتد على الأقل منذ حركات الإحياء القومي في أعقاب الحرب العالمية الأولى وحتى هذه اللحظة؛ حيث يدور التصور حول حقيقة واحدة، تدور وتنبع من مبدأ تقييد الدلالة السياسية للإسلام، وإبعاده بصورة أو بأخرى من الحركة السياسية ومن واقع الصراع السياسي.. قبل الحرب العالمية بدعوى العلمانية، وبعد الحرب بدعوى الاشتراكية وتقييدها للتقاليد الإسلامية[1].

- **مقاومة السلفية ونشر البدع**، للتحول بالناس إلى مرحلة «الانتساب العاطفي» الخاطئ: التصوف..

- **ثم مرحلة «الاقتلاع العاطفي»**: الانحلال والإدمان..

- **ثم اقتلاع الجذور التاريخية..**

ومثال هذه المحاولة ما يتم في بلاد العالم المنتسبة إلى الإسلام مثلا؛ حيث يتم هدم فكرة الخلافة تاريخيًّا من خلال الفكر العلماني، وتأكيد الانتساب لمرحلة ما قبل الانتساب -مثل الفرعونية في مصر- لإضعاف الانتساب الإسلامي التاريخي، وتغيير الآثار والمعالم الدالة على الانتساب الإسلامي التاريخي لهذه البلاد[2].

---

(1) سلوك الممالك في تدبير الممالك. كتاب الشعب.

(2) مثل تغيير اسم شارع عمرو بن العاص إلى شارع كورنيش النيل، فترى اللافتة وقد كتب عليها شارع كورنيش النيل، وتحت ذلك وبخط صغير: عمرو بن العاص سابقًا.

ومثل تغيير علم محافظة القاهرة الذي تمثله المئذنتان اللتان عند باب زويلة وتحويله إلى شمس فوق عبارة: محافظة القاهرة.. وبذلك عاد آمون رع وذهبت المئذنتان.

– الفصل بين الدعوة والناس بتشويه الصورة الاجتماعية للدعوة[1].

وإيقاع الضرر بالعامة بسبب أصحاب الدعوة مثل مقاطعة قريش لبني عبد مناف حتى يكره الناس هذه الدعوة.

وفي ثنايا خطوط الصد عن سبيل الله تبرز عدة قواعد للسياسة الجاهلية.

قواعد السياسة الجاهلية في الصد عن سبيل الله:

قاعدة الهدف الناقص:

وتفسير هذه القاعدة يرجع في حقيقته إلى أسلوب شيطاني في منع اجتماع العوامل التي يتحقق بها هدف واحد، مثل هدف الأمة الواحدة التي تعبد رب العالمين، كما في قول الله: **{إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ}** [الأنبياء: 92] فيمنع الشيطان تحقيق هذا الهدف بالتعامل مع أحد العوامل بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون ولكن في التحريش بينهم**»[2].

وفي الأساس فإن الشيطان يحاول القضاء على هذه العوامل كلها ولكنه عندما ييأس من هذا الهدف فإنه يمنع هذه الثانية، بمعنى أن الجاهلية قد تسلم بمرحلة لا تمثل هدفًا كاملًا.

ففي مقاومة الجاهلية للدعوة سياسيًّا فإنها تنطلق من قاعدتها الأساسية وهي منع الدعوة من الوصول إلى هدفها الكامل.

---

(1) سبق شرح ذلك في باب البعد الاجتماعي للتصور السياسي.

(2) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس (156/17/6 – نووي).

وبهذه القاعدة ننتقل إلى واقع الصراع السياسي بين الجاهلية والإسلام.

فالهدف الإسلامي الذي تسعى الحركة الإسلامية إليه هو: إقامة الجماعة المسلمة القائمة على التوحيد، والجهاد لإقامة الدولة التي تقوم بها الخلافة الإسلامية.

والعوامل التي يتحقق بها هذا الهدف لها صفة ثنائية، مثل:

العلم والعمل:

وتبعا لقاعدة الهدف الناقص فإنه من الممكن أن تسمح الجاهلية بظاهرة علمية ينقصها العمل بمقتضى هذا العلم، ولا تتعامل مع الواقع، لتحويل الدين إلى **ظاهرة ثقافية**، وعندئذ لن يكون هناك أي خطر من هذا العلم على الجاهلية.

وكذلك فإنه من الممكن أن تسمح الجاهلية بطرح نظري لقضايا التوحيد.. دون أن يكون لأصحاب هذا الطرح النظري أي قوة تلازم هذا الطرح للدفاع عنه، ولا تبلغ حد المواجهة إذا كان هناك محاولة للقضاء عليهم إذا أرادت ذلك.

الزعامة والأتباع:

وتبعا لقاعدة الهدف الناقص فإنه من الممكن أن تسمح الجاهلية بظاهرة جماهيرية، ويسمح بأتباع لا تجمعهم زعامة توجهها وتحقق بها أهداف الدعوة، كما يمكن أن تسمح ببروز زعامات مقطوعة الصلة بالناس.

القوة والسياسة:

وتبعا لقاعدة الهدف الناقص فإنه من الممكن أن تسمح الجاهلية بممارسة سياسية لا تقوم على القوة –الحركات الإصلاحية– ليسهل إيقافها في أي وقت، أو توجيهها لصالح السلطة الجاهلية.

مثال: أن تسلم الجاهلية بوجود كثرة مسلمة في واقعها إذا فرضت هذه الكثرة وجودها؛ ولكنها –أي الجاهلية– تركز في مقاومة الدعوة إذا وصلت إلى هذه المرحلة على الزعامة، فتفرض أو تسمح بنوع من الزعامة يحدث في هذه الكثرة تأثيرًا يذهب أثرها..

لأن الزعامة الصحيحة والكثرة المسلمة.. هدف كامل.

أو تركز على التفريق، لأن الوحدة والكثرة هدف كامل.

وعندما تحاول الجاهلية مهمة التفريق فإنها لا تستغل فقط اختلافات منهجية بين هذه الكثرة، ولكنها تسعى إلى إنشاء التناقض الذي تضمن به عدم إمكانية تجاوز المحاولة الجاهلية في التفريق.

وفي هذا الإطار يمكن نقل قضايا خلافية تاريخية مثل إتاحة مساحة كبيرة لفكر إرجائي أو خارجي بين واقع أهل السنة.

وعندما تعلم الجاهلية أن الصراع بين الاتجاهات أو حتى محاولة تجمعهم سيستهلك

طاقة أصحاب الدعوة؛ فإنها ستسمح بذلك إذا كان تقديرها أن محاولة التجمع هذه ستبوء حتمًا بالإخفاق.

وعناصر الهدف الكامل هي الامتداد الإسلامي الصحيح الوحيد القوي، وتحقيق النقص يمكن أن يأتي بفقد أي عنصر من هذه العناصر.

قاعدة الخطر الأول:

وفي مقاومة الجاهلية للدعوة في حال الامتداد الواسع.. فإن أعداء الدعوة يصنّفون أصحابها تصنيفا فكريًّا وأمنيًّا، ويقومون بترسيخ الاختلافات المنهجية بين اتجاهات الدعوة، ووضع العناوين والتسميات للكيانات المختلفة بمضمونها ومصطلحاتها المنهجية؛ ليسهل التعامل مع كلٍّ منها على حدة، والانفراد بأخطرها عليهم، ثم تتعامل مع الآخرين بأسلوب مختلف يحقق نوعًا من الأمان والانفصال عن الخط الذي سيتم التركيز عليه من جانب الجاهلية.

والقاعدة التي تواجه بها الدعوة هذا الأسلوب.. هي اليقين بأن الجاهلية ترفض الإسلام كلية، بل لا تقبل مجرد كلمة «الإسلام».

قاعدة الاتجاهات الوهمية للصراع:

فعندما تسعى الجاهلية إلى تحويل الدعوة عن الاتجاه الصحيح للمواجهة.. فإنها تطرح اتجاهات وهمية للصراع، تُقنع الذين يفكرون في مصلحة الدعوة بالتحرك في هذه الاتجاهات من خلال مواقف غير حقيقية لإثبات فاعلية هذه الاتجاهات، مثل السماح ببعض النتائج السياسية المأخوذة من الممارسة التي تحولت إلى هذا الاتجاه[1]، ومثل حادثة

---

(1) أبرز مثال على ذلك: تاريخيًا: التجربة النيابية الأردنية التي انتهت إلى لا شيء، وحاليًا: التجربة التركية.

إسقاط الرئيس الأمريكي نيكسون من خلال عمل صحفي قامت به الصحف الأمريكية والتي عرفت باسم فضيحة «ووتر جيت».. لتصبح تلك الحادثة نموذجًا يحتذى به، ولكي يقولوا بعد ذلك:

- أن النظام الديمقراطي استطاع بالوسائل الدستورية (!) تخطي السلطة الرئاسية، وكشف المؤامرة المدبرة، وملاحقة الرئيس قضائيًّا، ومن ثم الإطاحة به!

- أن العمل الإعلامي والصحفي لديه القدرة على تغيير الواقع السياسي متى امتلك المعلومة.

بينما هي مناورة سياسية للتغطية على صراعات مراكز القوى التي تدير الصراع من وراء الكواليس، وتقوم بعمل إخراج «سينمائي» لنتيجة الصراع.

قاعدة سرقة الكفاح:

والواقع أن تَدَخُّل الجاهلية بعد أن تقطع الدعوة شوطًا هائلًا من طريقها وتقترب من تحقيق هدفها.. له أمثلة تاريخية محددة، نضرب لها مثلًا قديمًا من دعوة موسى.. وهو موقف السامري والعجل بعد أن مرت أشد مراحل الدعوة قسوة وشدة وهي فترة تعبيد فرعون لبني إسرائيل، حيث تم الخروج من مصر؛ ليكون وقوف موسى ببني إسرائيل بين يدي الله عند جبل الطور لأخذ التوراة وإقامة دولة الحق المنشودة، وإذا بموسى يتعجل اللقاء فيسبق بني إسرائيل وتغيب القيادة ليظهر السامري متبنيًا الهدف الذي حدده موسى من قبل وهو لقاء الله عز وجل لتلقي الشريعة.

فيأمر السامري بني إسرائيل بجمع الحلي، وهو التصرف الذي جعل من كل بني إسرائيل صناعًا مشاركين في خطيئة العجل.

وعندئذ انفصلت جماهير بني إسرائيل عن دعوة موسى، فلم يسمعوا لأخيه هارون

وتوجهوا نحو العجل، واحتل السامري موقع الزعامة، وكان مضمون تجربة السامري هو أن اقتراب الدعوة من تحقيق أهدافها لا يجعل الجاهلية تسلم بالأمر الواقع، بل تحاول احتواء هذه النتيجة، وإعادتها إلى فترة الضعف الأول..

ومن المثل القديم.. إلى الواقع الحديث.. بنفس المضمون.

مواقف تاريخية خطيرة جدًّا بلغت خطورتها أن كانت تمثل أخطر المواقف الفارقة في تاريخ الحركة الإسلامية.. وبمضمون واحد لم يتمكن فيه أصحاب الحركة الإسلامية من منع هذا التكرار على مر الزمان، مع تحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوقوع في نفس الخطأ مرتين بقوله: «**لاَ يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ**»[1].

فمنذ سقطت الخلافة قامت حركات الإحياء الإسلامي بالدعوة إلى الجهاد ومقاومة الجيوش الصليبية –الإنجليزية والفرنسية– في كل الأقاليم الإسلامية..

في مصر بزعامة مصطفى كامل، ورشيد رضا، ومحب الدين الخطيب، ومصطفى الرافعي، ثم بقيادة حسن البنا والإخوان المسلمون، ومعه صالح حرب الذي أسس الشبان المسلمين.

وفي الجزائر قامت حركة جمعية العلماء بقيادة العلامة عبد الحميد بن باديس..

وكذلك في ليبيا قامت دعوة الجهاد ضد الإيطاليين إسلامية خالصة بزعامة عمر المختار.. حتى تحوَّلت بعد وقت طويل من الجهاد عن عقيدة أهل السنة والجماعة بواسطة إدريس السنوسي الذي جاءت بعده الثورة الليبية.

وفي كل هذه التجارب كانت النتيجة واحدة: نجاح السامري في اختراق الحركة، وسرقة

---

(1) صحيح البخارى (20/ 302).

الكفاح!

غير أن أخصب هذه التجارب وأحقها بالدراسة، كانت تجربة الإخوان المسلمون:

الإخوان المسلمون وثورة يوليو:

وكان أشد هذه المواقف موقف عبد الناصر والثورة من دعوة الإخوان؛ حيث بلغت دعوة الإخوان مرحلة كانت فيها من السلطة قاب قوسين.

لقد كان الإخوان المسلمون أقوى كيان سياسي:

- قضية ومشروع حضاري.
- زعامة تاريخية.
- عناصر قيادية ذات كفاءة عالية.
- قدرة تنظيمية حركية هائلة.
- قيادات عسكرية داخل الجيش والشرطة، ابتداءً من عزيز المصري الذي كانت علاقته بحسن البنا وثيقة جدا.
- مقاتلون حققوا بطولات ضد اليهود في فلسطين والإنجليز في القناة صنعت موقفًا تاريخيًّا حقق أكبر رصيد من التقدير والإكبار في نفوس الناس.
- قاعدة جماهيرية ضخمة منتمية ومؤيدة ومتعاطفة تكاد تستوعب الشعب المصري كله.

كيف استطاع أعداء الإسلام القضاء على هذا كله؟!

وإذا التجربة تبدأ بحلقتها الأولى: تغييب القيادة بقتل الإمام حسن البنا.

ثم الحلقة الثانية: وهي تبني نفس الأهداف التي طرحتها دعوة الإخوان في خطتها الإصلاحية، فكانت أهداف الثورة هي مضمون رسالة الإخوان المسلمين، فتحولت الجماهير -في أغرب صورة- عن دعوة الإخوان وتوجهت نحو الثورة[1].

وبمقارنة سريعة بين المثلين: تجربة السامري وعبد الناصر.. يتضح أن أخطر عناصر التوافق هو التدخل في مرحلة ما قبل تحقيق الهدف[2].

---

(1) أكد الأستاذ محمد قطب هذه الحقيقة في كلمة مسجلة له، قال فيها: «اتصل محمد نجيب تليفونيًا بالمنزل وطلب الكلام مع سيد وقال له: نحن تلاميذك تتلمذنا على مقالاتك في مجلة الاشتراكية وعلى كتابك: العدالة الاجتماعية، ونريد أن تكون أنت مستشارنا في الأمور الداخلية فذهب إليهم واحتفوا به احتفاءً شديدًا في مبدأ الأمر على أساس أنه أستاذهم الذي وجههم، وما كان يعرفهم ولا كان التقى بهم أبدًا قبل ذلك،» كما أكد أن الأستاذ سيد قطب عمل طوال الأشهر الستة الأولى من عمر الثورة في توجيه رجالها في الأمور الداخلية، حتى تبين له النفوذ الأمريكي على رجالها، فامتنع عن التعاون معهم.

وقد اتهمت قيادات الإخوان صراحة جمال عبد الناصر بأنه اختطف مخطط ثورة يوليو- التي أطاحت بأسرة محمد علي من الحكم في عام 1952- من جماعة «الإخوان المسلمين» التي قال إنها كانت صاحبة فكرة الثورة والمخطط الأول لها، وإنه كان على اطلاع بالمخطط بحكم انتمائه إليها آنذاك، لكنه بادر بتنفيذه من خلال تنظيم «الضباط الأحرار»، بتعليمات من جهاز المخابرات الأمريكية (CIA) خوفا من قيام الجماعة بالثورة والسيطرة على الحكم في مصر.

(2) أكد مدير محطة المخابرات الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط -إبان ثورة يوليو- هذه المعلومات في مذكراته التي نشرها عام 1970 وأكد فيها أن الـCIA هي التي دبرت وخططت ونفذت الثورة من خلال مجموعة من العملاء، وعرض الكثير من الأدلة التي تبرهن على صدق ادعاءاته، وقد عرضت هذه الادعاءات على كثير من رموز المرحلة الناصرية، وأهمهم هيكل، فلم يستطيعوا تكذيبها، أو إثبات زيفها، بل إن خالد محيي الدين أحد أعضاء مجلس الثورة اعترف أن عبد الناصر كان على علاقة بالمخابرات الأمريكية عن طريق «كيرميت روزفلت» المهندس الأمريكي لثورات المنطقة..

وكذلك صرح اللواء معروف الحضري أحد قادة الجيش المصري في حرب عام 1948 أن عبد الناصر كان له اتصالات مع اليهود أثناء حصار الفالوجة، وطلب عبد الناصر منه شخصيًّا التعاون مع ضابط المخابرات الإسرائيلية «كوهين».. وقبل الثورة صرح بن جوريون في الكنيست الإسرائيلي بأن انقلابًا عسكريًّا سيقع في مصر سيكونون

ولعل مضمون هذين المثلين التاريخيين يحقق الإدراك التام لحجم الضرر المترتب على غياب القيادة في واقع الدعوة.

أما الحد النهائي لهذا الخطر فهو أن تغيب القيادة برغبتها وإرادتها؛ والعلة الثابتة دائمًا في هذه الغيبة هو الزهد في السلطة الذي يفهم على أنه إخلاص وتجرد.

وهذا الفهم قد يكون صحيحًا إذا كان هذا الزهد لا يخرج بالسلطة عن إطار الدعوة وأصحابها الحقيقيين، أما أن يزهد أصحاب الدعوة في السلطة لتكون في أيدي أعدائها فتلك هي الجريمة الكبرى.

وهذا عمر مكرم أكبر الشيوخ في مصر التي كانت في مرحلة الانقياد التام لزعامة العلماء يسلم قيادة البلاد لمحمد علي في أغرب تصرف تاريخي بدأت به أكبر مرحلة تواجد علماني في مصر.

وغاية السياسة الجاهلية الثابتة هي: الصد عن سبيل الله، حيث تحاول تحقيقها بمضمون ثابت، هو البحث دائمًا عن أشد فترات الضعف التاريخي للدعوة الإسلامية.. ثم تحليلها ومحاولة إعادتها بكل عناصرها إلى الواقع، لتعيد الضعف المرتبط بتلك العناصر..

والآن تحاول الجاهلية إعادة بعث هذه المراحل بكل عناصرها:

- إحياء الصراع الديني من خلال إعادة الحروب الصليبية.

- إحياء الصراع الطائفي، عن طريق تأجيج الصراع السني الشيعي.

أشد فرحًا به من المصريين أنفسهم..

– إحياء الصراع المذهبي من خلال نفخ الروح في الصوفية بفسادها الاعتقادي وجهلها وسلبيتها وعدائها لأهل السنة، وإعادة إحياء المذاهب الميتة كالمذهب الظاهري، والأشعري وغيرهما.

وبعد قواعد السياسة الجاهلية الأصلية نمتد إلى أخطر عناصرها (عناصر الممارسة السياسية الجاهلية): المكر السيئ.

المكر السِّيئ:

والمكر هو التدبير الخفي، وقد وصفه الله بالسوء؛ لغلبة الصفة عليه، ولأن مجرد التدبير الخفي قد يكون للخير.

وخطر المكر السيئ يرجع إلى عدة حقائق:

– أننا على وجه الحقيقة لا نتحمل هذا المكر؛ لأن الله وحده هو القادر عليه، وهو سبحانه الذي يصده عنا، وهذا المعنى مأخوذ من قوله تعالى: **{وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ}** [إبراهيم: 46].

– وأننا لا نستطيع صدّ هذا المكر؛ لأن الفاعلية الخبيثة للمكر الجاهلي كادت أن تزيل الجبال، وهو المأخوذ من قوله تعالى: **{وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الجِبَالُ}** [إبراهيم: 46].

والموقف الصحيح في مواجهة المكر الجاهلي هو الصبر على هذا المكر عندما يكون له أثر في الواقع، وإمهال الكافرين رويدًا حتى ترى الفعل الإلهي ردًّا على هذا المكر؛ لأننا كطرف من الدعوة خارجين فعلًا من دائرة المكر بين الله وأعدائه، وهو المأخوذ من قوله سبحانه: **{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}** [الطارق: 15- 17].

ولذلك تكون أول صيغ الفعل الإلهي في رد المكر الجاهلي هو ارتداد أثره على مدبريه، وهو المأخوذ من قول الله: **{وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ}** [فاطر: 43].

ذلك أننا غير قادرين على وجه الحقيقة على صد المكر الجاهلي؛ لأنه مكر دائم لا يتوقف لحظة، وهو المأخوذ من قوله سبحانه: **{بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}** [سبأ: 33].. ولا يكون زمن إلا ليل أو نهار.

- والموقف الصحيح في مواجهة المكر الجاهلي أيضًا هو أن نقف بالدعوة الموقف الصحيح ونعطيها وجودها الشرعي الذي تستحق به الدفاع الرباني عنها وعن أصحابها.

ومما يجعلنا نؤكد على الالتزام الشرعي المطلق في مواجهة الجاهلية هو استحقاق الدفاع الإلهي عن الدعوة، حتى لو خالف ذلك مقتضى التفكير العقلي أو العملي، وهذه هي طبيعة التصور السياسي للحركة الإسلامية.

فلا غدر ولا خيانة؛ لأن الله لا يحب الخائنين..

ولا ظلم؛ لأن الله لا يحب الظالمين..

غير أن لمكر الجاهلية خطوطًا ثابتة في كل تجاربها مع الإسلام:

مرحلة **التعذيب والقتل** الهادفة إلى القضاء على أصحاب هذه الدعوة، وهي المرحلة التي تظن كل الجاهليات أنها المرحلة الحاسمة والنهائية.

ولكن المفاجأة تكون عندما تتجاوز الدعوة هذه المرحلة، فيتجه التفكير الجاهلي إلى مرحلة تقليدية أخرى وهي:

الاستنفار العام، ومعناه: حشد كل القوى الجاهلية وكل أساليبها في مواجهة شاملة مع الدعوة، وهي المرحلة التي يرتفع فيها العداء للدعوة إلى المستوى القومي، وتتحرك فيها الجاهلية

في كل الاتجاهات الأمنية والسياسية والإعلامية والاجتماعية، وتكون صيغة الاستنفار العام: **{أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ}** [ص: 6].

{امْشُوا}: تحركوا في كل الاتجاهات، **{وَاصْبِرُوا}**: اثبتوا على آلهتكم التي كادت الدعوة تنسفها نسفًا، **{إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ}**: إنها خطة محكمة متفق عليها بين الجميع، ولكلٍّ دوره فيها.

ويثبت أصحاب الدعوة ثباتًا يستحقون به التأييد من الله.

الفصل الثاني

محاور النظرية السياسية الجاهلية

1- المحور الإعلامي:

ولكن الجاهلية تقاوم، وسيكون أخطر عناصر هذه المقاومة: المواجهة الإعلامية الجاهلية للدعوة الإسلامية.. وسيتركز المحور الإعلامي هو الآخر على عدة ركائز:

- **المتابعة الدقيقة لأصحاب الدعوة** بحيث لا تدع الداعية لحظة واحدة يخلو فيها إلى الناس، وهذا أبو لهب يحقق أعلى مستويات المتابعة، حيث يسير وراء الرسول وهو يدعو إلى دين الله ليقول للناس في آخر كلامه: هذا ابن أخي.. لا تصدقوه.

ومنذ أن انتشرت الشياطين في جميع الأرض لم تقف المتابعة عند حد إقليمي أو مستوى دولي، وقد مر في الكتاب أنه كما كانت المتابعة في مكة كانت في المدينة، وقد مر كيف أرسلت قريش إلى عبد الله بن أُبيٍّ تعتب عليه وجود الرسول في المدينة وتهدد بالتدخل العسكري لإنهاء هذا الوجود.

وليس هناك من دليل على دقة المتابعة العالمية للحركة الإسلامية من حادثة كعب ابن مالك[1].

- **التأكيد على إصابة أصحاب الحدث الإسلامي بأمراض وعقد نفسية**.. مثلما قال قوم شعيب لنبيهم بعد إعلان دعوته: **{إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آَلِهَتِنَا بِسُوءٍ}**

---

(1) جاء في قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك –وكعب بن مالك أحدهم– أن ملك غسان لما علم بأمر رسول الله للمسلمين بمقاطعة الثلاثة، أرسل رسالةً إلى كعب مع رجل نبطي جاء فيها: «أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّهُ قَدْ بلغني أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ»..

[هود: 54].. ومثلما قالوا لرسول الله بعد إعلان النبوة: إن كان أصابك شيء طلبنا لك الأطباء[1].

- **التنفير الدائم للناس من أصحاب الدعوة**، وذلك من خلال تصويرهم في أذهان الناس في صورة سيئة، وهذه هي الفكرة القديمة التي مارسها فرعون عندما قال عن موسى: **{أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ}** [الزُّخرُف: 52]؛ وذلك بسبب العقدة التي كانت في لسان موسى، وكذلك اتهام بني إسرائيل لموسى بأنه آدر لما وجدوه لا يستحم معهم، وجاء ذلك في قول الله: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهًا}** [الأحزاب: 69].

هذه الفكرة القديمة التي تُمَارَسُ بالأساليب الحديثة والخبرات الفنية، ونظرة واحدة إلى صور المقبوض عليهم في قضايا إسلامية تؤكد لك هذه الحقيقة.

تصنع الصور بالأساليب الحديثة، بحيث تظهر: الزيغ في النظرات، والبلاهة في الوجوه؛ لإثبات الانحراف والتيه، والشعاثة في الشعر، والشراسة في الملامح.. وخلفيات مظلمة سوداء.. وصفحات الجرائد هي المستند والدليل..

كل هذا ضروري في مهمة الإعلام الجاهلي، وكله نابع من النظرية الأساسية للإعلام الجاهلي بصورة محددة!

والحقيقة: أن النظرية الإعلامية بصورة محددة.. هي السحر والكهانة.

وهذا هو إعلام الجن والشياطين ببعثة النبي.. يقول فيه أحد الشياطين: «أَلَمْ تَرَ الجِنَّ وَإِبْلاسَهَا، وَيَأْسَهَا مِنْ بَعْدِ إِنْكَاسِهَا، وَلُحُوقَهَا بِالقِلاصِ وَأَحْلاسِهَا»..

---

(1) انظر ابن هشام (1/ 314، 315).

ويقول شيطان آخر وذلك بعد أن صرخ صرخة لم أسمع[1] صارخًا قط أشد صوتًا منه: «يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول: لا إله إلا الله».. وهكذا يكون الأسلوب مؤثرًا.

أسلوب الجن والسحرة..

الصرخة المؤثرة والأخذ بالقلوب.

الصيغة الاستفزازية للعقل.. ماذا تعني الصرخة؟!

صورة امرأة سوداء مثيرة لشعرها[2]..

صوت.. صورة.. عبارة.. أسلوب.. عناصر إعلامية بحتة.

والتكرار أخطر عناصر الإعلام.

الخبر الصادق بجانب مائة كذبة.. نظرية الجن في تحقيق التصديق هي نفس نظرية الأنباء.. فيكذب الكاهن مائة كذبة[3].

وهذه هي عناصر الإعلام الشيطاني.

ولما كان الأمر متعلقًا بالتفاعل العقلي والنفسي فلا بد أن يكون الإعلام: **{زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}** [الأنعام: 112].. عناصر إعلامية جاهلية بحتة.

زخرف القول: للإقناع بما لا حقيقة له أو مضمون.. إقناع بالظاهر والشكل

---

(1) القائل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.. رواه البخاري في المناقب، باب إسلام عمر (3866).

(2) صورة الجنية التي كانت مرتبطة بالصنم الذي سمع الصوت عنده.

(3) كما قال النبي تصعد الشياطين تسترق السمع فلتسمع الخبر فتلقيه إلى الكاهن فيكذب مائة عليه كذبة.

والأسلوب، وهذا هو الزخرف.. أما غرورًا: فهو التغرير.

ولأن الإعلام الجاهلي أداة للتعامل مع الإنسان، فقد تطلب ذلك عدة خصائص:

– الشكل المنطقي.

– والصفة المبدئية، كما حاول أن يبدو بها أبو جهل عندما قال في غزوة بدر: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يُعرَف فأحنه الغداة. فكان المستفتح[1].

– السمة الإنسانية، كما قال عقبة بن أبي معيط في الإسلام: «فَرَّقَ الناس، وخَرَّبَ الديار، وجعل الولد يقتل والده»[2]..

وكما تحاول الجاهلية اليوم تجاوز حقيقة الدين بزعم المفاهيم الإنسانية: الحرية، الإخاء، المساواة.

والإعلام الجاهلي هو وسيلة الجاهلية العقلية والنفسية في الإنشاء والإبقاء على الكفر والفساد، وهو ساحر الحكم الجاهلي.. المحقق لمهمة الرضى والمتابعة بالكفر، وهو المقاوم للكراهية العارضة لهذا الكفر.

– ومن أجل ذلك لا بد من الاستيعاب الكامل لوقت الإنسان وعمره، بحيث لا تفوت لحظة دون أن تكون فتنة، كما قال سبحانه: **{بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ}** [سبأ:33].

– ولا بد من التناسب الدقيق مع العقلية البشرية كهدف للإعلام، ولعل مؤتمر الندوة

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (431/5).

(2) هي مجموعة آثار ومنها هذا الأثر ذكره ابن هشام في السيرة (1 / 314- 317).

الذي حاول الاتفاق على وضع وصف للقرآن دليل على هذا التناسب[1].

– ولا بد من الأسلوب المؤثر السهل العبارة التي تخرج من هذا الفم ليتلقفها الجميع فتصبح على جميع الألسنة.. والحقيقة أن عبد الله ابن سلول هو أستاذ هذا التعبير الإعلامي الجاهلي.. فهذه عبارة من عباراته: «سمِّن كلبك يأكلك».

ولكن كل عناصر الإعلام الجاهلي لا ترى مجتمعة إلا في مواجهة أي حدث إسلامي؛ عندئذ تكون **العناصر المباشرة المواجهة للحدث**:

– **التهوين من شأن الحدث**: مثلما قال أبو لهب تعقيبًا على إعلان الرسالة من النبي صلى الله عليه وسلم من فوق جبل مكة: «تبًّا لك طول يومك ألهذا جمعتنا»[2]، وكأن حدث الرسالة لن يبقَ إلا يوم إعلانه «طول يومك»، الأمر الذي لا يستحق الجمع «ألهذا جمعتنا؟!».

– **قطع الصلة بين أفراد الحدث والواقع الاجتماعي الذي تم فيه الحدث**، حتى لا يكون لهؤلاء الأفراد امتداد اجتماعي.. مثلما قال عروة بن مسعود لرسول الله صلى الله عليه وسلم: جئت بأوشاب الناس لتفض بيضتك. حتى أفهمه ابن أخيه أنهم ليسوا أوشابًا وكان يلبس المغفر على وجهه فضرب يد عمه، وقال له: اخفض يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عروة: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك[3].

– **إعلان أنهم ليسوا على شيء**.. مثلما استشار المشركون اليهود في أمر الدعوة، فأخبرهم اليهود أن المشركين أفضل من المسلمين، وكما قال القرآن على لسان اليهود في

---

(1) نقول: كاهن.. ليس بزمزمة الكهان، نقول: مجنون.. ليس بخنق الجنون، نقول: شاعر.. ليس بالشعر ولا سجعه، ثم اتفقوا على أن يقولوا: سحر، قائلين: إنه يفرق بين المرء وأبيه وأخيه وزوجته.. (يراجع البخاري ومسلم).

(2) وعزاه السيوطي في الدر (6 / 701) إلى البخاري ومسلم.

(3) سبق تخريجه.

المشركين: **{هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا}** [النساء: 51].

– **المزايدة على أصحاب الدعوة**.. مثلما زايد المشركون على المسلمين بسقاية البيت وعمارة المسجد الحرام، فأنزل الله عز وجل: **{أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ وَعِمَارَةَ المَسْجِدِ الحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ}** [التوبة: 19].. والصورة الحديثة للمزايدة على أصحاب أي حدث إسلامي تافهة نفس التفاهة القديمة.

فعندما حدثت محاولة الفنية العسكرية، تم تخصيص أماكن خاصة للسيدات في المواصلات، وزيادة البرامج الدينية في وسائل الإعلام، والاهتمام بأقرب مناسبة دينية والمبالغة في الاحتفال بها.

ولكي تمنع الجاهلية أثر أي حدث إسلامي فإنها بعد أن تمارس رد الفعل الإعلامي المذكور سابقًا بعناصره.. فإنها تبحث عن أخطاء يغلب الظن فيها أنها لا تنال تأييد الناس..

مثل قول اليهود للرسول: ما بالك تنهى عن الفساد في الأرض وتقطع الشجر؟! فرد القرآن عليهم مبينًا تفسير الموقف[1].

ومثلما أخطأ بعض من أرسلهم الرسول صلى الله عليه وسلم في سرية فقتلوا بعض المشركين في الشهر الحرام، فأرسلوا إلى رسول الله وقالوا: ما بالك تقتل في الشهر الحرام؟![2].

فرد عليهم مقررًا في البداية خطأ هذا الفعل: **{يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ**

---

(1) يراجع البعد القدري للنظرية السياسية.

(2) عزاها السيوطي في الدر (448/1) إلى ابن جرير وابن المنذر، وابن أبي حاتم والطبراني والبيهقي في السنن عن جندب بن عبد الله.

فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ} [البقرة: 217].

هذا أساس الحكم.. لكن الذين قَتلوا لم يكونوا يعلمون أنهم دخلوا في الأشهر الحرم، فهذا اعتذار عن الفعل.

وإذا لم يكن هذا السؤال مجرد تشنيع بالمسلمين وكان حرصًا على حرمات الله.. فهناك حرمة أكبر وقعوا هم فيها وهم يعلمونها: **{وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ}** [البقرة:217].

ولا زالت الجاهلية تتابع الحركة الإسلامية وتبحث عن خطأ لها!

الإعلام الجاهلي ليس إعلام خبري أو تأثير نظري.. ولكنه مصدر توجيه أمني لكل العملاء بكل مستوياتهم السياسية لاتخاذ قرارات ضد الدعوة..

ومن الأمثلة الدالة علي ذلك قرار القبض علي الأستاذ محمد قطب عام 1965 الذي جاء بعد أن نشرت مجلة أمريكية مقالا عنه.

ويعلق محمد قطب على تلك الأحداث بقوله: إن محنة الإخوان عام 1965م لم تكن من صنع محلي مصري، فأول إشارة لبداية هذه المحنة، كانت ما نشرته إحدى المجلات الأمريكية عن كتاب «جاهلية القرن العشرين» لمحمد قطب، وكتاب «معالم في الطريق» لسيد قطب، وقد كتبت المجلة الأمريكية تحذر من الكتابين، ومن الكاتبين ووصفتهما بالتعصب[1].

ومن أمثلة ذلك أيضًا حملة الاعتقالات التي حدثت في عين شمس وإمبابة بعد أن

---

(1) جابر رزق، مذابح الإخوان في سجون ناصر، ط2، القاهرة، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ص26.

كتبت إحدى المجلات الأجنبية عن الشباب المسلم في هذه المناطق[1].

ومن أمثلة ذلك كذلك، ما جاء في مقدمة كتاب موسى صبري: السادات بين الأسطورة والحقيقة، حيث قال في المقدمة: انتبهوا فلان وفلان -يقصد بعض عناصر الدعوة- خارج السجون.

السيطرة النفسية:

وهي أهم أهداف الإعلام الجاهلي، وأقوى دلائلها:

- فرض هيمنة المصطلحات الغربية في مجال الممارسة السياسية..

ومن أبرز هذه المصطلحات: فرض مصطلح العالم العربي بديلا عن الأمة الإسلامية، ثم فرض مصطلح الشرق الأوسط بديلا عن العالم العربي.

وأخطر ما في هذه المصطلحات سرعة انتشارها بمجرد صدورها عن الغرب، وتحولها إلى لغة دارجة على الألسنة.

- **منهج صياغة النشرات الإخبارية**، والتي تعد أخطر وسيلة للسيطرة النفسية على العقل المسلم المتابع للأحداث عبر العالم، وتزييف الحقائق والنتائج بصورة مضطردة، لفرض حالة الإحباط، وقتل أي أمل في إحراز أي نجاح لأي طرف مسلم.

إن هدف الوسائل الإعلامية الجاهلية هو صنع الصورة المناسبة للأهداف الجاهلية في

---

(1) في أواخر عام 1992 قامت مراسلة لوكالة الأنباء العالمية رويتر بجولة في حي إمبابة، مرتدية زيًّا فاضحًا مستفزًّا، وقامت بمحاورة بعض أئمة المساجد، وتم نشر التحقيق الملفق بعنوان مثير: جمهورية إمبابة المتطرفة، وعلى إثر نشر هذا التحقيق قامت جحافل الأمن المركزي والقوات الخاصة بمداهمة الحي، واحتلال أسطح المنازل، وفرض حظر التجول لفترة أسبوع كامل، تم فيه اعتقال عدة آلاف من الشباب المسلم.

الواقع..

والتأثير في العقل البشري بصورة سلبية على الدعوة.. في الوقت الذي لا تملك فيه الدعوة أي وسائل إعلامية لمواجهة هذا الخطر.

ولكن الدعوة تملك -بإذن الله- سبق الإعلام إلى الواقع والعقل البشري..

ليشاهد الناس الإنسان المسلم صاحب الخلق والمروءة، ويتعامل الناس مع الداعية الصادق الأمين..

فيحبط هذا السلوك كل محاولات التشويه.

هم يملكون الوسائل التي يحاولون بها التأثير في الواقع، ولكننا نملك واقع الناس أنفسهم بالعلاقات والمعايشة المنضبطة بالأحكام الشرعية.

- **صنع قيمة سياسية للإعلام الجاهلي** لتكون مصدرا للفاعلية الإعلامية في الواقع، ومثال ذلك ما عرف باسم فضيحة (ووتر جيت).

2- المحور الاقتصادي:

إن الجاهلية تنشئ بسياستها وضعًا اقتصاديًّا عالميًّا ينقسم الناس فيه إلى قسمين: الفقر المنسي، والغنى المطغي.

وهما الحالتان اللتان تبتعدان بالإنسان عن إدراك الحق، فالذي ينسى نفسه فقيرًا يصعب عليه التفكير الصحيح في الواقع، والذي لا يرى نفسه إلا غنيًّا وطاغيًا يصعب عليه إدراك الواقع؛ ولذلك حذر رسول الله من هاتين الحالتين في إطار التحذير من الأسباب التي تبتعد بالإنسان عن الحق والصواب، فيقول: «**بادروا بالأعمال سبعا: هل تنتظرون إلا فقرا منسيًا، أو غنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا، أو موتًا**

مجهزًا، أو الدجال فشرٌّ غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر»[1]؛ من أجل ذلك أنشأت الجاهلية المصطلحات المشار إليها: مصطلح الدول النامية، ومصطلح الدول الصناعية الكبرى؛ حيث يعيش الفقر المنسي والغنى المطغي تحت هذين المصطلحين.

إن خطة الإفقار الجاهلية للعامة تهدف إلى إحداث معاناة معيشية شديدة تستهلك كل الطاقة الذهنية والنفسية للإنسان، وكذلك تهدف إلى تفتيت العلاقات الاجتماعية كنتيجة للحرص والأنانية، ومحاولة كل إنسان تحقيق أكبر قدر ممكن من المصالح الشخصية.

وحتى لا يصل الفقراء إلى نقطة الانفجار والثورة فإن السينما والتلفزيون يبتعدان به عن هذه النقطة من خلال موضوعات الأفلام والمسلسلات اليومية التي تضرب على الجرح والوتر الحساس فتثير الشجون تارة، وتارة أخرى تعالج الموضوعات التي تعرض حياة الترف والأرستقراطية التي تحدث نوعًا من السعادة وتعويض الحرمان..

وتارة ثالثة تعرض الموضوعات التي ينتصر فيها الفقير على الغني من خلال قصص الحب.. والمبادئ والأخلاق والشهامة.

المهم أن يبقى الفقر بلا ثورة..

أما خطة الغنى المطغي: فمنها خطة الترف الذي يفقد أصحابه الإحساس الحقيقي بغيرهم من البشر، وعندئذ لن تكون دعوة؛ لأن الدعوة إحساس بالغير.. وكذلك ستجعلهم يفتقدون حاسة البحث عن الحق؛ لأن الترف أنشأ عندهم معيارًا للحق وهو المال فقط، وعندئذ لن تكون دعوة؛ لأن الدعوة بحث عن الحق، وتجعلهم يفتقدون إدراك الواقع وعندئذ لن تكون دعوة؛ لأن الدعوة هي ثمة الإدراك الصحيح للواقع.

---

(1) أورده السيوطي في الدر (6 / 184) وعزاه إلى ابن المبارك في الزهد والحاكم وابن مردويه عن أبي هريرة.

إن المترفين هم أصحاب المال عندهم تفسير كل شيء، وعلة كل تصرف، وحكمة كل حدث، وأساس كل واقع ومنتهى كل غاية وقيمة كل إنسان.. إن الترف هو عدو الدعوة الأول.

ومن هنا فإن أهم مقتضيات الصراع بين الجاهلية والإسلام هو تخليص الإنسان من حالة الفقر المنسي، وواقع الغيبوبة النفسية والذهنية التي يعيشها البشر، كما يوجب على الدعاة أن يعملوا بكل أساليبهم على إعادة العقل البشري من غيبوبة الفقر المنسي وإفاقته بكل المؤثرات النفسية والعصبية، وبكل الأساليب الكلامية والعملية، كما يجب أن يقف الدعاة أمام الترف الجاهلي وعناصر الثراء للاستعلاء بالإيمان وتجرده وكرامة الزهد وكرامة الزاهدين ومكانة العلماء؛ ليفيق المترفون عندما يشعرون أن هناك قيمة أعلى من المال وحقيقة أكبر منه هي قيمة الإيمان والإسلام.

سياسة المواجهة للنتيجتين:

إن التصور السياسي الصحيح يفرض على الدعاة في مواجهة الفقر المنسي والغنى المطغي أن نتعامل مع الإنسان بأقصى إمكانيات التأثير:

الإثارة الفكرية والعاطفية.. بأعمق أبعادها.

المواقف التي تبكيه.. الخواطر التي تخيفه.. العبارات التي تطمْئِنه.

يجب أن يهتز الإنسان أمام الدعاة هزًّا عنيفًا.. ويسكن سكونًا تامًّا، يجب أن يستحوذ الدعاة على كيان الإنسان كله، يجب أن يقف الإنسان أمام الدعاة كأن على رأسه الطير..

لا حراك.. سوى حركة النَّفَس ونبض العروق..

يجب أن يتكلم الدعاة بكل الألسنة وبكل الأساليب؛ لينسى الإنسان أمام الدعاة حياته الدنيا، سواءً كان فقيرًا أو غنيًّا..

ليبحثوا عن كل القصص الصحيحة.. كل الطرائف.. كل المواقف.. السيرة.. حياة الصحابة.. الرقائق.. الكرامات والمعجزات.. الجن والملائكة.. القبر وعذابه.. الجنة والنار.. كل الإسلام.. كل حقائق الإسلام.. كل قضايا الإسلام.

لإنقاذ الفقراء الناسين والأغنياء الطاغين.

وفي النهاية.. يجب أن يترفع الدعاة عن مصالح الدنيا؛ حتى لا يتهمهم الفقراء ولا يستهين بهم الأغنياء.

عندئذ يمكن الإطاحة بالاتجاه الاقتصادي المنشئ لمصطلحات: العالم الثالث.. الدول الصناعية الكبرى.. الدول النامية.. المعونة الاقتصادية...

هذا المصطلح الذي يعني أن كيانات الدول النامية عالة على الأرض، لا تتجاوز أهدافها وآمالها هدف العيش وأمل الاستقرار بالحصول على هذه المعونة، فتفرض الدول العظمى إرادتها على الدول الأخرى.

إن حالة الغنى المطغي خطر شديد على الدعوة، وفي مواجهة هذا الخطر يكون استعلاء الإيمان: **{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ}** [الأنفال: 36]، وهذه الآية تعالج أثر الغني الجاهلي من عدة نواحٍ:

أن هذه الأموال ستكون حسرة ولن تنصرهم في الدنيا، بل سيغلبون وفي الآخرة سيدخلون بها جهنم.

فلا تغرنا هذه الأموال: **{لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي البِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المِهَادُ}** [آل عمران: 197] **{مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي البِلَادِ}** [غافر: 4] **{وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآَخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ}** [الزخرف: 35]

المال والسلطة:

وتصور العلاقة بين المال والسلطة له عدة أبعاد تثبتها نصوص شرعية قاطعة، منها قول الله سبحانه وتعالى: **{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ}** [غافر: 23، 24]. حيث جمع الله سبحانه وتعالى في الآية بين فرعون وهامان ومعهما قارون، علمًا بأنَّ قارون كان من قوم موسى، كما قال سبحانه: **{إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالعُصْبَةِ أُولِي القُوَّةِ}** [القصص: 76].

ولكن باعتبار أنَّ رسالة موسى كانت إلى السلطة القائمة المتسلطة على بني إسرائيل.. دخل قارون –رغم أنه من بني إسرائيل– كعنصر أساسي من عناصر هذه السلطة، ولعلّ هذا المعنى هو الذي يتضمنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما ذكر الصلاة يومًا فقال:

«مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يكُنْ لَهُ نُورٌ، وَلاَ بُرْهَان، وَلاَ نَجَاة وَكَانَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ، وَفِرْعَونَ، وَهَامَانَ، وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ»(1).

يقول الإمام ابن القيم: «وإنما خص هؤلاء الأربعة بالذكر لأنهم من رؤوس الكفرة،

(1) رواه أحمد (169/2، 6576)، قال الهيثمي (292/1) رجاله ثقات، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح.

وفيه نكتة بديعة، وهو أن تارك المحافظة على الصلاة إما أن يشغله ماله أو ملكه أو رياسته أو تجارته، فمن شغله عنها ماله فهو مع قارون، ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون، ومن شغله عنها رياسته ووزارته فهو مع هامان، ومن شغله عنها تجارته فهو مع أبي بن خلف».

كما أن ذكر هؤلاء الرؤوس في سياق الانشغال عن الصلاة يدل على أنَّ السلطة والحكم هما مضمون النص، باعتبار أن إقامة الصلاة في التصور الإسلامي هي غاية التمكين، وإقامة السلطة: **{الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ}** [الحج:41].

ولعلنا نلاحظ تقديم قارون على فرعون في ترتيب رؤوس الكفر! وهذا الترتيب يرجع إلى غلبة أثر المال على الحكم، باعتبار أن المال أساس السلطة، وبه يمكن شراء السلطة، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: «**بَادِرُوا بِالمَوْتِ سِتًّا: إِمْرَةَ السُّفَهَاءِ، وَكَثْرَةَ الشُّرَطِ، وَبَيْعَ الحكْمِ، وَاسْتِخْفَافًا بِالدَّمِ، وَقَطِيعَةَ الرَّحِمِ، وَنَشْوًا يَتَّخِذُونَ القُرْآنَ مَزَامِيرَ، يُقَدِّمُونَهُ يُغَنِّيهِمْ، وَإِنْ كَانَ أَقَلَّ مِنْهُمْ فِقْهًا**»[1].

وحتى في فتنة الدجال التي تمثل الصيغة النهائية للسلطة الجاهلية، نجد أن المال من أخطر عناصرها، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: «**يَأْتِي عَلَى القَوْمِ فَيَدْعُوهُمْ، فَيُؤْمِنُونَ بِهِ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ، فَيَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ، فَتَرُوحُ عَلَيْهِمْ سَارِحَتُهُمْ أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًا، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا، وَأَمَدَّهُ خَوَاصِرَ، ثُمَّ يَأْتِي القَوْمَ فَيَدْعُوهُمْ فَيَرُدُّونَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلِينَ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ شَيْءٌ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَيَمُرُّ بِالخَرِبَةِ فَيَقُولُ لَهَا: أَخْرِجِي كُنُوزَكِ، فَتَتْبَعُهُ كُنُوزُهَا كَيَعَاسِيبِ**

---

(1) أورده الهيثمي (مجمع الزوائد 245/5) وصحح الألباني نحوه في الصحيحة (979).

النَّحْلِ»[1].

ومن هنا كان المترفون هم أعداء كل الرسل: **{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الغُرُفَاتِ آمِنُونَ}** [سبأ: 34-37].

ومن هذا السياق القرآني يتبين لنا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ هذَا المَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَنِعْمَ صَاحِبُ المُسْلِمِ مَا أَعْطَى مِنْهُ المِسْكِينَ واليَتِيمَ وَابْنَ السَّبِيلِ**»[2].

قال: «**المال.. نِعْمَ صَاحِبُ المُسْلِمِ**»؛ ولم يقل: «نعم المسلم صاحب المال» حتى لا تكون دعوة إلى الغنى.

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**نِعْمَ الْمَالِ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**» يوافق قوله سبحانه وتعالى: **{وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا}** [سبأ: 37].

3- المحور القانوني:

ورغم أن الجاهلية فوضى وخروج عن الأصول، إلا أن الشيطان يرغب في امتصاص الطبيعة البشرية التي ارتكزت فيها بصورة دفينة الرغبة في النظام والحياة في ظله..

---

(1) أخرجه مسلم (2250/4، 2937).

(2) أخرجه البخارى (532/2، 1396)، ومسلم (728/2، 1052).

ولعل المثال التاريخي لهذا الوضع هو اعتراض قوم شعيب على الرسالة باعتبارها نظام يحرمهم من التصرف في أموالهم وفق أهوائهم: **{قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ}** [هود: 87].

وبالرغم من هذه الفوضى فإن الجاهلية تختلق لها نظامًا، لفرض الشيطنة، والتحايل على الفطرة الإنسانية في حب الخضوع للنظام، مثلما اختلقت الجاهلية نظامًا دقيقًا للتصرف في كل شئون الحياة:

في الزمن: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا المُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ} [التوبة:36].

وعندما فُتِحت مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ تَعَالَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلاثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو القَعْدَةِ، وَذُو الحِجَّةِ، والمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ شَهْرُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ، وَقَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ: أَلَيْسَ الشَّهْرَ الحَرَامَ؟ قُلْنَا: بَلَى..**».

أي أن الزمان استعاد انضباطه بعودة الحج في ذي الحجة إلى يوم القيامة، إبطالا لما كانت العرب في جاهليتها عليه من تأخير الحج المنسي الذي كانوا ينسئونه عاما بعد عام، فأنزل الله تعالى: **{إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا}** [التوبة:37].

في الأنعام: **{مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا**

يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ} [المائدة:103-104].

وفي ظل هذا «النظام» المختلق تفعل الجاهلية ما تريد..

ولكن العلة في انتشار النظام الجاهلي لا تقف عند حد امتصاص الإحساس الطبيعي المركوز في النفس البشرية بالرغبة في النظام؛ ولكنها في الأساس.. أسلوب يضمن به الطاغوت أن تكون له قيادة العالم وزعامته، ليسيطر من خلال هذه القيادة وتلك الزعامة على جميع الناس.

لذلك انطلقت الجاهلية في المرحلة القائمة لمقاومة الدعوة في اتجاهات متعددة، وكانت الحرب العالمية هي رصيد السياسة الجاهلية عالميًّا..

ففي الحرب العالمية كانت خسائر وهزائم ومكاسب وانتصارات امتد أثرها في كل أنحاء العالم، وكان لابد أن يكون لذلك نتائج ومعطيات في الواقع، وتحت زعم تجنب هذه الويلات نشأت الأمم المتحدة، ولكن السبب الحقيقي هو فرض سيطرة الدول المنتصرة على العالم.

ولكي يبقى لهذه الهيئة فاعليتها..

يجب أن تبقى آثار الحرب الثانية التي تمثل رصيدًا لقانون النظام العالمي، ولا بد أن تبقى الحرب نفسها في إحساس العالم باعتبارها المصدر الفعلي لقوة القانون، وأول عناصر هذا الاتجاه هو إحياء الحرب في عقل العالم وضميره من خلال الأفلام والقصص.

ولعل أبرز الأمثلة على ذلك، إبقاؤهم على مساعد هتلر سجينًا في سجن تشرف عليه دول الحرب المنتصرة، وتتناوب حراسته دولة كل ثلاثة أشهر باعتبار هذا السجين أطول أثر واقعي للحرب، حتى عرف باسم «أغلى سجين في العالم».

وكنتيجة طبيعية مرتبطة بنتائج الحرب أنشأت الجاهلية هيئة قانونية تحقق نظامًا يخضع له جميع الناس.. وهي مجلس الأمن (الهيئة الجاهلية القانونية العالمية).

وفي إطار دستور الأمم المتحدة الذي أعطى حق العضوية الدائمة في مجلس أمنها لدول محدودة، وحق الفيتو مع حق العضوية الدائم.

من خلال هذا الوضع تمت الاتفاقيات والمعاهدات، وكان أخطرها التي تم الاتفاق فيها على وضع العالم تحت وصاية ومسئولية الدول الكافرة المسماة بالعظمى.

إن نظام الأمم المتحدة يضمن خضوع العالم لنظام جاهلي تتضاءل بجانبه أي محاولة لتحكيم شرع الله في حياة الناس.

وتضع صاحب أي محاولة للخروج عن هذا النظام فجأة في موقف عدائي أمام كل العالم، وبذلك تجسد الأمم المتحدة -بصورة قانونية- حقيقة يؤمن بها المسلمون، وهي أن الدعوة إلى دين الله هي لحظة العداء الكامل مع كل العالم.

من هنا لا بد أن نعلم أن الأمم المتحدة هيئة قائمة على العداء للإسلام، والدليل على ذلك هو تاريخها كله منذ نشأتها، وسيطرة أمريكا -المعادية للإسلام- على هذه الهيئة.

كما يجب أن نعلم أنه تحت مظلة هذه الهيئة يمكن فعل أي شيء..

ففي ظل الاستكبار العالمي الكافر، وفي ظل التفسير والتبرير القانوني للاستكبار العالمي الكافر «الأمم المتحدة»..

أدوات الإقناع والتبرير ثابتة بكل مصطلحاتها السياسية:

الاعتداء.. سيكون ضربة استباقية واحتياطًا أمنيًّا وقوميًّا.

والعقوبات.. ستكون إجماعًا وقرارات دولية.

والاحتلال.. سيكون قوات أممية تستمد سلطتها من الهيئة الدولية، «وليس استعمار دولة لدولة».

ويكفي لشن حرب على أي هدف أن يكون «خطرًا على الاستقرار العالمي» و«خارجًا على الإجماع الدولي».

أما الأعضاء والتصويت.. فيكون بغالبية الدول العميلة المضمونة.

هذا على المستوى الدولي، أما علي المستوى الإقليمي.. فكل حاكم عميل له مهمة أساسية واحدة: «ضرب الإسلام»..

أما الاقتصاد والمشروعات القومية فلا تخرج عن مجال المعونات والعمولات، وطبقة رجال الأعمال العملاء، ومنع وصول المال إلى أي يد إسلامية.

وأما السياسة فهي تنفيذ التعليمات في كل المواقف والمشكلات والمنظمات والمؤتمرات.

والمسار السياسي هو نفس المسار الصليبي الأمريكي..

مرورا بالمنظمات والهيئات التابعة..

وانتهاء بالقوات الدولية، التي تقتل ليتوزع دم القتيل على دول العالم!

وأغلب المشكلات التي طرحت في الأمم المتحدة لها علاقة مباشرة بالإسلام والدول الإسلامية، والمثال التاريخي على ذلك: فلسطين – البوسنة والهرسك.

ومع ذلك تجد من يقارن بين الأمم المتحدة وحلف الفضول الذي قال فيه رسول الله

صلى الله عليه وسلم: «**لقد حضرت في دار ابن جدعان حلفًا لو دعيت إليه الآن لأجبت**»[1]، وخطأ هذه المقارنة جاء من عدم إدراك الفرق الأخلاقي بين «كفار» حلف الفضول «وكفار» الأمم المتحدة.

(1) أخبار مكة للأزرقي (261/3).

4 – المحور النفسي:

ومن أخطر المحاور النفسية للسياسة الجاهلية: هو امتصاص رد الفعل الإسلامي إذا فعلت الجاهلية ما يقتضي هذا الرد بحيث يتبدد رد الفعل الإسلامي بصورة نفسية شعورية غير عملية أو خطيرة ولعل أخطر الأمثلة على ذلك:

حادث سقوط الخلافة الإسلامية: ذلك الحدث الذي كان قتلًا لكل مسلمي العالم فكانت قصائد شوقي التي نعى فيها سقوط الخلافة بمثابة المستأجرة في المأتم التي تسعد أهل الميت فيخفف هذا من وطأة الفجيعة.

وكان منصب «الخلافة» الصوفية الذي تهتم به الدولة وتعطيه الصفة الرسمية حيث يخرج «الخليفة» في المولد النبوي الشريف يركب «الفرس» وحوله «السيوف الخشب» و«الرايات» فيخرج الخليفة على جموع الشعب «المتصوفة» وهم يشعرون أن هذا «الخليفة» خير من ملء الأرض من «الخليفة» الذي ذهب..

ولكن هذه الخدعة الكبرى لا تستسيغها العقول الواعية فليكن لهؤلاء ما يخمد مشاعرهم ويهدئ من روعهم.. فكان السماح بالجمعيات الدينية التي وضعت على رأس برنامجها «إعادة الخلافة» والتي أشعرت أصحاب هذه العقول الواعية أن الخلافة ستعود ولكنها مسألة وقت.

ولكي ندرك خطورة المحور النفسي للسياسة الجاهلية نضرب له أمثلة من المواقف السياسية، منها:

– زيارة السادات للقدس صباح العيد: توقع صاحب القرار السياسي أن يكون لخبر الزيارة رد فعل شعبي غاضب، فتم الإعلان عن الزيارة في الجرائد التي وزعت صباح يوم العيد، حيث كان الناس في حالة فرح واسترخاء، لتحجيم رد الفعل إلى أدنى مستوياته.

– وهناك قاعدة نفسية سياسية عامة، وهي إخضاع الشعوب للقوى المتسلطة من خلال التقاليد الرمزية والواقعية، فعندما خضعت مصر للقوى الشرقية، كان اللونان الأحمر والأصفر – وهما مكونا العلم السوفيتي– هما اللونان الشائعان المنتشران في أرجاء مصر، ولما انتقلت الهيمنة إلى الجانب الغربي –أمريكا وحلفائها– كان اللونان الشائعان في مصر هما اللون الأحمر والأزرق.. وهما مكونا العلم الأمريكي.

كما انتشر العلم الأمريكي بكل أحجامه ومعه رمز المعونة الأمريكية لتحقيق الربط بين الخضوع السياسي والذل الاقتصادي.

وهناك خطة شاملة للتطبيع النفسي مع العدو الأمريكي، على كل المستويات العمْرية، تشمل التقاليد والثقافة والموضات والهوايات الشبابية، وطريقة التفكير.. من خلال الأفلام، والمسلسلات، والبرامج، والمهرجانات.. وحتى لعب الأطفال وأفلام الكارتون!

والمحور النفسي يتداخل مع كل محاور النظرية السياسية السابق ذكرها.

5 – المحور العسكري:

ويتمثل في التطور التكنولوجي في التسليح، إلى الحد المحقق ليأس جميع البشر في مواكبته، ليستمر التطور حتى يصل إلى ما يطلق عليه حرب الفضاء، لتصبح الأرض موقعًا تم الانتهاء منه! ثم حرب الكواكب التي لا تمثل فيها الأرض إلا كوكبًا صغيرًا!! فتتضاعف مشاعر السيطرة من جانب الدول العظمى.. ومشاعر اليأس من الجانب الآخر.

تمامًا مثلما سيشعر يأجوج ومأجوج بغلبهم لأهل الأرض فقالوا: الآن نحارب أهل

السماء؛ فوجهوا لها حرابهم فنزلت مخضبة بالدماء فتنةً لهم![1]

ولكن..

رغم كل هذه المحاور، وتحت كل هذه التراكمات الصخرية والطبقات الجاهلية، يكون غليان الإيمان، ويفتح الفهم الإسلامي الصحيح فوهة البركان..

مهما كان الوضع.. ومهما كانت المؤامرة..

سيفتت البركان الإسلامي تراكمات السياسة الجاهلية العالمية.

الله أكبر..

قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أشد لحظات المشقة..

في الخندق.. عندما اجتمعت الأحزاب فكان المسلم لا يأمن أن يخرج ليقضي حاجته.. ووقف حجر أمام الصحابة وعجزوا عن تحطيمه، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ معولًا ويضرب الحجر ضربة؛ ويرى في غبار حجر الخندق ثلاث صور:

الصورة الأولى: مدائن الفرس.

الصورة الثانية: قصور الروم.

الصورة الثالثة: اليمن[2].

اختلطت الدول العظمى بغبار حجر الخندق..!

---

(1) روى ابن ماجه هذا الحديث في الفتن، باب: فتنة الدجال وخروج عيسى (2 / 364 / ح 4080).

(2) رواه البيهقي في الدلائل (3 / 421) عن البراء بن عازب، والنسائي في الكبرى.

وتبدد الوهم –وهم الدول العظمى– التي تحولت إلى مجرد صور من الغبار..!

وفتحت الفرس، وفتحت الروم، وفتحت اليمن.

إن عالمية الدعوة عقيدة رسخها رسول الله صلى الله عليه وسلم، مثلما صنع نوح سفينة فوق الرمال، وسخر القوم من رسول الله كما سخروا من نوح، وقالوا: لا يأمن أحدنا أن يقضي حاجته ويعدنا بقصور الروم ومدائن كسرى![1]

ولم يدر الساخرون أن الطوفان آت ليعم الأرض.. عقيدة سهلة نرى الأرض فيها تنزوي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيرى فتوحاته المقدرة له من عند الله.. قدر سهل: **{إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}** [يس:82-83].

(1) انظر ما سبق.

الباب الرابع

الموقف السياسي العام

للصراع بين الجاهلية والإسلام

الفصل الأول

عناصر تقييم الموقف العام

أولا: من الجانب الجاهلي:

1-طبيعة السياسة الجاهلية (الاستراتيجية - العمق - الشمول):

لا يمكن الوصول إلى الموقف السياسي العام بين الجاهلية والإسلام إلا من خلال إدراك طبيعة السياسة الجاهلية وإمكانياتها ومستوى تخطيطها.

والسياسة الجاهلية تقوم على البحوث العميقة التفصيلية المتكاملة، وتدرس الإنسان حتى الأعماق، والمجتمعات حتى القاع، وتاريخ الشعوب وطبائعها وتقاليدها.

كما أنها تتابع الواقع.. وتتصل بكل ما يمت إلى الدراسة بصلة، من خلال أجهزة مخابرات وسفارات وعملاء.

وعندما تتناول موضوعًا فإنها تتناوله بصورة شاملة..

فإذا كان الإنسان هو الموضوع السياسي فإنها تتابعه منذ ولادته حتى موته سلوكا وعقلا وعاطفة!

وإذا كان الموضوع هو الدين فإنها تتابعه من أصوله حتى فروعه: عقيدة وشريعة وفكرًا ومنهجًا، وذلك كله من خلال كل المؤسسات والهيئات العلمية، ومراكز البحوث المنتشرة في كل أنحاء العا لم.

حتى يمكن القول بأن الدعوة الإسلامية أمام العداء السياسي العالمي بكل إمكانياته وطاقاته وخبراته..

2-الوحدة السياسية العالمية الجاهلية (العداء السياسي للإسلام):

لعل ظاهرة الوحدة الجاهلية على المستوى العالمي هي الظاهرة التي استحوذت على الشعور الإسلامي المتجه دائمًا نحو باطن الجاهلية لكشف أسرارها المجهولة، ومعرفة عللها الخفية، كمحاولة لتفسير ظواهرها، ولذلك تعاملت الجاهلية مع الشعور الإسلامي تعاملًا خطيرًا، فقدَّمت بنفسها تفسيرًا لهذه الظاهرة، وجوابًا لهذه التساؤلات.. من الذي يحكم العالم.. وكيف؟

ومكمن الخُبث في هذه التفسيرات[1] أنها وضعت أمام الشعور الإسلامي أهدافًا وهمية، وغرست الإحساس بالسيطرة الجاهلية على العالم، وذلك في غيبة الإحساس بإحاطة الله لجميع خلقه, فانطبع في الأذهان أنه ليس هناك شيء في حياتنا إلا وقد أخذ موضعه ضمن المخطط المرسوم للعالم، ونشأ إحساس بالتضاؤل أمام الجاهلية.. كمخطط لا يمكن مواجهته بل ولا معرفة غموضه.

وفي إطار هذه الوحدة تكون ممارسة التعاون الدولي ضد الدعوة بدون حساسية التدخل في الشئون الداخلية للدول، لأن هذه الوحدة حقيقة سياسية أساسية يخضع لها كل من يدور في فلكها، حيث يكون للعملاء السريين الدور الأساسي في تحقيق مقتضيات هذه الوحدة في تلك الممارسة.

ويأتي النموذج المصري كمثال تاريخي لهذه الوحدة:

فرغم أن التناقض بين الملكية وثورة يوليو كان مثالًا لأقصى درجات تناقض النظم السياسية، إلا أن خطة القضاء على الإسلام تبقى ثابتة بكل مراحلها، لتبقى الحرب على

---

(1) وأشهر هذه التفسيرات هي فكرة الحكومة العالمية السرية التي يحكم بها اليهود العالم عن طريق المجامع الماسونية المنتشرة في كل أنحائه.

الإسلام هي الخط الثابت الوحيد لكل المراحل السياسية بكل تناقضاتها..

فاروق -الملكي- يقتل حسن البنا ويسجن الإخوان..

ويتمم عبد الناصر -الجمهوري- الخطة، ويسجن ويقتل من بقي من الإخوان..

ولا يعني القول باجتماع العالم الجاهلي على الإسلام ألا يكون هناك صراع بين أطراف هذا العالم المعادي، وإلغاء تقسيمه إلى شرق وغرب، أو شيوعي ورأسمالي..

ولكن يعني أن يكون للعداء مع الإسلام الاعتبار الأساسي في أي صراع، وعندئذ يكون الصراع بين الأطراف الجاهلية المعادية للإسلام هو صراعًا بين من اجتمع على القصعة لينال منها أكثر من غيره.

والوحدة المصدرية لإدارة الصراع الجاهلي مع الإسلام ليست مجرد ظاهرة إدارية فقط، ولكنها ظاهرة تجتمع فيها التقاليد الجاهلية كطبيعة سلوكية في أي موقف عدائي للإسلام، بدافع من الحمية الجاهلية التي تجرف أصحابها في تيارات هذا العداء.

3-الأساس الديني للصراع (المحورية الصليبية الأمريكية الغربية):

لعل حقيقة الأساس الديني للصراع هي أهم حقائق السياسة الجاهلية، حيث كان الذين لا يفهمون طبيعة الصراع ينكرونه دائما، حتى ظلت أجيال متوالية تفسر الصراع بغير هذه الحقيقة، وظلوا يفسرون الحرب على الإسلام بتفسيرات ومصطلحات كاذبة: مناطق النفوذ.. السيطرة على منابع النفط والمواد الخام.. الإجراءات الوقائية.. الأحزمة الأمنية.. إلى آخره.

وجاءت الحملة الصليبية القائمة لتكشف هذا الكذب المستمر، وأن الإسلام في حسابات هذا الصراع كان دائما هو المحور.. والقضية.. والهدف..

وإعلان الحرب العالمية على الإسلام في هذا التوقيت -بالمضمون الديني- له معنى مهم، وهو أن هذه الحرب ستكون بداية الظواهر المرتبطة بآخر الزمان حتى حدوث الملحمة التي ستكون بين المسلمين والصليبيين كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، لتكون هذه الظواهر أبعادًا نهائية لهذه الحرب التي ستُقَسِّم العالم على المدى الزمني البعيد إلى فسطاطين: فسطاط كفر لا إيمان فيه، وفسطاط إيمان لا كفر فيه، وهي من أهم علامات الساعة.

ومن هنا كانت الحرب على الثوابت في العقيدة، والمقدسات في الدين..

وهذا الفهم هو الذي يقينا شرَّ الغفلة عن الخطة الحقيقية لأعدائنا، حيث يمارسون معنا محاولات رهيبة لتوزيع مناطق الصراع، وتمييع قضايا الصراع، وترتيب الأدوار..

فالحرب الآن موزعة على كل أنحاء العالم الإسلامي؛ ليتوزع الإحساس بالدم المسلم على كل المواقع، فيغيب الشعور بالمذبحة العالمية..!

والحرب الآن.. ليست تحت أسوار القدس ولكنها ذهبت إلى كل موقع من مواقع العالم الإسلامي يمكن أن يأتي منه من يريد الوقوف تحت أسوار القدس.

والحرب الآن لا تقتصر على الجانب الفكري أو السياسي أو العسكري، بل تتعداها إلى كل جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ليعيش المسلمون معاناة البحث عن لقمة العيش.. تحت خط الفقر المنسي، ومعاناة الضياع الاجتماعي.. الذي يؤدي إلى الانحطاط والدعارة والمخدرات، ومعاناة الأمراض والأوبئة.. التي تقتل الأمل في حياة طبيعية..

إن فرض الفقر على العالم المنتسب للإسلام يأتي بهدف المساومة تحت خط الفقر الشديد على الدين والعقيدة، ليكون هذا الفقر مقدمةً اجتماعيةً على المدى الزمني البعيد

لظهور الدجال، الذي سيأتي ومعه جبال الخبز لمن يؤمن به، حتى أصبح الرافض لبيع دينه بعرضٍ من الدنيا علامةً من علامات الاستفهام، وأصبح هذا الرفض عند باعة الدين والقيم موقفًا لا تفسير له..!

نقول ذلك ليفهم الناس أن هذه الحرب ليست حدثًا عارضًا؛ بل هي خطة قديمة موضوعة بإحكام، وضع فيها الشيطان كل إمكاناته وسلطاته ليقطع الوجود التاريخي للأمة المسلمة.

الحرب الآن.. ليس فيها عملاء معدودون، بل هي حرب العملاء.. العملاء أغنياؤها وقادتها..

الحرب الآن.. قتلاها كثيرون ولكن ليس بالسيف القديم، بل باليورانيوم المنضب، وأغذية السرطان والأوبئة، ونشر الفقر والمجون.

وقد لا يتصور البعض أن الحرب الصليبية العالمية على الإسلام قائمةٌ فعلًا، بتأثير الصورة النمطية القديمة للحروب الصليبية التي تسيطر على مخيلتهم، فما من سفنٍ رُسِمَ على أشرعتها الصليب الضخم ترسو على الشواطئ الإسلامية، وليس هناك فرسان للمعبد فوق الخيول..

لأن الحرب الآن يُرَاعَى فيها البُعدُ عن استفزاز الشعور الإسلامي قدر المستطاع، لأنهم يعلمون ما تعنيه يقظة هذا الشعور..!

ومن أجل ذلك تتوزع الأدوار.. ليحقق دورٌ الهدف، ويخفف آخرُ من أثره، ويشتِّتُ ثالثٌ مَنْ يستيقظ..!

على مستوى الدولة الواحدة الداخلة في الحرب: يكون هناك الحزب المحارب، والحزب المعارض للحرب..

وعلى مستوى الأحلاف: تكون هناك الدولة المحاربة، والدولة المعارضة للحرب.. ليصبح الرجاء في القتلة، والأمل في الأعداء.

وإذا كانت الحرب بهذه القسوة، وتلك الشراسة.. فإن المواجهة لابد أن تتناسب معها..

فإذا كان الإنسان هو موضوع هذا الصراع.. فلابد أن يكون هو محور المواجهة..

وإخراج الإنسان من نطاقها لا يعني إلا التأثير فيه بصورة لا تقل عن قوة الغريزة التي تصرخ في كيانه، ليعيش قضيته أقوى مما يعيش غريزته، وينتمي بقوة إلى كيان يحميه، برغبة لا تقل عن رغبة الاحتضان الغريزية في الإنسان.

بحيث لا يبقى في هذا الكيان أي بقية لغير القضية، ويعيش حياة الزهد في الدنيا والشهوات، بحيث لا تؤثر فيه أي محاولة إغراء..

وهذا الحصار الذي تعيشه الدعوة من عصابة الدجال يفرض على أصحابها أن يتعاملوا مع المرحلة بمنطق «الشهادة في سبيل الله»، فنحن الآن في زمن مواجهة الجاهلية بكل إمكانياتها..

1- الخطة الجاهلية الثابتة والواقع المتغير:

اتفقنا أن هناك خطة جاهلية للقضاء على الإسلام، وقد يكون العنوان المطروح لهذه الخطة هو «الحرب الصليبية»..

لكن الجاهلية تضع لهذه الخطة عناوين أخرى لتضليل العقل المسلم عن العنوان الصحيح المعبر عن مضمونها الحقيقي..

ولكل مرحلة من مراحل الخطة عنوانها الخاص بها..

ابتداء من اعتبار الخلافة الإسلامية خلافة عرقية تركية تتطلب الدعوة إلى القومية العربية كبديل لسقوط المشروع الإسلامي تحت عنوان المرحلة القومية..

وتم ذلك من خلال إضعاف الخلافة قبل إسقاطها، وزرع الشقاق بين الأتراك والعرب!

ثم حركات التحرر الهادفة إلى التحول في السيطرة على العالم الإسلامي عن الأسلوب العسكري إلى الأسلوب الاجتماعي الهادف إلى القضاء على التقاليد الاجتماعية الإسلامية تحت عنوان التحرر الوطني..

وتم ذلك من خلال إحياء الاتجاه الإقليمي الذي تمثل في «معاهدة كامب ديفيد»!

ثم الانتقال من القومية والوطنية إلى مرحلة العولمة تحت عنوان الإصلاح السياسي وحقوق الإنسان، ليتحول العالم العربي إلى مجرد خريطة جغرافية ليس لها أي مضمون اجتماعي أو حضاري أو سياسي..!

وتم ذلك على **المستوى السياسي** من خلال مخطط التفتيت «العراق والسودان»..

وعلى **المستوى الاجتماعي** من خلال سياسات الإفقار والقتل بالنفايات والسرطان..

وعلى **المستوى الأخلاقي** من خلال إشاعة الفاحشة ونشر الدعارة والشذوذ والمخدرات..

وعلى **المستوى الفكري** من خلال نشر الإلحاد والعلمانية وإحياء المذاهب والفرق البائدة..

وعلى **المستوى التعليمي** من خلال إفراغ التعليم من أي مضمون ديني إيجابي،

وتحويل مناهج التعليم إلى ألغاز ومتاهات لإشغال الأسر واستنزافها نفسيا وماديًا ومعنويًا..

كانت هذه هي الخطة الموضوعة..

ولكن الأعداء فوجئوا بقدر الله الغالب على أمره **سبحانه وتعالى**، بالقوة الإسلامية الناشئة بقدر الله وحده.

استراتيجية التفتيت:

في مقابل وحدة الموقف الجاهلي، يأتي تعامل الجاهلية مع بقايا «العالم الإسلامي» باستراتيجية التفتيت.. من خلال خطة ثابتة العناصر..

– **تحديد موضوع الصراع**: ديني، مذهبي، عرقي، طبقي، سياسي..

– **صناعة رموز الصراع**: إبراز رموز مصطنعة، وإدخالها بؤرة الصراع لتمثل أطرافه، ليمكن من خلالهم التحكم فيه.. ولضمان الإبقاء على الصراع دون أن يتغلب طرف على طرف قبل القضاء علي قوة الطرفين معًا.. وحتى لا تنقلب مهمة تقوية أطراف الصراع على السلطة العميلة القائمة على تنفيذ خطة التفتيت..

– **إشعال الصراع**: الدخول في مرحلة الصراع الدموي بعد الاحتقان الناشئ عن الصراع التاريخي والفكري المتصاعد..

– **ديمومة الصراع**: وذلك بطريقة الفعل ورد الفعل، وتغذية أطراف الصراع بصورة تجعله مستمرا حتى تقضي أطراف الصراع على بعضها البعض.

– **إظهار الهدف النهائي للصراع**: وذلك بطرح فكرة التقسيم كبديل عن الصراع الدموي الذي ستكون له نتائجه المهولة بمصطلح سياسي مقبول «الفيدرالية»، وزعم أن

مرحلة الفيدرالية ستبقي على الوطن الواحد من خلال سلطة حاكمة واحدة تخضع لها زعامات التقسيم، ثم تقوية هذه الزعامات أمام السلطة الواحدة حتى تصبح كل زعامة سلطة حاكمة وتكتمل الخطة..

– وعند إنشاء دولة جديدة تكون أولى الخطوات هي محاولة الإثبات التاريخي لهذه الدولة.. ثم إثبات الظروف التاريخية التي قضي فيها على وجودها التاريخي، وغالبا ما تثير هذه الظروف تعاطف الرأي العام الدولي مع الدولة الناشئة!

والمثال التاريخي لذلك هو إنشاء دولة إسرائيل التي قامت في جو مشحون بالتعاطف معها، من خلال إثارة موضوع المحرقة، التي بلغت حد دفع تعويضات من ألمانيا لإسرائيل عنها، وما زالت تدفع حتى الآن..

وعلى التوازي كان الإعلام الناصري يشعل التعاطف العالمي مع إسرائيل ببيانات إلقائها في البحر، والتي كان عبد الناصر يُرَدِّدُها دائمًا..

– اختيار أنسب الكيانات في منطقة التفتيت للبدء في تنفيذ المخطط لضمان نجاحه، وللتأثير في الكيانات الأخرى، وتهيئتها لتنفيذ المخطط فيها، ومن هنا كان اختيار العراق في المنطقة العربية.

العراق نموذج للتفتيت:

واختيار العراق للبدء في تنفيذ المخطط له عدة أسباب:

– تعدد موضوعات التفتيت العرقية والمذهبية والسياسية، وكان أخطرها الموضوع المذهبي: «السني/الشيعي» والموضوع العرقي: «العربي/التركماني/ الكردي» والسياسي: «العراقي/الإيراني».

– أن موضوعات الصراع في العراق لها أبعاد تاريخية وعالمية توفر أسبابًا كافية لتصعيد الصراع وبقائه دون أي إمكانية لإيقافه.

ودائمًا تكون الأسباب التي يطرحها أصحاب الخطة كاذبة..

فليس صحيحًا أن طمع أمريكا والغرب في بترول العراق هو الدافع لاحتلاله وتفتيته.. وليس صحيحا أن صدام كان يمثل خطرًا على إسرائيل..

والمكر هنا أن يطرح أصحاب الخطة عدة أسباب، ليكذبوا أحدها بأنفسهم بعد ذلك، لحساب الإقناع بالسبب الآخر.. الكاذب أيضًا!

فَطُرِحَ موضوع أسلحة الدمار الشامل، ليتم تكذيبه في صورة ديمقراطية مبهرة، وليقولوا أن التقارير التي تم تسريبها تثبت أن هناك مصالح شخصية لعناصر الإدارة الأمريكية التي أعلنت الحرب، ليكتفي العقل المسلم عند هذه الحقيقة التي سربتها التقارير، دون أن يصل إلى الحقيقة التي كانت وراء الحرب.. وهي مخطط التفتيت الهادف إلى تدمير الأمة الإسلامية، بإنشاء الصراع السني–الشيعي الذي بدأ في العراق ليمتد إلى كل أنحاء الأمة..

5– تفسير السعار الجاهلي على حرب الإسلام

في بداية الحرب على الإسلام كانت الأهداف الحقيقية للحرب غير معلنة، حتى لا يستيقظ الشعور الإسلامي للدفاع عن دينهم، حتى اطمأن الأعداء إلى تمكنهم من الواقع، واستحالة يقظة هذا الشعور –في ظنهم–..

ولكن الجاهلية تضطر إلى إعلان هدف الحرب على الإسلام.. مما تسبب في يقظة الشعور الإسلامي..

وهذا هو الخطر الأكبر على الجاهلية، فكان لابد من محاربة هذا الشعور..

وكان السعار الذي تحاول به الجاهلية محاصرة الشعور الإسلامي قبل أن يمتد في واقع الأمة..

وكانت عناصر خطة قتل الشعور الإسلامي هي:

– اقتلاع اليقين من قلب الأمة بالحق الذي هي عليه..

فكريًّا: بمحاربة عقيدة أهل السنة ونشر المذاهب المعادية (العلمانية) وإثارة الشبهات حول الإسلام.

وتاريخيًّا: بتشويه التاريخ الإسلامي، حتى لا يكون التاريخ منبعًا للشعور بالحق والذات الإسلامية.

- قطع الامتداد البشري بمواجهة الأجيال الجديدة (الطفل).

- تدمير القوة البشرية للأمة، حتى لا يُستفاد منها، إذا كان هناك بقية من الشعور (الأمراض والمخدرات).

- تحجيم الأمة بشريًّا (قوانين الزواج والنسل).

- تبديد طاقة الأمة في السعي لتحصيل لقمة العيش (الفقر والتجويع).

وكل هذه الأهداف تتم في أسرع وقت ممكن، وهذا هو الأمر الذي يفسر هذا السعار.

وهذه المراحل داخلة ضمن خطة واحدة لها إدارة واحدة بكل مراحلها.

هذه الخطة فوق مستوى الحكومات المتغيرة والرئاسات المتعاقبة لا تتأثر بأي صراع على السلطة في الدولة الواحدة أو أي صراع إقليمي في المنطقة الواحدة.

الخطة بكل خيوطها السياسية تمسك بها الإدارة الواحدة.

ولهذه الإدارة رجالها ومؤسساتها ولها قراراتها الفوقية التي لا تتأثر بأي ظرف سياسي..

وقد تطرح تفسيرات متعددة لهذه الظاهرة ولكنها في النهاية حقيقة سياسية جاهلية مشاهدة ويقينية..

ليصبح العنوان الثابت للخطة هو الحرب الصليبية.

ثانيًا: من الجانب الإسلامي:

1-أصالة الامتداد وصدق الموقف:

يتمثل الموقف الإسلامي في مواجهة خصائص الموقف السياسي الجاهلي في جانبين أساسيين: أصالة الامتداد (السلفية) وصدق الموقف (الشهادة)..

وهما الجانبان اللذان تركز الجاهلية الحرب عليهما، باعتبارهما الجوهر الحقيقي للموقف الإسلامي الذي يتهددها..

فبدأت بمحاولة اختزال «السلفية» في التراث النظري للأمة..

وانتهت بتعميق الهوة بين أصحاب الاتجاهات النظرية وأصحاب الاتجاهات الحركية، لتأكيد حالة الانفصام..

ومن هنا كان من الضروري التأكيد على حقيقة الوحدة بين النظرية والعمل عند سلف الأمة..

ولعل قول الله عز وجل: **{وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}** [العنكبوت:69] هو الأساس في هذه الحقيقة، حيث قال سفيان بن عيينة لابن المبارك: «إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الثغور فإن الله تعالى

يقول: **{لَنَهْدِيَنَّهُمْ}**».

وقد وردت الآية التي تأمر بطلب العلم والتفقه في الدين في سياق عملي جهادي خالص، وبنفس الصيغة التي ورد بها الأمر بالخروج للقتال:

{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ} [التوبة:122-123].

يقول الأستاذ سيد رحمه الله: «ولقد وردت روايات متعددة في تفسير هذه الآية، وتحديد الفرقة التي تتفقه في الدين وتنذر قومها إذا رجعت إليهم.. والذي يستقيم عندنا في تفسير الآية: أن المؤمنين لا ينفرون كافة. ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة –على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون– لتتفقه هذه الطائفة في الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة؛ وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم، بما رأته وما فقهته من هذا الدين في أثناء الجهاد والحركة..

والوجه في هذا الذي ذهبنا إليه –وله أصل من تأويل ابن عباس رضي الله عنهما، ومن تفسير الحسن البصري، واختيار ابن جرير، وقول لابن كثير– أن هذا الدين منهج حركي، لا يفقهه إلا من يتحرك به؛ فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه؛ بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه؛ وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية في أثناء الحركة به. أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا، لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا؛ ولا فقهوا فقههم؛ ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والخروج بصفة

عامة أدنى إلى الفهم والتفقه»[1].

والحقيقة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو مهبط الوحي ومصدر العلم، فإذا نفر للجهاد -كما حدث في تبوك- تعيَّن الخروج على جميع المؤمنين **{مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ}** ويكون خروج من خرج معه نفرة للجهاد وللتفقه في الدين معًا، فإذا لم يخرج صلى الله عليه وسلم وانتدب الناس للجهاد، يكون بقاء من بقي معه للتفقه في الدين.

ومن النماذج التاريخية الجامعة لهذين الجانبين: الإمام ابن تيمية رحمه الله، الذي يقول تفسيرًا لقوله تعالى: **{لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ}** [الحديد:25]:

«فذكر تعالى أنه أنزل الكتاب والميزان، وأنه أنزل الحديد لأجل القيام بالقسط، وليعلم الله من ينصره ورسله، ولهذا كان قوام الدين: **بكتاب يهدي وسيف ينصر**، وكفى بربك هاديا ونصيرا»[2].

ومن منطلق الجمع بين العلم والعمل تكون الشهادة..

ومنطق الشهادة هو أهم ضرورات المرحلة، فنحن الآن في زمن الإيمان القوي والصدق اللازم لمواجهة هذه الجاهلية: **{مِنَ المُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا}** [الأحزاب: 23].

---

(1) في ظلال القرآن في تفسير قوله تعالى: **{وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً...}**.

(2) يراجع: مجموع فتاوى ابن تيمية، فصل أمراض القلوب.

{وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: 21].

وعلم الحديث الذي يعد الركيزة الأساسية لأصالة الامتداد –السلفية–هو أبرز مثال تحقق فيه الارتباط بين العلم والعمل بصورة منهجية وواقعية..

فمن الناحية المنهجية.. اعتمد علماء الجرح والتعديل على الأصلين اللذين تقوم بهما الجماعة –وهما الجهاد والبيعة– في ترتيب طبقات المحدثين.. فرتبوهم كما يلي:

– البدريون المهاجرون الذين حضروا بيعة الرضوان.

– البدريون الأنصار الذين حضروا بيعة الرضوان.

– البدريون المهاجرون.

– البدريون الأنصار.

– المهاجرون ممن حضروا بيعة الرضوان.

– الأنصار ممن حضروا بيعة الرضوان.

وأما من الناحية الواقعية فقد اصطبغ علم الحديث من حيث التصنيف بصبغة الأمة الحياتية، باعتبار أن الحديث هو الأحكام التطبيقية والواقعية في حياة الأمة، وباعتبار أن الجهاد هو قضية الأمة الأساسية، فأصبحت هذه القضية صبغة ظاهرة في كُتب الحديث.

وقد جاء الدليل على العلاقة بين علم الحديث والجهاد من خلال منهج التصنيف عند البخاري، حيث كان كتاب (الغزوات) من أكبر كتب الصحيح..

ثم تبعه (كتاب الجهاد) ثم كتاب (فرض الخمس) وهو مرتبط بالجهاد بكل أبوابه، يضاف إلى ذلك كتاب (صلاة الخوف) الذي تناقش كل أحاديثه أحكام الصلاة في القتال بكل أبوابه، ولهذا الأمر دلالته الواضحة والمثبتة لعلاقة علم الحديث بقضايا الجماعة ومقتضيات قيامها وامتدادها.

وقد ملأت مصنفات علم الحديث العبارات الدالة على هذه الحقيقة، فيقول سفيان الثوري: «الإسناد سلاح المؤمن، فإذا لم يكن معه سلاح فبأي شيء يقاتل؟!»..

ولذلك أيضًا يقول ابن الصلاح في (المقدمة): «وعلم الحديث من أفضل العلوم الفاضلة، وأنفع الفنون النافعة، يحبه ذكور الرجال وفحولتهم».

عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إنكم منصورون ومصيبون ومفتوح لكم، فمن أدرك ذلك منكم فليتق الله، وليأمر بالمعروف، ولينه عن المنكر، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار**»[1].

فيتبين لنا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يكون حفظ الأمة بعد النصر والفتح بثلاثة أشياء:

- حفظ الفرد المسلم بتقوى الله..
- وحفظ واقع الأمة الممكنة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..
- وحفظ الوحي بعلم الحديث الذي يمنع الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم..

فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل أسباب الحفظ بصورة إعجازية في حديث واحد.

ودل ذلك على أن لعلم الحديث فاعلية الوحي، بحيث يمكن أن نقول: إن أول حقائق القوة المقدرة لهذه الأمة.. كامنة في هذا العلم.

---

(1) أخرجه أحمد (436/1، 4156)، والترمذي (524/4، 2257)، وصححه الألباني.

2-فهم حقيقة الصراع وأبعاده:

إن فهم حقيقة الصراع وتحديد أبعاده تنطلق من فهم حقيقة ربانية الدعوة، فهذه الدعوة دعوة ربانية، لها أقدارها الربانية، وحساباتها المنهجية..

وأهم هذه الحسابات: حسابات الزمن والدماء..

ففي حساب الزمن قد نتساءل عن هذا الوقت الطويل الذي تمضيه الأمة تحت الاستضعاف، لماذا؟!

والإجابة هي: أننا ندفع ثمن فترة طويلة من الانحراف عن الحق، فيجب تقبل النتائج المهولة للصراع بنفس راضية..

والحسابات الصحيحة للدعوة هي التي تعين على تقبل هذه النتائج..

وتحقيق التوافق بين الإحساس والتصور البشريين وحقيقة الأمر عند الله تعالج الخلل في ضبط هذه الحسابات.

والمثل التاريخي الضابط لحسابات الزمن والدماء في واقع الدعوة هو تاريخ بني إسرائيل..

لقد بقي بنو إسرائيل في عبودية فرعون أربعمائة عام، وبعد هذا الزمن الطويل يصنع الله موسى ويرسله ليخلص بني إسرائيل، ولا ندرك حكمة طول الوقت إلا بعد خلاصهم من العبودية، لنكتشف أنها كانت باستحقاق عادل على أعمالهم، فبمجرد خروجهم من العبودية.. عبدوا العجل، ولم تكد أقدامهم تجف من ماء البحر الذي فلقه الله كل فرق كالطود العظيم..!

ومن نفس الموقف تتبين حسابات الدماء.. فقد كان جزاء بني إسرائيل عندما عبدوا العجل

أن قُتِلَ أكثرهم، وهذا حساب الدماء في ميزان الله في مقابل أفعال البشر..

والإحساس بالزمن دائر في التصور الإسلامي بين حقيقة الزمن كما هي عند الله، وتعامل الناس مع هذا الزمن كما هو عندهم، بدليل قول الله عز وجل: **{وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}**.

فالأمر الذي ينزل إلينا من عند الله ليتحقق بزماننا في ساعات أو دقائق أو ثوان.. ينزل في يوم مقداره ألف سنة: **{يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}**..

ومن هذا المعنى ينشأ مقتضى مهم وهو الصبر، وهو الحقيقة الثانية التي تضمنتها الآية: **{سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللهِ ذِي المَعَارِجِ * تَعْرُجُ المَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ(4) فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا}**..

فالدعوة أمر ضخم، هي من عند الله، وزمنها يتراوح ما بين الزمن عند الله والزمن عند الناس، وتلك هي الطبيعة التي تقتضي الصبر..

ورغم ضخامة الصبر الناشئ عن هذا المفهوم إلا أنه لا يخرج عن طاقة البشر، ولا يتوقف معنى الآية عنده؛ بل يمتد إلى حساب الزمن في واقع الدعوة.. لنتعلم كيف نتصوره وكيف نحقق مقتضى هذا التصور..

والأساس الصحيح لحساب الزمن هو قدر الله في واقع الدعوة، فالوحي الذي كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينزل عليه من فوق سبع سماوات، ولكنه كان يسبق الحجر الذي ألقاه اليهود من فوق سطح أحد البيوت ليسقط على رسول الله صلى الله عليه وسلم!

ولذلك عندما شكا الصحابة إلى رسول الله مرارة الاستضعاف، وآلام التعذيب: «أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا.. ألاَ تَدْعُو لَنا؟».

قَالَ لهم: «**قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ في الأرضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأسِهِ فَيُجْعَلُ نصفَين، وَيُمْشَطُ بأمْشَاطِ الحَديدِ مَا دُونَ لَحْمِه وَعَظْمِهِ، مَا يَصُدُّهُ ذلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ اللهُ هَذَا الأَمْر حَتَّى يَسيرَ الرَّاكبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَموتَ.. لاَ يَخَافُ إلاَّ اللهَ والذِّئْب عَلَى غَنَمِهِ، ولكنكم تَسْتَعجِلُونَ**»[1].

ومن هنا كان التعبير القرآني بـ «الفتح القريب» و«النصر القريب» هو معالجة نفسية وشعورية تعين على تحقيق الصبر، ومقتضياته في واقع الجهاد أو واقع الاستضعاف..

ويدخل في إطار هذه المعالجة الشعورية اعتبار كل مرحلة جديدة تدخل فيها الدعوة هي اقتراب من حقيقة النصر، ولعل تسمية صلح الحديبية بالفتح كان ضمن هذه المعالجة.

كما تأتي المعالجة الشعورية من ممارسة واجب الدعوة، حيث يتحقق الاطمئنان بأداء الواجب، ليعالج الوقت الطويل بمقتضى الرؤية البشرية المجردة..

وفي حساب الزمن لسنا مطالبين إلا باستغلال كل لحظة من حياتنا في السعي من أجل دين الله، كما أن حساب الزمن لن يكون صحيحًا.. إلا إذا أدركنا الدلالة المنهجية لكل مرحلة زمنية تمر بها الدعوة؛ فقد تكون الحجة هي الدلالة المنهجية للزمن، مثلما كان الزمن في دعوة نوح عليه الصلاة والسلام، حيث أثبت النص القرآني دقة الحساب.. رغم بلوغه ألف سنة إلا خمسين عاما!

---

(1) أخرجه البخاري (1322/3، 3416).

وفي حين يذكر النص تقديرا دقيقا فيقول: **{أَلْفَ سَنَةٍ}** ثم يستثني: **{إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا}** نجد أن لحظة خاطفة قد حالت بين نوح وابنه حتى جعلته لا يستطيع إكمال حديثه معه..!

هذه اللحظة تختلف طبيعتها عن طبيعة التسعمائة وخمسين عامًا، ولها دلالة أخرى غير دلالة الصبر والحجة، وهي دلالة الحسم والانتقام، وهكذا يرتبط الزمن بدلالته، فلم يكن من الممكن أن يمتد زمن الألف سنة إلا خمسين عامًا حتى يستطيع أن يتحدث نوح إلى ابنه حديثه الأخير.. فإذا بالحديث الأخير لا تتم عبارته.. **{وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ}**!

إن معيار الدقة الربانية في حساب الزمن لها صورة عجيبة، وهى صورة إسرافيل وقد تناول البوق في فمه، رافعًا رأسه إلى العرش، في انتظار لحظة النفخ..!

تلك هي اللحظة عند الله لا تتأخر، حتى يأخذ إسرافيل البوق أو حتى يرفعه إذا كان قد أخذه، أو يرفع رأسه لينظر الأمر إذا كان قد رفعه، تلك هي اللحظة عند الله..

والله تبارك وتعالى يجعل من الزمن حجة على خلقه، وينشئ للزمن دلالة، ويجعله برهانًا على صبره، ومن أمثلة اعتبار الزمن حجة: هو بقاء نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، مع علم الله بأنه لن يؤمن معه إلا قليل.. هم أصحاب السفينة، فلم يكن الزمن في قدر الله سبب هداية بقدر دلالته على صبره **سبحانه وتعالى**، وحجته على خلقه، وتلك هي القيمة الحقيقية للزمن في قصة نوح.

أما قصة فتية الكهف فكان دورهم في الدعوة هو إعلان العقيدة فيما بينهم، وتقييم الواقع وفقًا لعقيدتهم: **{ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا}** [الكهف:10] ويدخل الفتية الكهفليناموا ثلاثمائة سنين، ويزدادوا تسعا، هذا الزمن الطويل الذي قضاه الفتية نومًا عميقًا كان في حساب الدعوة دورًا كاملًا أتموا به واجبهم

أمام الله عز وجل، حيث أعلنوا العقيدة وشهدوا على واقعهم، فكانت الخطوة الثالثة التجرد لله في تحديد المنهج: **{فَأْوُوا إِلَى الكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا}** [الكهف: 16] وبذلك اكتملت العناصر الأساسية الثلاث في الدعوة:

- إعلان العقيدة.
- تقييم الواقع.
- التجرد في تحديد المنهج.

ولم نكتشف أن الدور البشري قد تم بتلك العناصر إلا بعد أن يقوم الفتية من نومهم، ليجدوا الغاية من المنهج المطلوب قد تحققت..

فإذا بزمن النوم تنشأ له دلالة الفصل بين الدور البشري المطلوب، والآثار القدرية المترتبة عليه، ليكون هذا الزمن خطًّا فاصلًا في عقول أصحاب الدعوة بين الواجب التكليفي على الدعاة، والقدر المكتوب عند الله!

وقد ساهم الزمن في استقرار حقيقة أن وعد الله حق، مما يعني أن إقامة الحجة واستقرار المفاهيم لها حاجتها الزمنية التي لا تتحقق إلا بها..

إن معيار الحساب الحسي للزمن في أصغر وحداته هو طرفة العين..

وعندما قال سليمان: **{قَالَ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ}** [النمل:38-40]..

اختار الذي يستطيع أن يأتي به قبل أن يرتد إليه طرفه لكونه الأسرع، لنتعلم

كيف يكون حساب الزمن في واقع الدعوة.

ومن هنا كان من أعظم الآيات التي أعطاها الله لسليمان: الريح التي تحمله إلى المكان الذي يحتاج شهرا للوصول إليه.. في نفس الوقت.

3-وحدة الموقف الإسلامي:

من أهم ضرورات الموقف السياسي: أن يتعاون المسلمون في إدارة الحرب ليكون لهم منطلق واحد، تجتمع فيه كل الطاقات الفكرية، وكل الخبرات العملية، وكل إمكانات المتابعة الواقعية.

ويحقق وحدة الموقف الإسلامي عدة مبادئ، أهمها:

- لا صراع مع مسلم.
- اعتبار الدخول تحت الغاية النهائية.
- التفريق بين العلاقة السياسية والعلاقة الحركية.
- التوازن في تقييم صواب وخطأ الاتجاهات الإسلامية المختلفة.
- الارتكاز على الحسم الواقعي لقضايا الاختلاف الفكري.

****

الفصل الثاني

نموذج للصراع السياسي بين الإسلام والجاهلية

(مصر: 1965 م – 1981 م)

التفسير التاريخي للحركة الإسلامية

مقدمة منهجية:

قبل طرح نموذج الصراع «مصر 1965- 1981».. نجيب على تساؤل قد يتبادر إلى الذهن: لماذا مصر، ولماذا هذه الفترة؟

وللإجابة على هذا التساؤل عدة جوانب:

الأول: أن الحركة الإسلامية في العصر الحديث بدأت من مصر، لذا يلزم دراستها من خلال بدايتها في مصر.

الثاني: أن الحركة الإسلامية في مصر اكتسبت صفة القوة السياسية خلال هذه الفترة حتى نهايتها، مما يجعل لأحداث هذه الفترة وهذا الواقع فرصة قيمة لدراسة دقيقة، يتم من خلالها تحليل هذه الأحداث التي انتقلت بالحركة لهذه المرحلة، وحققت لها صفة القوة السياسية.

الثالث: أن وصول الحركة الإسلامية في مصر إلى هذه المرحلة كان تحت وطأة أكبر ضغط جاهلي، وذلك لأن النظرة الجاهلية العالمية لمكانة مصر على أنها مفتاح المنطقة العربية جعلها تلقي بكل ثقلها الأمني والإعلامي والسياسي والعسكري لمحاربة الحركة الإسلامية في مصر..

مما جعل مفاتيح الحركة في مصر نتائج معيارية للعلاقة بين الإسلام والجاهلية في أي موقع من العالم!

الرابع: أن الذين يعيشون التجربة أو يشاركون فيها، هم الذين يقدمونها، ولا يقدمها عنهم غيرهم.. ولا يجوز لهم أن يتجاوزوا حدود تجربتهم..

لأن الكتابة عن تجارب الآخرين تسهم في إحداث طمس وإهدار للتجربة في كل موقع من مواقعها، وكل فترة من فتراتها، هذه قاعدة سياسية مهمة..

وهذه الجوانب هي بمثابة المقدمة للإجابة الأساسية عن التساؤل:

«لماذا مصر؟.. ولماذا هذه الفترة؟».

إن تجربة الحركة الإسلامية في مصر تجربة منهجية كاملة، حتى وإن سبقها –من حيث النتائج العملية والسياسية– تجارب إسلامية أخرى في مواقع أخرى قد تكون أقرب إلى بلوغ غايتها..

وذلك لأن الحركة الإسلامية في مصر منذ بداية الإخوان المسلمون والعمل الفدائي في القناة وحرب اليهود حتى المنصة.. تقدم أساسيات منهجية إسلامية كحقائق مطلقة، يمكن تجريدها من ظروفها وملابساتها الخاصة لتحقق وعيا سياسيا على مستوى الحركة الإسلامية العالمية في كل مواقعها.

ويحسن أن نذكر ابتداء هذه الأساسيات بترتيبها الصحيح الذي يمثل في أي تجربة خطًّا صحيحا لتطور العلاقة بين الفكر والحركة هي:

الأساسية العقدية، الشرعية، الحركية، القدرية، السياسية، بأبعادها التي طرحناها في هذا الكتاب.

ولكن الأمانة تقتضي القول بأن ظهور هذه الأساسيات في الواقع لم يكن بهذا الترتيب الصحيح..

حيث برزت دعوة الإخوان من خلال: الأساسية الحركية.. فقدمت نموذجًا لا مثيل له في البناء التنظيمي للجماعة، ونماذج لا يعلى عليها في أساليب الحركة، وهي التي أظهرت على خط القناة منهجا حركيا تاريخيا.. في حرب الإنجليز، وقدرات تكتيكية عسكرية هائلة في حرب اليهود عام 1948..

ولم يكن الواقع يسمح بخلاف عقيدي حول العدو، حيث أن كفر الإنجليز واليهود كان أساس الاندفاع العسكري نحو المواجهة..

ولكن قيام الحركة الخبيثة للضباط عام 1952 أنشأ ضرورة الحكم على العدو الجديد.. لينشأ معها الأساسية العقدية التي اكتملت في كتابات الأستاذ سيد قطب.. مما أنشأ خلافا خطيرا تحول بالحركة الإسلامية إلى متاهات فكرية، تسببت بدورها في تراجع المنهج الحركي إلى الصفر الذي بدأ منه شباب الحركة الإسلامية مرحلة ما بعد تنظيم 65..!

فكان الخلل في العلاقة الجدلية الصحيحة بين الفكر والحركة هو أخطر ما واجهته الدعوة في تلك المرحلة..

فجرى إنشاء الأساسية العقدية على حساب المستوى الحركي للدعوة، بعد تغييب أصحاب الحركة في السجون..

ورغم ذلك، فقد كان إنشاء الأساسية العقدية -في نفس الوقت- شرطا لبداية جديدة صحيحة حققت منطلقا تاريخيا للحركة حتى الآن..

لتبدأ الدعوة بعد توافر الأساسية العقدية بخبرة حركية ضعيفة، تمثلت في عدة محاولات

لم تدخل منها حيز التنفيذ سوى محاولة الفنية العسكرية، وبفكرة خداعية غير قائمة على المواجهة العسكرية الفعلية.

وذلك بعد انقطاع الصلة العملية بين أصحاب المستوى الأول في الحركة -بسبب سجنهم- وأصحاب المحاولات الأخيرة الذين بدءوا بخبرتهم وإمكانياتهم الذاتية.

ولكن البداية الجديدة للأساسية الحركية بخبرة المبتدئين وإمكانياتهم الذاتية أظهرت خطا حركيا خطيرا؛ وهو الارتكاز على الخبرة الشخصية والذكاء العقلي، حتى بلغ الأمر أن تكون أهم مراجع الحركة.. كتابات حرب العصابات وتجارب الكفاح المسلح التي لا تمت إلى الإسلام بصلة!

الأمر الذي أنشأ -بالضرورة- الأساسية الثالثة، وهي الأساسية الشرعية، الداعية إلى الالتزام بالدليل الشرعي في كل مراحل الدعوة، وضرورة أن يكون لأصحاب الدعوة سلف في كل موقف أو تصرف، والاهتمام بالعلم الذي تتوفر به الأدلة، حتى لا تكون دعوة داعية إلى إقامة المجتمع المسلم.. وهي تفتقد شرعية حركتها وسلفية منهجها!

وهي أساسية جوهرية أسهمت بصورة طيبة في تأصيل الدعوة من حيث قضيتها وأسلوب جمع الناس حولها..

ورغم أن هذا التأصيل قد تم من خلال الأساسية العقدية؛ فكان لأصحاب سلفية الدعوة فضل تثبيت هذا التأصيل الشرعي في الواقع بسبب تواجدهم في هذا الواقع بصورة واسعة.

وأخيرا.. ونحن نواصل تحليل أساسيات المنهج الكامل من حيث الواقع، يجب الانتباه إلى حقيقة أن الخطأ والصواب كان احتمالا قائما على جميع من حاول إبراز أي أساسية من هذه الأساسيات إلى الواقع..

ولكن قيام الاحتمال لا يلغي فضل المحاولة..

وهذا ما كان واضحًا في إبراز الأساسية القدرية بصورة كبيرة؛ وذلك لأن الفشل المتلاحق لتجارب الدعوة في مصر جعل أصحاب الدعوة يبحثون عن علة هذا الفشل، فكانت أهم محاولة للبحث هي: الاتجاه القائل بأن الدعوة لها أسباب وسنن يجب ارتباط منهج الحركة بها، كما يجب ارتباط منهج الحركة بأحاديث آخر الزمان وعلامات الساعة..

وحتى في سياق هذه المحاولة.. حدثت تجارب خاطئة، لم تحقق الارتباط بين منهج الحركة والسنن الثابتة وأحاديث آخر الزمان وعلامات الساعة بصورة صحيحة، ولكن فضل إبراز هذه الأساسية لم يذهب مع خطأ المحاولة، حيث التقط آخرون هذا التوجه الحركي ليعالجوا أخطاءها، ويحددوا التصور القدري الصحيح لمنهج الحركة.

وما أن بلغت الدعوة هذه المرحلة المنهجية الهائلة -والتي توافرت واستقرت فيها الأساسية العقدية والحركية والشرعية والقدرية- حتى انطلقت بكل قوتها وبكل استعدادها للبذل والتضحية؛ فتجاوزت الدعوة مرحلة الجدل وغموض السبيل وقصر الرؤية الصحيحة للعمل؛ الأمر الذي تطلب إبراز الأساسية السياسية لتحقيق ضبط القوة وتوجيه الاستعداد؛ ليتحقق أكبر قدر من الأهداف المحددة للدعوة..

وبعد هذه المقدمة المنهجية نعود إلى واقع الحركة الإسلامية في مصر من بدايتها.

الإخوان المسلمون كبداية تاريخية:

كانت تجربة الإخوان واقعا جامعا لكل تجارب الدعوة الحركية والفكرية، حتى ظهرت كتابات سيد قطب التي مثلت نقلة نوعية لمجموع تلك التجارب، ليتربى عليها الشباب الذين دخلوا بعد ذلك في تجربة الفنية العسكرية، لتكون تجربة الفنية منطلقا تاريخيا لعدة

محاولات حركية عرفت باسم تنظيمات الجهاد 77- 97.. حتى أحداث 81 التي كانت امتدادا فكريا وتربويا لكل الأحداث السابقة عليها..

وقد لخصت كلمة كارم الأناضولي في محكمة الفنية العسكرية الدرس التاريخي المأخوذ عن هذه التجربة، وكانت ملهمة لهم في استمرارهم حتى الدخول في تجربتهم الجديدة في 81.

ولعل أبرز الأمثلة الدالة على ذلك الامتداد؛ أن يكون محمد عبد السلام فرج -وهو من أهم عناصر التجربة- امتدادا مباشرا لتنظيمات الجهاد السابقة عليه..

الخلية الأولى:

وتماما مثلما يكون الأمر في الكائن الحي.. يكون الأمر في واقع الدعوة، حيث يحمل الكائن الحي كل خصائص الخلية الأولى..

ومثلما تؤثر الظروف المحيطة بخلية الكائن الحي فيها.. تؤثر ظروف الخلية الأولى للحركة..

فما هي ظروف الخلية الأولى للحركة؟

لقد أوجد الله بقدره ثغرة في هذا الواقع، لتكون أول ظرف مناسب للخلية الأولى، وكانت هذه الثغرة هي بقايا صغيرة جدا من أهل السنة، في حالة تقوقع وانقطاع عن المجتمع، حظيت باستثناء نادر من بطش نظام عبد الناصر، بسبب بعدها عن السياسة والواقع، في مقابلة فكر جماعة الإخوان المنغمس في السياسة والواقع..

ومثلت جماعة أنصار السنة المحمدية أكبر وأقوى ظهور لهذه البقايا..

فلم ينتبه لها أحد، لأنها هي نفسها لم تكن تدري أنها ثغرة!

كان الأمن مطمئنا إلى الجماعة لأن قضيتها –قضية القبور والأضرحة ومحاربة البدع– لا تمثل خطرا أمنيا..

كما أن الجماعة كانت محدودة جدا بزوايا قليلة لا يرتادها إلا بعض المسنين السنيين المنعزلين عن الناس والمكروهين منهم!

لكن قضية الجماعة وظروفها كانت هي نفسها أساس صلاحيتها كحاضنة للخلية الأولى!

فالقضية زرعت في الخلية الأولى أخطر خصائص الحركة الصحيحة، فمن الناحية التربوية كانت عقيدة التوحيد، والحياة بمقتضياتها، والولاء لأهلها، والمفاصلة مع المجتمع عليها..

كما أن اقتراب الشباب من الجماعة أوجد ترحيبا شديدا من شيوخ الجماعة، فتعاملوا مع الشباب حديثي السن باعتبارهم إخوة، مما أحدث نضجا في شخصية هؤلاء الشباب..

ومن الناحية الفكرية كان التعامل مع النصوص الشرعية «القرآن والحديث» هو الذي أوجد أساسا سلفيا لتفكيرهم، كما كان هذا الأساس حافظا لهؤلاء الشباب من أي تيارات فكرية معادية للإسلام، مثل الصوفية والشيوعية التي كانت منتشرة في المجتمع بصورة خطيرة للغاية..

ورغم تركيز الجماعة دعويا على قضية الأضرحة؛ إلا أن التعامل مع النصوص الشرعية بصورة مباشرة –قراءة القرآن والحديث– وفقا لمنهج للجماعة كان أساسا في تكوين تصور كامل للإسلام، وخصوصا عند قراءة كتب الجهاد والغزوات والسير والحدود في صحيح البخاري ومسلم.

وكذلك كانت الجماعة هي مكان التعرف على كتابات السلف الصالح.. كتب ابن تيمية وكتب ابن القيم..

هذا من حيث قضية الجماعة، أما من حيث ظروف الجماعة.. فقد كانت عزلتها سببا في بعد هؤلاء الشباب عن المتابعة الأمنية!

وهناك حقيقة مهمة بخصوص جماعة أنصار السنة، وهي أن البداية التاريخية للجماعة كانت قائمة على المعنى الكامل للتوحيد، «الحكم والنسك والولاء»، من خلال الشيخ حامد الفقي مؤسس الجماعة، وهناك وثائق تثبت ذلك..

وظل لهذا التصور الكامل أثرا باقيا في الجماعة، كان سندا لشباب الخلية الأولى عندما وصلوا لهذا التصور وأعلنوه بين الجماعة..

ولكن المساندة تمثلت في نصح الشيوخ بتقدير موقف الشباب الذي ينطق بالحق، ونصح الشباب بالمحافظة على الجماعة حتى تستمر الدعوة..

ولأن بقاء شباب الخلية الأولى في الجماعة كان أمرا صعبا أو مستحيلا، فقد خرج الشباب من الجماعة، لينتقلوا إلى ظروف أخرى وهم لا يملكون أي خبرة.. أو إمكانية.. أو تأييد.. أو تصور.. إلا ما تعلموه من الجماعة!

الخروج إلى المجتمع المصري:

لقد ظلت مجموعة الشباب تقرأ النصوص بعيدا عن الواقع، وكان من الصعب أو المستحيل الاستمرار علي هذه الحالة، فكان لابد من الخروج للمجتمع، ولكن كيف؟! توزع اتجاه التفكير في هذه المرحلة إلى عدة اتجاهات:

- البقاء علي حال القراءة حتى يكتمل التصور الشرعي اللازم للخروج إلى الناس..

- أو الخروج كضرورة شرعية ليتحدد مع هذا الخروج وباستمراره أساسيات التصور المطلوب..

والحقيقة أن كلا الموقفين بقيا كمنهج ومنطلق فكري للمناهج القائمة حتى المرحلة التي تعيشها الدعوة الآن!

فخرج أصحاب الموقف الأول ليتعاملوا مع الناس بنفس النظرية التي تبنوها قبل خروجهم إلى الناس، فبقي أصحاب هذا الموقف على الدراسة النظرية، ليكون الحد النهائي للمواجهة مع المجتمع هو مهمة تفهيم من أراد الفهم من الناس، واعتبار العلم هو بداية العمل الإسلامي ومنتهاه..

وخرج أصحاب الموقف الثاني ليمارسوا المواجهة بصورة عملية دون خطة أو تصور محدد، وتمثلوا في موقفهم هذا موقف إعلان الدعوة على الناس في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم..

خرج الشباب إلى الناس بإحساس الصحابة عندما صدعوا بالحق في مكة، وتصوروا نتيجة هذا الإحساس أن الناس ستتعامل معهم مثلما تعامل كفار مكة مع الصحابة، لكنهم فوجئوا بترحيب الناس بهم، وارتياحهم لدعوتهم، وتجاوبهم معهم، ولم يكن شيء مما توقعوه في مخيلتهم، فاختلطت مشاعر الغرابة والفرح..!

لقد كان راسخا في إدراك هؤلاء الشباب أن المنهج المطلوب تحديده لن يكون صحيحا.. إلا من خلال المواجهة! وكانت هذه هي الحقيقة الأولى المستفادة من تلك التجربة..

ولكن تجربة المواجهة الأولى كانت مع العامة، ولم يكن في حساباتهم أن هناك من سيكون له موقف قريش الذي كانوا يتوقعونه من البداية..!

مصر.. عبد الناصر:

ابتداء من الحضانة التي كان أشهر شعاراتها: «يا رب احفظ بابا جمال»..

ومرورا بالمرحلة الابتدائية ذات المناهج المشحونة بالأفكار الاشتراكية وشخص عبد الناصر..

والمرحلة المتوسطة التي تتواصل فيها المناهج الموجهة، وتكون فيه الرحلات الإجبارية إلى الهرم والسد العالي؛ لربط الشباب تاريخيا بالفراعنة بناة الهرم، وحاضرا بالزعيم باني السد..

وانتهاء بالجامعات التي فرغت فيها قاعات المحاضرات، بعد توزيع الطلبة على الرحلات والمؤتمرات والمعسكرات ومسيرات التأييد والبيعة مدى الحياة للزعيم الملهم..!

كان الأستاذ الجامعي الملحد.. هو النموذج الاجتماعي لشباب مصر..

وكان الكتّاب الذين يكتبون القصص التي تتضمن القيم والمفاهيم والتقاليد المعادية للإسلام هم رموز الأمة..

ومن القصة إلى الفيلم، من أجل صناعة مجتمع كافر بكل أبعاد الكفر الصريح..

جميع الكتاب والمفكرين والصحفيين ملزمين بالهجوم على الإخوان كرمز للدعوة، وكان هذا الهجوم هو الإذن الرسمي بالدخول في أي مجال إعلامي..

كانت البراعة والعبقرية تقاس بمستوى هذا الهجوم المفروض..

وهكذا كان التعليم.. وهكذا كان الإعلام والثقافة..

كانت المؤسسات الدينية جميعها وبكل توجهاتها -وبلا استثناء- تجتمع وتتفق

وتنطلق عندما تكون المهمة هي الإنكار وبشدة على الإخوان أو أي عمل من أعمالهم..

وفي المقابل كان التدين يعني التصوف، وكانت كل المحاولات السياسية لإثبات تدين القائمين على السلطة هي زيارة ضريح الحسين!

وكان الانتماء للدين لا يعني سوى أخذ العهد على شيخ من شيوخ الطرق الصوفية!

وفي ذلك الوقت كان الشباب المواظب على الفرائض يبحثون له عن راقٍ، يتهامسون حوله: هل به مس؟

كان الشباب المواظب على الفرائض يصلي الفجر سرًّا دون أن ينتبه إليه أحد، بعد انتشار إشاعة تقول أن من يصلي الفجر يقبض عليه..

كان كافيا لفض أي تجمع.. أن تحاول شرح آية: **{وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ}** [المائدة: 44]..!

كان الناس يشيرون إلى أحد البيوت قائلين: البيت ده فيه واحد من الإخوان!

ومن هذا الواقع كانت المواجهة..

وكان طرف المواجهة مع هؤلاء الشباب هو التنظيم الناصري..

مجتمع له تنظيمه الداخلي «الاتحاد الاشتراكي العربي»، على رأسه لجنة مركزية كل عضو من أعضائها كتلة لحمية حاقدة على الإسلام..

تنظيم كرأس الإخطبوط الجاثم بجسده فوق قلب مصر، يعد النبض، وتمتد أطرافه فوق كل أطرافها، لينقل الحركة والهمس، فلا عزبة ولا كفر ولا نجع ولا قرية.. إلا وترى فيها لافتة الشؤم: الاتحاد الاشتراكي العربي..!

مجتمع ينتمي إلى الاشتراكية المتمكنة التي فرخت كوادر مغسولة المخ تحت مظلة الدراسات السياسية التي أنشئت لها خصيصًا كلية أو مغسلة الاقتصاد والعلوم السياسية، التي لا يلتحق بها إلا أصحاب أعلى درجات الثانوية العامة، لدراسة الإخوان أعداء الثورة.. من خلال المناهج ورسائل الماجستير والدكتوراه.

مجتمع له زعيمه.. الذي اجتمعت فيه كل خصائص الزعامة القومية، صوت وصورة.. من يؤيده عالميًّا: الكتلة الشرقية، ودول عدم الانحياز علنًا، وأمريكا والغرب سرًّا.

مجتمع.. له شعبه الذي كانت تتعلم فيه الأجيال النطق على حروف كلمة جمال، مرورًا بكل المواهب الشعبية التي جمعها جهاز إعلامي أقنع الشعب بأن هزيمة 1956 كانت انتصارًا، رغم ضياع قرية أم الرشراش سابقًا –إيلات حاليًا!–، وشرم الشيخ، وفقد القدرة على التحكم في مضيق تيران، وزرع القوات الدولية في سيناء للمرة الأولى..!!

ثم رتب هذا النظام الفاجر الاحتفالات بعيد النصر من تاريخ ضياع الأرض، وجعله إجازة قومية تتعطل فيها المصالح والهيئات الحكومية والمدارس!!

حتى الفن: ابتداءً بالأراجوز.. وانتهاءً بالمسرح والسينما!

ابتداءً بالمنوجلست[1]... وانتهاءً بأرقى القصائد التي جعلت السد معجزة عبد الناصر... معجزة ليس لها أنبياء[2].

ثم إثبات النبوة لصاحب المعجزة التي ليس لها أنبياء على لسان الشاعر الذي قال في عزاء جمال بعد موته: «قتلناك يا آخر الأنبياء!!».

---

(1) على أنغام السمسمية: إذا قابلت الإرهابي... فاضربه يا سيدي بالقبقابي.. (سيد الملاح – 1969).

(2) معجزة ما لها من أنبياء.. أدورة أرض بغير فضاء؟!

والذي «ساب له في يده مصر أمانة»[1].

والذي بلغ أن جعل لعيد الثورة صلاة.. «في صلاة العيد: عيد الثورة بناجيك.. يا رب».

مجتمع له زعيمه الذي أعلن قرار ضرب سوريا بعد حركة الانفصال وإنهاء الوحدة.. **فصفق الناس تصفيقًا حادًّا ملتهبًا..!**

ثم قرر في نفس الخطاب عدم ضرب سوريا لأن الدم العربي لا يسفك بيد عربية.. **فصفق الناس تصفيقًا، كان أيضًا حادًّا وملتهبًا..!**

التصفيق على التناقض.. التصفيق على أي شيء.. التصفيق وحسب..!

وبعد أي خطاب تنزل المانشتات المكتوبة قبل الخطاب:

صدى عالمي.. وزارات العالم الخارجية ومراكز البحوث العالمية تحلل الخطاب.. انخفاض سعر الدولار.. الجيش الإسرائيلي يرفع حالة الاستعداد القصوى..

لقد كان العالم وراء عبد الناصر في حربه على الإسلام، فكانت المرحلة الناصرية الاشتراكية..

ولم تقف حرب عبد الناصر على الإسلام عند حدود مصر:

- انضم إلى الحبشة في عدوانها الصارخ على إريتريا..

- وانضم إلى القبارصة اليونان في نزاعهم مع القبارصة المسلمين، وجعل الأزهر

(1) كما في أغنية عبد الحليم حافظ: سيبنا في إيدك مصر أمانة، وهي كلمة عامية مصرية تعني: ترك.

يستقبل مكاريوس عدو الكيان الإسلامي للأتراك..

ولكي لا يتم استثارة الشعور الإسلامي.. كان لابد أن تتم هذه الحرب بأداة معادية للدين، تقضي عليه دون كشف الوجه الصليبي في العداء..

فعندما انضم إلى الهند في خصومتها المرَّة ضد باكستان المسلمة.. كان ذلك تحت مظلة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز التي تبناها عبد الناصر مع نهرو..

وتحت نفس المظلة تم غض الطرف عن المذابح التي أقامها الصرب لمسلمي البوسنة تحت قيادة تيتو..

وعندما انضم عبد الناصر إلى تنجانيقا –أحد أقاليم تنزانيا حاليًا– وغض الطرف عن المذبحة الشنعاء التي أوقعتها بشعب زنجبار المسلم، ورحب آخر ترحيب بنيريري السفاح تحت مظلة الاشتراكية، حيث كان نيريري يتظاهر بالاشتراكية وهو قسيس كاثوليكي!!

لقد كان عبد الناصر حريصًا على ألا تكون صورته معادية للإسلام حتى يتمكن من القضاء علية دون إثارة النخوة الإسلامية في الدفاع عن الدين..

وكانت مراعاة هذه النخوة بالتأكيد على الإيمان بوجود الله والرسالات السماوية، والفرق بين الاشتراكية والشيوعية..

كما كانت هناك عدة قرارات مواكبة لضرب الإسلام، منها إنشاء إذاعة القرآن الكريم، وإنشاء دار التحرير التي طبعت كتب التراث «كتاب الشعب»، وذلك إلى حين.. حتى يتم قتل الشعور الإسلامي..

وفي هذه الظروف كان لابد أن تأخذ العلاقة بين هؤلاء الشباب طبيعة الخلية، لأنهم كانوا في حاجة إلى مساندة نفسية أمام هذه الظروف، فلم يكن لهم مساندة إلا من

ذات أنفسهم، فتكونت وبصورة طبيعية ونفسية ما اتفق على تسميته الخلية الأولى..

تكونت الخلية في مرحلة أمنية مناسبة –بفضل الله وتقديره **سبحانه وتعالى**– وكانت عناصر المرحلة:

– شباب صغير السن يأخذ على عاتقه الدعوة إلى الله..

– نشأت هذه الفكرة عنده دون أن يكون له نماذج يقتدي بها، وإخوة كبار ينصحونه..

– كان تركيز الحكم الناصري منصبًّا على الإخوان أو بقاياهم في السجون، حيث كانوا لا يتصورون أنه من الممكن أن يكون هناك دعوة إلا من خلال الإخوان، ولأن الإخوان في السجن.. فقد انتهت المشكلة!

– عدم رغبة صلاح نصر في التعامل مع الأحداث التي كانت بعد القضاء على الإخوان بشيء من الاهتمام، وعدم الرغبة في تصعيدها إلى رجال السلطة بعد إعطائهم تقريرًا بانتهاء المشكلة بعد مذابح الإخوان.

كما أن ارتكاز الدعوة في البداية على أفكار بعيدة عن فكرة الوصول للسلطة أحدث نوعًا من الاستهانة بالدعوة.

حيث بدأت الدعوة بالاهتمام بأحكام الهدي الظاهر «اللحية – الحجاب» من ناحية... ومن ناحية أخرى ظهرت فكرة العزلة والهجرة، وكلها أفكار بعيدة عن المواجهة.

كما أنه لم يكن هناك أجهزة أمنية تابعة للداخلية بمعنى الكلمة، بل كانت مكاتب مهملة تابعة للأقسام، وقد كانت المخابرات العامة هي المكلفة فعلًا بمواجهة الدعوة الإسلامية.

ثم حدثت ظروف غير متوقعة، أدخلت الخلية في مرحلة أمنية جديدة، وتمثلت في الإعلان عن اكتشاف تنظيم سيد قطب!

اكتشاف تنظيم سيد قطب:

أعلن عبد الناصر –وهو في الاتحاد السوفييتي– عن ضبط تنظيم 65، قائلًا بافتخار: لقد اعتقلنا 18 ألف في ليلة واحدة «وهذا هو الشرق»..

– سافر المشير عبد الحكيم عامر للاتفاق أو للموافقة على أكبر صفقة سلاح فرنسية لمصر بعد أحداث التعذيب التي تمت في السجن الحربي.. «وهذا هو الغرب».

وجاء الإعلان عن الصفقة في المجلات المصرية، وعلى غلافها صورة المشير وعلى صدره نياشين وأنواط الكذب والوهم..

حتى يذكرنا منظره القبيح بقبح شجرة الجاهلية «ذات أنواط»[1].

وداخل المجلة الرجل الحقيقي فعلًا، المفكر القدوة الحبيب، ملء القلب والعين «سيد قطب» جالسًا وحده في ساحة السجن، وبذلك يقولون: هذه هي الصفقة.. وجاء دور الثمن!

مقتل سيد قطب:

كان الترتيب الطبيعي للموضوع، أن تكون «كتابات سيد قطب» قبل «مقتل سيد قطب»..

---

(1) وكانت صورة الغلاف لإحدى المجلات الملونة هي صورة المشير عبد الحكيم عامر الملونة أحمر وأصفر والنياشين المعلقة وأنواط النصر والواجب والشجاعة.

لكن الحقيقة أن شباب الحركة الإسلامية في هذه الفترة لم يعرفوا سيد قطب إلا بعد قتله، فكان الترتيب الصحيح هو ما يوافق ترتيب العلاقة والتأثير، بين سيد قطب وواقع الدعوة في هذه المرحلة.

والتقييم السياسي لموقف سيد قطب يمكن استيعابه من خلال أثره في واقع الدعوة، وكذلك من خلال حجم المحاولة الجاهلية في مقاومة هذا الأثر..

والحقيقة أن فهم كتابات سيد قطب لن يكون كاملا إلا بمعرفة عدة حقائق أساسية:

– أن كتابات سيد قطب **كتابات دعوية تربوية**.. كتبت ليستطيع من يقرأها النطق بما فيها والدعوة إليها وترديدها على أسماع الناس، ولم يكن الهدف منها مجرد تحصيل علمي أو معرفي، وهذا ما يفسر التكرار والتنوع في العبارات الدالة على المعنى الواحد، وهو ما ظنه البعض مجرد أسلوب أدبي.

– كتابات سيد قطب **كتابات إنسانية ونفسية،** فعندما كان يعرِّف الاستواء على العرش كان يذكر القول السلفي القاطع فيقول: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة..

ولكنه كان أحيانا يعبر عن إحساسه الإنساني تجاه حقيقة الاستواء، كيف يتعامل مع هذه **الحقيقة السلفية في الاستواء** تعاملًا وجدانيًّا، فيظن المتربصون به أنه يؤوِّل الأفعال والصفات..!

– كتابات سيد قطب **كتابات مواجهة واقعية،** فعندما عَرَّف الإسلام بأنه تصورات اعتقادية، وشعائر تعبدية، وأحكام قانونية، وأن الإسلام له ثلاث مرتكزات: الحكم والنسك والولاء.. إنما كان يواجه واقع تحكمت فيه مفاهيم خاطئة؛ منها: أن الإسلام يكون بمجرد القيام بالجانب العقدي أو التعبدي فيه دون الاعتبار لقضية الحاكمية.

ولم تنتبه السلطة الجاهلية في مصر هي الأخرى لخطورة كتابات سيد قطب إلا بعد اكتشاف تنظيم 65، فبدأ الهجوم عليها منذ هذا الوقت حتى الآن!

وقد كان الهجوم السخيف على كتابات الأستاذ سيد قطب سببًا في تعرف الناس عليها، وكان من أول هذه السخافات أن يصدر الاتحاد الاشتراكي العربي كتابا لعبد العزيز كامل وزير الأوقاف يرد على كتاب «معالم في الطريق» بعنوان: «معالم في طريق الخيانة والرجعية»، يتهم فيه الأستاذ سيد قائلا ومتعجبًا:

سبحان الله! هل يريد سيد قطب أن ينزل الله على الأرض ليحكم بنفسه..

الشهادة:

من أبرز حقائق الإسلام: حقيقة الشهادة..

وفهم هذا الدين: هو تحقيق مقتضياته وحقائقه..

ومقتضى حقيقة الشهادة: الإخلاص والتزام الحق، ويجمعها في الإسلام: «الاستعداد للموت في سبيل الله».

لأن هذا الاستعداد يستحيل حدوثه في الواقع إلا بالإخلاص والطاعة، ويصبح الاستعداد للموت أقوى أدلة الحق في واقع صاحب هذا الاستعداد..

ومن هنا جاء معنى الشهادة..

إن صاحب هذا الاستعداد بذاته أقوى دليل على الحق، وتصبح هذه الشهادة أقوى أسباب الفهم الإسلامي على الإطلاق؛ لأن الفهم بالدليل، والشهيد أقوى درجات هذا الدليل.

وهذا مشرك يقتل مسلمًا فيقول المسلم وهو يُقتل: الله أكبر.. فزت ورب الكعبة، فيسلم المشرك.. بعد أن تلقى من المسلم الشهيد الدرس الأخير.

وها هم فتية الدعوة الأوائل يقرؤون الظلال قبل قتل سيد قطب، ويمرون عليه دون أن ينتبهوا إليه.. ثم يُقتل سيد قطب؛ فيرجعون إليه ويعكفون عليه، ويتحقق أكبر نطاق من الفهم الإسلامي الصحيح في الزمن القريب.. ويخدم الدعوةَ دمُه قبل قلمه.

وباختصار شديد: فإن كتابات سيد قطب هي أول الكتابات الحديثة التي تنطبق فيها الشروط الصحيحة لكتابات الحركة الإسلامية.

فكان التواجد السريع للحركة الإسلامية من العناصر التي تترقب فرصتها، الأمر الذي لم يتوقعه أحد وبأقصى درجات الفهم الصحيح المأخوذة عن كتابات سيد قطب بصفة أساسية.

ثم كانت النكسة..

فبدأ التخفيف من وطأه القهر الناصري للشعب، الذي حقق للدعوة فرصة حركية أوسع بين الناس..

وبدأ في نفس الوقت استغلال الشيوعيين للموقف ومحاولة القضاء على حكم عبد الناصر، وحقق هذا الاستغلال الشيوعي فرصة أكبر للحركة الإسلامية كمواجهة للمد الشيوعي الخطير في مصر.

فبدأ سقوط الاتجاه الاشتراكي، ولجأ الناس إلى ربهم حتى ينصرهم، وحدثت موجة تدين طبيعية.

ومات جمال..

وتولى السادات الذي اضطر إلى رفع شعار العلم والإيمان لمواجهة الخطر الشيوعي، ولا تزال حركة الشباب صغير السن مجهولة لدى الأمن، ويقرر السادات إعطاء فرصة للاتجاه الإسلامي –والذي كان قائما بالفعل– لمواجهة الشيوعية، وفي الوقت الذي ظن أنه سينشئ الرغبة في التحول إلى الاتجاه الإسلامي من أساسها كتصرف سياسي.. لم يكن يدري أن هناك من سيلتقط فرصة وجوده الغالية.

لقد كان السادات كمن يشعل عودًا من الثقاب وهو لا يدري أن الغرفة معبئة بالغاز.. وتضمنت تصفيته لمراكز القوى التي خلفها نظام عبد الناصر بعد أحداث 15 مايو 1971 فرصة أمنية هائلة للحركة، حيث أدت إلى تسريح الفريق الذي كان مسئولًا عن متابعة الحركة الإسلامية، مما أدى إلى إضعاف جهاز المخابرات، في حين كان جهاز أمن الدولة بسيطًا لا دور له.

ويمكن تحليل تلك المرحلة في هذه العناصر:

- الدعوة قضية فطرية بالأساس.. وليست مجرد تلقين..
- الغباء غير الطبيعي من جانب الحكم الناصري.
- قدر الله الغالب على أمره..
- صغر سن الشباب خفف من التركيز الأمني عليهم..
- صغر سن الشباب جعله متحمسًا.. وخصوصًا أنه لم يقاس من أهوال الفترة الناصرية..
- الرغبة الجامحة في القضاء على الحكم الناصري كرد فعل نفسي لأهوال الناصرية.. وكرد فعل للخوف من تكرار هذه الأهوال معهم.

إن نكسة 67 دليل قاطع على أن العالم لا يسير وفق خطة محكمة لا يخطئ

أصحابها، لأنه لو كان الأمر كذلك لما كانت النكسة أصلًا، ولو على الأقل في هذا التوقيت..

لأنه في هذا التوقيت لم تكن جذور الأصالة الإسلامية قد ماتت بعد.. حتى جاءت النكسة لتتحول أرض مصر إلى تربة خصبة ومناسبة لامتداد وارتفاع هذه الجذور.

كل هذه العوامل ساعدت على إنشاء الحركة الإسلامية لتمثل خط الواقع الذي هيأه الله للدعوة، ثم يأتي خط التطور الطبيعي للحركة ذاتها.

بدأت مجموعات الشباب تنطلق إلى الدعوة من منطلقات مختلفة.. حيث لم يكن هناك واقع قائم للدعوة يمكن النسج على منواله أو السير على منهجه..

وكانت المنطلقات التي انطلقت منها الدعوة محددة:

منطلق الجهاد:

وأصحاب هذا المنطلق كانوا يعتبرون أنفسهم امتدادًا طبيعيًّا لتنظيم سيد قطب، حيث كانت القضية هي محاولة قلب نظام الحكم، وكان التأثير الفكري لسيد قطب قد بلغ مداه، فكانت المحصلة هي التجمع على مفهوم الجهاد بعد أن تعامل الإعلام المصري مع أحداث تنظيم 1965 على أن الجهاد هو الأسلوب الذي انتظمت به الأحداث.

منطلق السلفية:

وأصحاب هذا المنطلق جاؤوا من عدة روافد..

- رافد الدعوة السلفية المتبنية لقضايا الحركة الوهابية، والتي تمثلت بصورة محدودة جدًّا في دعوة أنصار السنة التي كانت متمسكة تمسكًا شديدًا بتلك القضايا..

- رافد الامتداد التاريخي للدعوة السلفية التي بلغت قوتها في حركة جهيمان في الجزيرة العربية، والتي برز فيها عدم الانضباط الشرعي في منهج الدعوة، وتجاوز الاجتهاد العقلي لحدوده في الواقع، إلى درجة أن تكون الصلة بين الحركة والشرع ليست إلا في الانتساب والانتماء والهدف، أما الواقع والأسلوب فكان اجتهاديًّا عقليًّا بحتًا، مما أوجد التوجه السلفي كمواجهة لهذه الظاهرة.

- ثم كان خروج الإخوان من السجون ليتكون منطلق جديد، وهو الممارسة الحزبية والنيابية والجماعات الإسلامية في الجامعة، والعودة إلى الأساليب التاريخية الثابتة للجماعة.

وفي غيبة فكرة الهجرة والعزلة عن واقع الدعوة ومنهجها.. تطورت الحركة على مستوى مجموع هذه المنطلقات المختلفة، فتمثلت بصفة أساسية في الجهاد والإخوان والسلفية.

اتجاه الجهاد.. أعداد معدودة من الأفراد يتبنونه ويقولون به دون وجود خطة أو تصور له، ولا يتجاوزون مرحلة الكلام..

بعد تنظيم سيد قطب بدأ اتجاه الجهاد يظهر كل فترة زمنية في محاولات محدودة، حتى تم تكوين الخلية الأولى التي انتهت بحادثة الفنية العسكرية..

مجموعة من الشباب تربوا على فكر الجهاد ولم يطيقوا تحمل الواقع المحيط بهم، فكان الاتفاق مع صالح سرية.. والقيام بعملية الفنية.

وكان من خصائص حركة الفنية:

أنها كانت عقب انتصار حرب أكتوبر؛ الأمر الذي أكد الرفض الإسلامي للواقع رغم النتيجة العسكرية والإعلامية والسياسية التي حققها السادات من حرب أكتوبر.

كما أنها كانت أول خطة تدخل حيز التنفيذ، رغم أن خطة الفنية جاءت قائمة على فكرة خداعية.. وليست على المواجهة العسكرية المباشرة.

وكانت غالبية عناصرها من طلبة الفنية والطب والهندسة، مما فرض التفسير الإسلامي الصحيح للأحداث والأشخاص، والعقيدة الثابتة التي ارتفعت فوق مستوى التفسير الجاهلي الهزيل، والإحصائيات الجاهلية التافهة التي تعتبر هذه الأحداث ناتجة عن أشخاص يعانون من عوامل نفسية معقدة وقاسية أو فشل اجتماعي.

ثم محاولات ما بعد الفنية التي بدأت بتنظيم «يحيى هاشم» الذي حاول إنقاذ إخوة الفنية العسكرية من السجون.

ثم مرحلة 81 والتي تميزت بتعدد منطلقاتها التنظيمية، والتي تزامنت فيها مجموعة «القاهرة» التي كان وجودها ممتدًا وموازيًا مع البداية الأولى لمجموعة الخلية الأولى في الإسكندرية، ثم مع مجموعات الامتداد الطبيعي للفنية العسكرية، حتى المحاولة التي بدأها محمد عبد السلام بصورة أساسية، حيث تزامنت بدايته هي الأخرى مع وجود عدة مجموعات أخرى كان أهمها مجموعة ناهيا التي كونها طارق الزمر، والتي كان أهم عناصرها عبود الزمر، حيث تزامن كل ذلك أيضًا مع تحول الجماعة الإسلامية من النشاط الطلابي في الجامعات إلى العمل العسكري.

لتتكون الصورة النهائية لواقع الحركة العسكرية السرية التي بدأت من خلالها أحداث المنصة..

أقدار 1401 هجرية

هكذا كان السادات قبل قتله يبذل جهدًا هائلًا ضد نفسه، وكانت أيامه الأخيرة داخلة بأحداثها ضمن قدر إلهي بقتله، حتى بدا للجميع قتيلًا يمشي على الأرض.. وكان

تحرك السادات المكثف هو أبرز العلامات الدالة على الطبيعة القدرية للمنصة.

فكانت قرارات سبتمبر في الابتداء، مرورًا بالسخرية من النقاب، وسب الشيوخ في الانتهاء.. نقاطًا أساسية ثلاثًا في خط مقتله، وكان رد الفعل لهذا الخط وتلك النقاط هي ذاتها علامة جديدة، وكانت الرغبة في قتله شديدة، حتى بلغ هذا القتل مبلغ الأُمنية الهائلة!

ثم كانت مجموعة العلامات الفردية التي ساهمت كل علامة فيها في تحقيق القدر الإلهي بالقتل، ولعل ما يمكن ذكره:

- أن يأمر السادات –ولأول مرة– الحرس الذي كان أمام المنصة بالرجوع خلفها تحسبًا لهجوم متوقع من الخلف.

- أن يمرض القائد المعين للطابور ليحل محله ضابط آخر اختار أن يفتش عربة ويترك عربة.. ليجيء دور عربة الموت في ترتيب العربات التي لم تفتش.

- أن يتوه الأفراد المكلفون بإحضار القنابل من الصحراء بعض الوقت؛ فكان هذا التيه سببًا في نجاة هؤلاء الأفراد من أحد دوريات الشرطة التي انتشرت هناك في ذلك الوقت.

- أن تنجو سيارة القنابل التي جاء بها المشاركون من حادثة محققة بالاصطدام مع أخرى قبل الدخول إلى القاهرة بوقت قريب، حيث توقفت السيارتان والمسافة بينهما متر واحد.

وتمت العملية في أقل من وقتها المحسوب وبصورة دقيقة جعلت العالم يطمئن إلى أن تمام هذه العملية نتيجة حتمية لمستوى حركي وسياسي هائل حُسبت فيه التوقيتات ودُرست فيه الظروف.

وتمت العملية وتفجر الوضع السياسي في مصر، وكان أول آثاره الإفراج عن جميع القوى السياسية بعد المنصة، مما جعل من الحركة الإسلامية المنقذ العظيم من خطر الاعتقال لهذه القوى جميعها، ومحور الحركة السياسية العامة في مصر..

وأجبر الجهد المبذول، والتضحيات الهائلة من جانب أصحاب الحركة.. جميع القوى السياسية في مصر على احترامهم وتقديرهم.

ويضاف إلى ذلك.. الكيفية الإعجازية التي تمت بها العملية، والتي كانت دليلًا في نظر الناس على عظمة التفكير وحكمة التدبير، وإحكام العمل ودقة التنظيم..

وفوق ذلك وقبل ذلك.. كان التفسير الحقيقي هو إرادة الله عز وجل: **{وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}** [يوسف: 21].

وكنتيجة لأن المنصة قتل فيها رئيس الجمهورية.. فقد كسر حاجز الخوف من السلطة.

ونتيجة للأسلوب الذي تمت به العملية.. فقد أصبح الشخص المسلم بالنظرة الاجتماعية إنسانًا مفكرًا ومخططًا وفدائيًّا عظيمًا، بل أصبح نموذجًا اجتماعيًّا.

ونتيجة لمجموع هذه النتائج اتسع نطاق الانتساب للدعوة، وزاد عدد الملتزمين والمتعاطفين معها.

ولكن.. للجاهلية موقف تقليدي ثابت عند هزيمة أي عنصر من عناصرها:

- التبرؤ من المهزوم حتى لا تهبط الجاهلية إلى مستوى الهزيمة مع عنصرها المهزوم..

– تأكيد توجيه النصح له وعدم استجابته، للحفاظ على المستوى السياسي للجاهلية وعدم سقوطه مع العنصر الساقط..

– إدخال احتمالات خفية في تفسير الموقف لتقليل التجاوب مع الحدث.. وتضييع أثره السياسي.

ولعل أبرز هذه الاحتمالات الخاصة بالمنصة هو القول بأن أمريكا هي التي قتلته بعد انتهاء الاستفادة منه! وكتاب «خريف الغضب» هو أول من ترك مساحة فارغة للاحتمالات الخفية وراء الحادث، وبمرور الوقت، وبغياب الذين شاركوا في الحادث، سيصبح من السهل على أعداء الدعوة إعطاء المزيد من المعلومات، في سياق التفسير الذي يريدونه؛ حتى يكون الواقع أكثر تقبلًا لهذه الاحتمالات، في غياب من يستطيع أن يرد أو يُكَذِّب.

وقبل أن تفيق الدولة من صدمة المنصة، كانت هناك محاولات لإزالة آثار هذه الصدمة المروِّعة، ولكنها كانت ساذجة!

وأبرزها.. محاولة تبديد المكاسب السياسية التي حققتها الدعوة الناتجة عن الحدث.

وفكرتها.. رسم الواقع السياسي في مصر من خلال الأحزاب السياسية، وتحريك هذه القوى بحيث يتحدد الشكل المطلوب للواقع السياسي في مصر بعد حادثة المنصة..

وكان المثير للسخرية هو السماح لأحد هذه الأحزاب المصنوعة بإعلان تبني هدف تطبيق الشريعة الإسلامية، وهو الأمر الذي لم يكن مسموحا به من قبل إطلاقًا!

وقد فعلوا ذلك ليظهر هذا الحزب كممثل للقوة السياسية الإسلامية، فيكون حجم هذه القوة هو حجم هذا الحزب، وتكون القوة السياسية الإسلامية موضع سخرية المجتمع واستهزائه، من خلال ظهور المسئول عنه في المؤتمرات لابسًا الطربوش، معلنا عن خبراته

العظيمة في قراءة الكف!

وتخيل صاحب هذه الفكرة[1] إمكانية أن يتصور الناس أن الحركة الإسلامية بكل رموزها وخبراتها وفكرها وطاقتها.. يمكن اختزالها في هذه الأضحوكة السياسية!

النقلة العالمية:

كان من أهم نتائج حادثة المنصة وصول أعداء الدعوة إلى حقيقة عجز الحكومات الإقليمية عن مواجهة الحركة الإسلامية، فكان قرار التعامل المباشر بينهم وبين أصحاب الدعوة..

وكان هذا القرار من أهم الأسباب النهائية التي أدت إلى النقلة العالمية في الصراع..

وفي الوقت الذي ثبت فيه عجز الحكومات الإقليمية عن مواجهة الحركة الإسلامية.. ثبت لأصحاب الحركة عدم جدوى التعامل المباشر مع هذه الحكومات، واستنفاذ طاقة الدعوة في مواجهات مع القوى الأمنية الإقليمية.

وكانت أفغانستان هي أول نموذج تاريخي لهذا الموقف..

فكان تدخُّل قوات الاتحاد السوفيتي لمساندة الحكومة الشيوعية المنهارة تحت ضغط الحركة الإسلامية في أفغانستان عام 1979.. هو شرارة النقلة العالمية..

في نفس الوقت كانت أمريكا تخشى اقتراب السوفييت من المياه الدافئة في الخليج، وتهديد وجودها العسكري ونظامها الأمني في الشرق الأوسط، لذلك أوعزت إلى عملائها بما يلي:

---

(1) كان رفعت المحجوب هو صاحب هذه الفكرة.

- تسمح مصر والسعودية بجمع التبرعات وخروج الشباب المسلم إلى باكستان للتدرب في معسكرات باكستانية تحت سمع وبصر المخابرات الأمريكية..

- يتم بيع أسلحة أمريكية لتجريبها في الحرب ضد أسلحة الاتحاد السوفييتي مقابل الأموال التي تم جمعها من مصر والسعودية..

- تقوم مخابرات باكستان بالتنسيق بين فصائل المجاهدين الأفغان، واستقبال وتدريب المجاهدين العرب..

- توفر المخابرات الباكستانية للمخابرات الأمريكية إمكانية التواجد قريبًا من معسكرات المجاهدين ومخازن السلاح الأمريكي –الذي تم شراؤه–.

وفي ظل هذه الثغرة بين معسكرات الكفر، حدث الاختراق الإسلامي، فكانت مرحلة توجه الأخوة إلى المواجهة المباشرة مع القوى الجاهلية العالمية في كل مواقعها، وأهمها أفغانستان!

هذه المواجهة التي جمعت كل إمكانيات المسلمين على مستوى العالم في حرب واحدة مع عدو واحد.. هو أكبر دولتين عظميين في العالم..

وأضاف توجه المجاهدين من كل أنحاء العالم إلى نصرة إخوانهم المجاهدين الأفغان قدرًا هائلًا من القوة المعنوية، أدت إلى تعامل القوى المعادية للإسلام مع المسلمين كقوة سياسية لا يمكن حذفها من معادلة الظروف السياسية العالمية..(1)

---

(1) بعد اجتماع حلف شمال الأطلسي في إبريل 1989 صرحت مارجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا السابقة للصحافيين: «إننا الآن على وشك الانتهاء من الخطر الذي كنا نخاف منه في الاتحاد السوفييتي، ولكن هناك الخطر الأكبر القادم من خلف البحر المتوسط، وعلينا أن نستعد له»..

مما فرض النقلة بصورة واقعية وعملية..

ثم كان «الانتصار الكبير» الذي أنشأ للحركة الإسلامية ثقلًا سياسيًّا لا يمكن لأي أحد أن ينكره، وخصوصًا بعد اليقين من إمكانية الانتصار على أمريكا بعد الانتصار على الاتحاد السوفيتي..

وهو ما بدأ يتحقق الآن فعلًا في أفغانستان، مما ضاعف الثقل العالمي للحركة الإسلامية..

ومن هذا المستوى وبعد تلك النقلة العالمية للمواجهة الإسلامية ثبت الموقف الإسلامي العالمي، وانطلقت كل إمكانيات الدعوة من هذا المنطلق الواحد:

«**معالجة الشعور بـ وحدة الأمة.. وحدة العدو.. وحدة المواجهة**».

مواجهة المحورية الأمريكية: أحداث 11 سبتمبر

بعد الانتصار الكبير على الاتحاد السوفييتي، كانت هناك محاولات محمومة من أمريكا وعملائها لاحتواء من يمكن احتواؤه من رموز هذا الانتصار، وتصفية من فشلت معه محاولات الاحتواء..

فكان اغتيال المجاهد عبد الله عزام، وغيره من قادة الجهاد..

ثم احتواء البعض الآخر من خلال إشعال نار الصراع على السلطة..

وملاحقة من تبقى بعد ذلك لكي لا يكون هناك أي استفادة إسلامية من الخبرات العسكرية التي تجمعت لدى هذا الجيل..

تمامًا كما حدث مع آثار حرب 1973 في مصر.. مع الفارق الشاسع بينهما!

هذا من الناحية العالمية..

أما من الناحية الإقليمية، فقد ظلت الدعوة فترة زمنية طويلة دون أن تحقق كامل أهدافها، رغم أنها تركت أحداثا فيها بطولات ونماذج للثبات.. كما تركت خبرة حركية يستفاد بها.

ولكن استمرار الدعوة بهذه الحالة كان أمرًا يتطلب التقييم..

فقد ظهرت في الواقع متغيرات جوهرية، أهمها ظهور السيطرة الأمريكية على الحكومات الدائرة في فلكها، بحيث أصبح واضحًا أن الدعوة أمام أمريكا بصورة مباشرة، حيث تم اكتشاف أن الدول تسير بإدارة أمريكية لها عملاؤها ومجموعات عملها الخفية.

فتوجهت الحركة الإسلامية بنفس القاعدة التي كانت تتوجه بها إلى السلطات الحاكمة المعادية للإسلام.. إلى أمريكا كمصدر حقيقي لهذه السلطات في العالم.

ليتحدد المستوى الثابت للصراع العسكري بين الدعوة الإسلامية وأعدائها، ابتداءً من المنصة حتى أحداث سبتمبر!

نتائج النقلة العالمية:

كان وصول الحركة الإسلامية إلى أعلى مستويات المواجهة هو أهم تلك النتائج، وبجانب ذلك تحققت عدة نتائج مهمة:

- أهمها تحقيق القناعة بقضية الدعوة باعتبار ظهور الظلم الأمريكي والأوربي أمام الجميع، مما أنشأ قناعة الشعوب بالمواجهة التي تمارسها الدعوة، إذ أصبحت مواجهة مع احتلال أجنبي ليس له أي مبرر.

وكان المثال الواضح على ذلك سقوط المبررات التي أعلنتها أمريكا وأوربا لغزو العراق.

مثل زعم وجود أسلحة الدمار الشامل الذي ثبت كذبه باعتراف أمريكا نفسها.. وزعم نشر الديمقراطية الذي انكشف في العراق بما آلت إليه أحوال العراق بعد الغزو..

الأمر الذي يختلف عن المواجهة المباشرة مع الحكومات التي كانت الحركة متهمة فيها بالطمع في السلطة ومحاولة الوصول إليها.

أما القناعة بالنقلة العالمية من جانب أصحاب الدعوة: فهو المواجهة بقاعدة جهاد الدفع، الذي أوجد حالة جهاد الدفع الشرعية، وهي حالة متفق عليها على مستوى جميع توجهات العمل الإسلامي.

فتحركت العناصر القادرة على الجهاد إلى أفغانستان والعراق لجهاد الدفع المتفق عليه شرعًا..

. كما أن المحورية الأمريكية للصراع مع الإسلام أعطى لواقع الصراع طبيعة الحرب الصليبية، مما أوجد استفزازًا للشعور الإسلامي الذي حقق بدوره تعاطفًا كبيرًا للطرف المسلم في هذا الصراع، وخصوصا مع الإعلان بأن الحرب على الإرهاب حرب صليبية..

خاتمة

من أهم شروط الممارسة السياسية الصحيحة للدعوة: الإدراك الصحيح لواقع الصراع الذي تحياه الدعوة الآن..

نحن نواجه كل إمكانيات الجاهلية العالمية في الحرب على الإسلام..

بكل الخبرة التاريخية في الصراع مع الإسلام السياسية والاقتصادية والعسكرية والعلمية والبحثية والتقنية..

نحن لا نملك إلا الحق الذي نؤمن به..

ونخوض معركتنا مع الجاهلية باحتمال النصر أو الشهادة، وهما الحسنيان اللتان لا تخرج عنهما نتائج المعركة!

فيجب أن يكون لكلتا الحسنيين حظًّا متساويًا في إحساسنا ووجداننا..

والمرحلة التي تعيشها الدعوة الآن محكومة ومطبوعة بحقيقة الشهادة، ولن يكون الموقف الإسلامي صحيحا إلا من خلال حركة السعي للشهادة كاستجابة منهجية لطبيعة المرحلة.

ليكون السعي لتحقيق غاية الدعوة مرتبطًا بتقديم نموذج لمن يأتي بعدنا للثبات على الحق، وليكون هذا النموذج ملهمًا لهم للاستمرار على الدعوة والإصرار على نصرتها.

ومع الحق الذي معنا يكون تأييد الله عز وجل لنا.

وأخطر صور التأييد: غباء الجاهلية في تعاملها مع الدعوة!

إن الجاهلية لا تفهمنا، وتعجز عن الوصول إلى حقيقة الإسلام ذاته، والتي ينعكس

منها واقعنا..

والشخصية الجاهلية غبية بطبيعتها، وليس أدل على ذلك من اقتراح الكفار على الرسول صلى الله عليه وسلم أن: «تعبد إلهنا يومًا ونعبد إلهك يومًا»!

وليس أدل على ذلك أيضًا من اقتراح الكفار أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يعطوا أبا طالب أحد شباب قريش بدلًا منه، مما أفزع أبا طالب وقال لهم: أعطيكم ابني لتقتلوه، وتعطوني ابنكم أغذوه لكم!

لكن غباء الجاهلية لا يمنعها من أن تعاملنا بأمكر الأساليب الشيطانية، فالشيطان هو الذي يقف وراء الجاهلية في حربها على الإسلام، ولكن بمستوى مختلف يعطى الكفار أكبر قدرة تخطيطية في مواجهة الدعوة..

مثلما كان الأمر في الخطة المطروحة من إبليس لقتل النبي صلى الله عليه وسلم، بتفريق دمه بين القبائل..

لكن مكر الشيطان لا يقف أمام التأييد الرباني للدعوة.

ومن التأييد الرباني لنا: إحاطة الله بأفعال أعداء الدعوة..

فقد أنشأت حرب العراق واقعًا أفضل للدعوة..

وأدَّى ضغط أمريكا المتواصل على عملائها لشن الحرب بصورة سافرة على الإسلام إلى فضحهم وتعرية مواقفهم وعمالتهم..

وأدت زيادة موجات الانحلال والإدمان التي فرضتها الجاهلية إلى خوف الآباء على الأبناء، فقبلوا بالتزامهم بالدين حفاظًا لهم من الوقوع في شر الإدمان..

وأدَّى إسقاط هيبة علماء الأزهر في نفوس الناس للذهاب بمهابة الدين إلى وضع ثقتهم في رموز الدعوة السلفية، والشباب الملتزم..

ومن التأييد الرباني لنا: تنامي دخول النصارى في الإسلام، رغم كل المعوقات الخارجية والمحبطات الداخلية..

لأن هذا الدين هو دين الفطرة، والتفكير فيه بصدق لا يعني –إذا أراد الله– إلا الدخول فيه!

وقد وصلت هذه الظاهرة لدرجة خطيرة جعلتها محور السياسة الغربية، وموضوع مراكزها البحثية.. باعتبارها قضية حياة أو موت!

ويضاف إلى هذا الخطر أن يتجاوز الداخلون في الإسلام كل العوائق التي تحيط بالمسلمين في بلادهم الأصلية الفقيرة المعدمة، لتكتسب الدعوة مزايا الإمكانيات الشخصية التي يملكها هؤلاء المسلمون الجدد..

وفضلًا عن ذلك، أن يكون الدخول في الدين مرتبطا بالعقيدة السلفية الصحيحة التي يدل عليها عقيدة أصحاب المواجهة ومنطلقهم الفكري.

والله من ورائهم محيط.

فهرس الموضوعات

الموضوع **صفحة**

الموضوع	صفحة

الموضوع **صفحة**

الموضوع **صفحة**

الفصل الثالث (أبعاد الممارسة السياسية)

الموضوع	صفحة

الموضوع **صفحة**

الباب الثالث (النظرية السياسية الجاهلية)

الفصل الأول (التفسير العام للنظرية)

الموضوع **صفحة**

الموضوع **صفحة**

الموضوع **صفحة**

الموضوع	صفحة